بلال فضل



بلال فضل

ڤيتامينات للذاكرة

دار الشروق

ڤيتامينات للذاكرة
بلال فضل
تصميم الغلاف: وليد طاهر
الطبعة الأولى ٢٠١٦
تصنيف الكتاب: أدب/ تاريخ
٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com
رقم الإيداع ٣٣٦١/ ٢٠١٦
ISBN 978-977-09-3379-4

إهداء

إلى المؤرخ الدكتور خالد فهمي
وكتاباته التاريخية الملهمة
وإلى كتاب «حكايات من دفتر الوطن»
وكاتبه صلاح عيسى؛ الأستاذ، برغم كل شيء

«... ولا يخفى على المستبد مهما كان غبيًّا، أن لا استعباد ولا اعتساف إلا ما دامت الرعية حمقاء تخبط في ظلامة جهل وتيه عماء... لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد المختصة ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهَّى بها المتهوسون للعمل حتى إذا ضاع فيها عمرهم وامتلأت بها أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور ما أخذ، فصاروا لا يرون علمًا غير علمهم، فحينئذ يأمن المستبد منهم، كما يؤمن شر السكران إذا خمر، على أنه إذا نبغ منهم البعض ونالوا حُرمة بين العوام، لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامه في تأييد أمره ومجاراة هوان، في مقابلة أنه يضحك عليهم بشيء من التعظيم، ويسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد، ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفية العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس وتوسع العقول وتعرف الإنسان ما هي حقوقه وكم هو مغبون فيها، وكيف الطلب وكيف النوال، وكيف الحفظ».

من كتاب المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ـ صدر عام ١٩٠٢ ميلادية.

يقول هيجل في مكان ما: ««إن جميع الأحداث والشخصيات العظيمة في تاريخ العالم تظهر مرتين». وقد نسي أن يضيف: المرة الأولى كمأساة، والمرة الثانية كمسخرة... إن الناس يصنعون تاريخهم بأيديهم، إنهم لا يصنعونه على هواهم، إنهم لا يصنعونه في ظروف يختارونها هم بأنفسهم، بل في ظروف يواجَهون بها، وهي معطاة ومنقولة لهم مباشرة من الماضي، إن تقاليد جميع الأجيال الغابرة تجثم كالكابوس على أدمغة الأحياء، وعندما يبدو هؤلاء منشغلين فقط في تحويل أنفسهم والأشياء المحيطة بهم، في خلق شيء لم يكن له وجود من قبل، عند ذلك بالضبط، في فترات الأزمات الثورية كهذه على وجه التحديد، نراهم يلجئون في وجل وسحر، إلى استحضار أرواح الماضي لتخدم مقاصدهم، ويستعيرون منها الأسماء والشعارات القتالية والأزياء لكي يمثلوا مسرحية جديدة على مسرح التاريخ العالمي، في هذا الرداء التنكري الذي اكتسى بجلال القِدم، وفي هذه اللغة المستعارة».

من كتاب «الثامن عشر من برومبير» لـ«كارل ماركس».

متى ننصف شهداء وأبطال الثورة.. أقصد ثورة ١٩؟

(١)

لم يكن غريبا أن تمر علينا هذا العام ذكرى اندلاع ثورة ١٩١٩، كما تمر كل عام، في صمت شبه مُطبق، خاصة وقد أصبحنا نعيش في بلد يعمل حكامه جاهدين، على أن يتحسس المواطن جيبه الفارغ ويشكو حاله الواقف، وينعي حظه المقندل، كلما سمع كلمة ثورة، حتى ولو كانت قد حدثت سنة ١٩١٩.

حين نقارنها بالكثير من الثورات الشعبية والانتفاضات الجماهيرية التي قام بها المصريون على مدى تاريخهم، سنجد أن ثورة ١٩١٩ كانت أسعد حظا بما حصلت عليه من مكان ومكانة في الذاكرة الجمعية للمصريين، ربما لأنها عاصرت نشأة وسائل الإعلام المطبوعة والمذاعة والمصورة، والتي حفظت لنا برغم بدائية تقنياتها، الكثير من وقائع الثورة وأحداثها. ومع ذلك فكما اختزلت كتب التاريخ الرسمية والرائجة مجمل الثورة العرابية في شخص أحمد عرابي وعدد قليل من رفاقه، ونسيت مئات الشهداء الذين سقطوا في معارك الثورة العرابية العنيفة والضارية، ولم يحصلوا حتى على لوحات تذكارية تكرم أسماءهم، في حين حرص الإنجليز على أن يكرموا قتلاهم، في موقعة التل الكبير مثلا، في لوحات تذكارية نصبت في نفس الأماكن التي سقطوا فيها، فقد فعلت كتب التاريخ الرسمية والرائجة ذلك أيضًا في ثورة ١٩، حين اختزلت كفاح المصريين في عدد محدود من الزعماء السياسيين، على رأسهم الزعيم سعد زغلول، دون أن يتم إنصاف الكثير من أبطال الثورة الذين قدموا تضحيات بأجسادهم وأرواحهم، لم يكن ممكنا لولاها أن تنجح الثورة، ولا أن يحصد سعد ورفاقه السياسيون النجاح الذي حققوه على مائدة المفاوضات. ومع ذلك فقد كان التجاهل والنسيان مصير أبطال الميادين الثورية، و يا ليت ذلك حدث بعد موتهم، إذ لهان الأمر وأمكن تبريره، فالأمرُّ والأدهى أنه حدث في حياتهم، وأن كثيرًا منهم «ماتوا واندفنوا بالحيا»، دون أن يحظوا بالإنصاف والتكريم اللذَيْن يستحقونهما.

لن تجد مثالا أمرّ ولا أوضح مما حدث مع المناضل الفذ «عبد الرحمن فهمي» الذي يعتبره كثير من المؤرخين القائد الحقيقي لثورة ١٩، لأن العمليات العنيفة التي قام بها الجهاز السري للثورة، الذي كان يقوده ويشرف عليه، كان لها الأثر الأهم في حسم الكثير من المنعطفات الصعبة التي خاضتها الثورة، وكان يمكن للقوة العنيفة المسلحة التي قابلها بها الإنجليز وعملاؤهم من المصريين أن تجهض الثورة. ولذلك فقد كان سعد زغلول بوصفه القائد السياسي للثورة، يحرص على فتح قنوات اتصال سرية بينه وبين عبد الرحمن فهمي ورفاقه، ويستغل ما يقوم به جهازهم السري من عمليات عنيفة ومسلحة، لدعم ما يقوم به على مائدة المفاوضات، بل وكان يقترح بعض هذه العمليات، ومنها بالمناسبة ما كان يتم ضد سياسيين مصريين وصحفهم المناوئة للثورة، لأن سعد زغلول ومن خلال معاصرته للثورة العرابية ووقائعها المريرة، كان يدرك أن الثورة لم تكن ستنجح فقط بالمظاهرات السلمية التي تشترك فيها النساء مع الرجال، ويتعانق فيها الهلال مع الصليب، وأنها لو لم يكن لها قدرة على توجيه ضربات عنيفة لأشخاص ومؤسسات ومصالح الإنجليز وحلفائهم من المصريين، لأصبحت أثرا بعد عين.

وبرغم أن عبد الرحمن فهمي كان يضم في ذلك الجهاز السري عددا كبيرا من الشباب الذين تحلقوا فيما بعد حول سعد زغلول، وأصبحوا من أبرز القادة السياسيين للوفد ثم للحركة السياسية في مصر طيلة الثلاثينيات والأربعينيات، وعلى رأس هؤلاء أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي،

إلا أن سعد زغلول كان قد فرض زعامته الجماهيرية، بحكم الجماهير نفسها، وليس بسعي منه. وفي ظل ذلك بدأت الخلافات تزداد بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي مبكرا جدًّا، منذ أن رأى عبد الرحمن فهمي أن كل ما يقوله من ملاحظات على الخطوات السياسية لسعد زغلول لا يجد أذنا مصغية، وأن الوحدة التي كان يجب الحفاظ عليها بعد الثورة قد تفككت، وهو المناخ الذي أسفر عن مصادمات مسلحة بين أنصار سعد وأنصار عدلي في عام ١٩٢١ (كنت قد تحدثت عنها في فصل من كتابي «فتح بطن التاريخ» الصادر عن دار الشروق).

كان عبد الرحمن فهمي قد دخل إلى السجن عام ١٩٢٠، في قضية «العقاب الثوري» التي ثأر بها الإنجليز منه ومن رفاقه في التنظيم السري، قبل أن يتفرغوا للتنكيل بسعد زغلول ورفاقه، ليتم نفيهم للمرة الثانية، ولكن هذه المرة إلى جزر سيشل، بعد أن تم نفيهم في بداية اندلاع الثورة إلى مالطا، وهي معلومة يتغافل عنها الكثير من هواة الولولة الثورية المعاصرين، الذين ينسون أن النفي الأكبر لسعد زغلول من مصر كان عقب مراحل عديدة من تطورات الثورة، وفي وقت بدا أن شعلة الثورة قد أخمدت إلى الأبد، وأن الإنجليز وأذنابهم تمكنوا من تحقيق انتصار حاسم على إرادة الشعب. لكن سعد زغلول لم يعد فقط إلى مصر بعد نفيه بعد طلب العفو كما حدث مع أحمد عرابي، بل عاد سعد زغلول في عام ١٩٢٤ رئيسا للوزارة مكرِّسا زعامته شخصا وحزبا للأمة المصرية، ليتواصل فصل جديد من فصول الثورة على الاحتلال والاستبداد، لم يكن الأخير بالطبع.

حين أصدر سعد زغلول، عقب توليه الوزارة، قرارا بالإفراج عن عبد الرحمن فهمي وأغلب رفاقه من السجن، خرج عبد الرحمن فهمي ليجد واقعا جديدا تمامًا، ليس له فيه مكان حقيقي وفعال، حيث اتفق ـ هل أقول تواطأ؟ ـ الكل بمن فيهم أقرب أصدقائه ومعاونيه، على إبقائه في الظل بعد نجاح الثورة ووصولها إلى الحكم، لكي لا يؤدي إنصافه إلى تشتيت الأنظار عن سعد زغلول، القائد الذي أصبح رمزا للثورة، والذي بات من مصلحة البلاد أن تتوحد حوله الأصوات والجهود، ليدخل عبد الرحمن فهمي في حالة من الصمت الاختياري، ويدخل في اعتكاف طويل، حيث بدأ في كتابة مذكراته أو حولياته السياسية، والتي بدا، خصوصًا في جزئها الثاني، أنه ممرور للغاية من سعد زغلول، وأن سوء التفاهم الذي وقع بين الاثنين أحدث صدوعًا لا سبيل لرأبها أبدًا.

حين خلف مصطفى النحاس أستاذه سعد زغلول في زعامة الوفد سائرا على نفس خطاه، استمر صمت عبد الرحمن فهمي، حتى فاجأ الجميع في عام ١٩٣٥ بعد احتدام الأزمة السياسية بين شركاء الثورة القدامى، والذين تحولوا إلى خصوم سياسيين لدودين، فأصدر بيانا ملتهبا يدعو فيه إلى وحدة الصف. ومع ذلك فقد اختار ألا يقف إلى صف مصطفى النحاس وحزب الوفد، وإنما فاجأ الجميع بثنائه على محمد محمود باشا خصم النحاس والوفد، وقام بعقد لقاءات مع حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني وإسماعيل صدقي رئيس حزب الشعب وحلمي عيسى رئيس حزب الاتحاد، معتبرا أن النحاس يقوم بشق صف الأمة حين يركز على معركة الدستور أكثر من تركيزه على معركة الاستقلال، مناشدا إياه أن يقوم بتعديل مساره السياسي، لكنه لم يدرك أنه أساء إلى نفسه وإلى تاريخه وإلى نواياه الطيبة بلقاءاته مع سياسيين من نوعية إسماعيل صدقي وحلمي عيسى، لا يتورعون عن تلبية دعوات الملك فؤاد لضرب الوفد بأي شكل ممكن، وأنه أصبح بذلك خصما واضحا ليس لشخص النحاس، بل لحزب الوفد الذي كان يرى أن معركة الدستور هي

المعركة الحقيقية التي لو انتصر فيها الشعب، سيمكن له أن يصنع مصيره بيديه بعيدًا عن نفوذ الأسرة المالكة والاحتلال البريطاني.
ولأن عادتنا من قديم الأزل ولم نشترِها هذه الأيام، ألا نحتفظ خلال خلافاتنا السياسية بقدر الخصوم المختلفين معنا، فقد ساءت الأمور حين قرر عبد الرحمن فهمي تطوير خلافه السياسي مع الوفد، بإعلانه خوض انتخابات عام ١٩٣٦ في مواجهة مرشح الوفد، ليقوم الوفد بصحافته ونفوذه السياسي والشعبي، بتحويله من قائد حقيقي لثورة ١٩ يستحق التقدير والاحتفاء، إلى خصم سياسي متحالف مع الفاسدين ومتواطئ مع المتآمرين على إرادة الشعب. ومع أن خوض أي سياسي لمعركة انتخابية ضد الوفد كان أمرًا شديد الصعوبة دائمًا، إلا أن أحدا لم يتوقع أن يسقط عبد الرحمن فهمي عميد الفدائيين المصريين في الانتخابات، ويحصل على ٢٦٤ صوتا فقط، برغم تضامن عدد كبير من السياسيين والمثقفين المصريين من كافة الأحزاب لمساندته إكراما لقدره، ومع ذلك فقد اكتسح منافسه محمد عبد الصمد أفندي الانتخابات، ليقرر عبد الرحمن فهمي أن يعتزل العمل السياسي مكتفيا بالكتابة، مُصدِرا بيانا مليئا بالمرارة قال فيه: «وإذا كنت قد أديت الخدمة لوطني في نهضته الكبرى عن طريق اللسان والعمل إلى حد قرَّب عنقي من حبل المشنقة ومن السجن الطويل والمعاناة الشاقة فإني أضع اليوم إلى جانب هاتين القوتين، أضع قلمي في الميدان لتكون الخدمة للوطن الخالد باليد والقلب واللسان، متجاهلا خصومة أي إنسان، راضيا بالعمل حيث يدعو الصالح الوطني العام»، لتكون صورة الخسارة الانتخابية المدوية آخر ما بقي في أذهان معاصريه، ولتتوارى مع الوقت سيرة نضاله الفدائي المبهر، وتدفن في بطون الكتب والمذكرات، ويصبح من آمال كل من قرأ تلك السيرة العطرة، أن يتم تصحيح هذا الخطأ، قبل أن يمر مائة عام على قيام ثورة ١٩، فينال عبد الرحمن فهمي حقه من التكريم والإنصاف، وتوضع مواقفه كلها في سياقها التاريخي دون افتراء ولا تجاهل.

(٢)

وإذا كان يمكن أن نعتبر ما تعرض له عبد الرحمن فهمي من إنكار لدوره الفدائي المجيد، أمرا تسبب فيه دخوله في معترك السياسة، واختياره أن يكون خصما معلنا لزعيم ذي شعبية طاغية مثل مصطفى النحاس، فإن ذلك لا يمكن قوله في حالة «الكثيرين من شهداء ثورة ١٩ الأموات والأحياء، الذين لعبوا أدوارا هامة في إنجاح الثورة، دون أن يتذكرهم أحد بكلمة طيبة واحدة»، على حد تعبير المؤرخ الصحفي صبري أبو المجد الذي لحسن حظنا، سمح له صاحبا دار الهلال إميل وشكري زيدان في الأربعينيات من القرن الماضي، أن يتفرغ شهرين كاملين على نفقة الدار، يجوب خلالهما مصر من أسوان إلى الإسكندرية بحثا عمن أسماهم الشهداء الأحياء من ثورة ١٩، فيخرج بحصيلة مشرفة ومؤلمة من الأسماء الثورية العظيمة، كان يمكن أن يطويها النسيان التام، لولا أنه حفظها داخل صفحات سفره الضخم «سنوات ما قبل الثورة» بمجلداته الأربعة، والتي لم تُعِد طبعها الهيئة العامة للكتاب منذ فترة للأسف الشديد.
من تلك الأسماء الثورية التي تواطأ الجميع على ظلمها، يحضرني في البداية اسم البطل «أسعد مشرقي»، الذي لم يكن له من اسمه نصيب، فقد حوكم خلال أيام ثورة ١٩، وقُضي عليه بالإعدام بسبب عملية فدائية قام بها في مدينته ديروط، وبعد ضغوط سياسية عديدة، تم تخفيف الحكم عليه إلى المؤبد، ليبقى في ظلام السجن، حتى بعد نجاح الثورة ووصول زعيمها سعد زغلول إلى منصب رئاسة الحكومة، حيث رفضت السلطات البريطانية كل طلبات الإفراج عنه، حتى إن العفو الشامل الذي أُعلن بمناسبة توقيع معاهدة ١٩٣٦، والذي شمل كل المعتقلين لأسباب سياسية أو

المقبوض عليهم بتهمة الاشتراك في أعمال مسلحة، بل ولم يفرج عنه بعد قضائه ثلاثة أرباع المدة، كما هو المتبع في كل سجون مصر، ليظل في السجن حتى أكمل مدة عقوبته كاملة غير منقوصة. وحين خرج من السجن، لم يجد الزغاريد والحشود في استقباله، ولم يلتفت إليه أي من شركاء الثورة الذين تقلبوا في المناصب الوزارية والمواقع السياسية، بل توارى عن الأذهان، ليكتشفه صبري أبو المجد بالصدفة، ويفاجأ بأن المطاف انتهى به أن يعمل خفيرًا لكوبري المعاهدة قرب مدينة ديروط بمحافظة أسيوط، بعد أن تعذر عليه فور خروجه من السجن العثور على عمل مناسب يضمن له الكفاف من الرزق. ومع أن ذاكرة الإنترنت أصبحت تحتفظ بمكان داخلها لكل من هب ودب، إلا أنك لو جربت أن تكتب اسم أسعد مشرقي في أي من خانات البحث في الإنترنت، لن تجد سوى الصمت الرهيب إجابة على بحثك.

مصير مؤلم مشابه كان من نصيب بطل آخر من أبطال الثورة هو «عبد القادر شحاتة»، الذي قضى سنين من عمره في السجن بسبب حكم صدر ضده خلال أيام الثورة، وحين خرج في العفو العام سنة ١٩٣٦، ظل بعدها لسنين عاطلا عن العمل، يرفض الكل تشغيله بسبب كونه «رد سجون»، وكأنه كان مجرما جنائيا عتيدا، وليس مناضلا ضحى من أجل استقلال بلاده. وظل وضعه المعيشي مريرا وسيئا، حتى جاء اليوم الذي أصبح فيه رفيقه في العمل السري أحمد ماهر رئيسا للوزارة في أكتوبر ١٩٤٤، فوصلت حالته إليه عبر فاعلي الخير، ليلحقه بوظيفة في بنك التسليف الزراعي المصري، كانت كل ما ناله بعد سنين من السجن والبطالة. لكن حظه في نهاية المطاف كان أفضل من حظ البطل حسن ياسين الذي كان أول رئيس للجنة الطلبة في تاريخ مصر، والذي بلغ من تألقه الثوري والنضالي أن حصل على عضوية مجلس النواب سنة ١٩٢٤، وكان وقتئذ طالبا في كلية الحقوق، ليؤدي أداءً نيابيا مشرفا، جعل الملك فؤاد يحرص على ملاطفته في كل مرة يذهب فيها لافتتاح دورة المجلس، اتقاءً لكلماته النارية التي كانت تصيب برذاذها كل المسئولين، لكن ذلك، وكما جاء في رسالة مؤلمة تلقاها صبري أبو المجد من رفيقه المهندس حنفي الشريف، لم يمنع أن ينتهي به الحال «فقيرا معدما حتى إنني رأيته في أواخر أيامه يسير بالقبقاب الخشبي يرتدي روبًا ممزقًا وشعره أشعث في شوارع مصر الجديدة».

(٣)

أعلم أن لديك من الحسرة الكثير، ومع ذلك سيصيبك المزيد منها، حين تقرأ تجربة المؤرخ الصحفي «صبري أبو المجد» في البحث عن أبطال ثورة ١٩١٩ المجهولين وشهداءها الأحياء، لتجد أن الصدفة وحدها كانت سببا في عثوره على تجارب كثير من الأبطال كان يمكن أن تندثر إلى الأبد، لأنها لم تجد من يهتم بجمعها، من ذلك مثلا ما حدث له حين توصل بالصدفة إلى عنوان منزل أبناء البطل الثائر «إبراهيم موسى» الذي كان من أبرز القيادات العمالية التي شاركت في ثورة ١٩، وتم اتهامه في قضية اغتيال السردار لي ستاك عام ١٩٢٤، وحين رفض أن يعترف على نفسه أو على زملائه تم إعدامه في صمت مريب، ولولا دأب صبري أبو المجد في البحث عن أسرته لكانت قصته نفسها قد اندثرت إلى أن يقضي الله أمرًا آخر.

بعد أكثر من لقاء لصبري أبو المجد مع أسرة إبراهيم موسى، قالت له ابنة إبراهيم موسى إن لديهم في صندرة البيت كتابًا ضخمًا كان قد خبأه رفاق والدها لديهم بعد فترة من إعدام أبيها، لأن الإنجليز ووزارة الداخلية لن يفكرا في العودة ثانية إلى بيت تم إعدام صاحبه، وأنها لا تعرف ما بداخل الكتاب الضخم، لكنها ستعطي له الكتاب لأنها أصبحت تثق فيه، وحين تصفح صبري أبو المجد الكتاب في التاكسي بعد عودته، اكتشف أن ذلك الكتاب المطبوع بالبالوظة يحوي المحاضر

الكاملة للتحقيق في قضية السردار، والتي تتضمن تقارير البوليس السياسي وشهادات المتهمين وشهود النفي والإثبات، لتقوده تلك المحاضر إلى عدد من أبطال الثورة المجهولين من خلال عناوينهم الواردة في المحاضر. كان على رأس هؤلاء شيخ الفدائيين والثوار بالإسكندرية «أحمد رمضان زيان» الذي كان يمتلك محلا بسوق الليمون بالإسكندرية، والذي منح «أبو المجد» ثلاث كراسات بها مذكرات وافية عن كل من اشتركوا في العمل الفدائي في الثورة، والذين أصبح بعضهم ضباطا في الجيش والبوليس، بل ووزراء بعد ذلك، والمؤسف أن صبري أبو المجد بدوره مات قبل أن يكمل كتابة موسوعته المهمة، ودون أن يعرف أحد مصير الكثير من الوثائق المهمة التي حصل عليها، والتي علمتنا التجارب المريرة أن نتمنى ألا تكون قد عادت إلى حوزة الدولة، لأنها حتما ستتعرض للتلف والضياع، وأن نتمنى بدلا من ذلك أن تكون قد ذهبت إلى أيدٍ أمينة تقدر قيمتها وتحفظها للأجيال القادمة.

(٤)

يحكي صبري أبو المجد لنا عن شخصيات ثورية فريدة تعرف عليها بفضل تلك المحاضر، من أجملها ثوريان فريدان كانا عند قيام ثورة ١٩ يبلغان الستين من عمرهما، هما الحاج أحمد جاد الله وزوجته التي كانت تتنكر في زي ضاربة للودع، وتقوم بإخفاء القنابل في سلتها، لتبعدها هيئتها هي وزوجها ذا اللحية البيضاء عن شبهات عساكر الإنجليز والداخلية المصرية المتواطئة مع الاحتلال، ليتم القبض عليهما بعد فترة طويلة، وتكون محاكمتهما مسخرة ثورية بامتياز، حيث كان الحاج أحمد جاد الله كلما وجه إليه القضاة الإنجليز سؤالا، طلب منهم أن يصلوا على النبي، فيصلوا عليه، فيقول لهم: «زيدوا النبي صلاة»، ويكرر ذلك عدة مرات وهو ينفي الاتهام عن نفسه وعن زوجته قائلا: «ده أنا رجلي والقبر، قنابل إيه اللي أشيلها بس!»، وحتى عندما ضعف قليلا، بعد أن زارته في السجن والدته التسعينية والمقعدة، ورآها محمولة على أكتاف القادمين لزيارته، بكى، فغضبت منه وهددته بأن تتبرأ منه إذا ضعف خلال المحاكمة، فعاد ثانية إلى رباطة جأشه التي جعلت المحكمة مسخرة في نظر الكل.

سنتعرف أيضًا على سيرة الثوري الفذ «عبد العزيز علي» الذي كان موظفا كبيرا بمحافظة القاهرة وكان يقوم بطباعة منشورات الثورة في مبنى المحافظة، ويستعمل أدوات المحافظة بل وبعض موظفيها في توزيع المنشورات سرا، وكان يُشتهر بأنه لم يقبض عليه متلبسا ولو لمرة، وأنه أفلت من كل البلاغات التي وشت به وخرج منها دون أي إدانة. سنعرف أيضًا قصة الطالب الثوري «سيد محمد باشا» الذي كانت مهمته إصدار نشرة الطلبة السرية، من خلال مطبعة يدوية كان ينقلها مع زملائه سرا كل ليلة، من مكان إلى آخر باستخدام عربة كارو متهالكة وغير مثيرة للشبهات، وكان يستعين مع زملائه على مشقة المهام الموكلة إليهم بما كان يعرف بنشيد الثورة الذي تم تأليفه خصيصا للطلاب، وتقول كلماته «يا عم حمزة إحنا التلامذة ما يهمناش، في القلعة نبات ولا المحافظة، مستبيعين ناس وطنيين، واخدين على العيش الحاف، والنوم من غير لحاف»، وهو النشيد الذي عاد ليكون لسان حال الطلبة في انتفاضة ١٩٣٥، وبعدها في انتفاضة ١٩٤٦ اللتين كان للطلاب دور رائع فيهما، قبل أن تمر الأيام ويستلهم الشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم كلمات ذلك النشيد الذي ألفه زكي الطويل والد الموسيقار كمال الطويل، ويقوم بكتابة قصيدة رائعة مطلعها «يا عم حمزة رجعوا التلامذة للجد تاني»، والتي لحنها الشيخ إمام وأصبحت لسان الحركة الطلابية في السبعينيات وحتى اليوم ولا أظنها من الأغنيات التي يمكن أن تموت أبدًا.

(٥)

من بين أبطال ثورة ١٩ المجهولين تعالَ نتعرف أيضًا على الثائر «عبد الوهاب البرعي» الذي بدأ تاريخه النضالي إلى جوار الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد والذي أشرف على تحرير جريدة «القطر المصري»، حين تم سجن صاحبها الصحفي المناضل «أحمد حلمي» بتهمة العيب في الذات الملكية، (ولعل من دواعي الأسى هنا أن نتذكر أن أحمد حلمي بكل ما له من تاريخ صحفي ونضالي طويل لم يشتهر بين القلة من المهتمين بتاريخ بلادهم، إلا بعد أن تم توصيفه بأنه جد كاتبنا الكبير وأبونا صلاح جاهين).
كان عبد الوهاب البرعي قد شارك في قيادة العمل الميداني لثورة ١٩ في مديريتَي الدقهلية والغربية، وبسبب نشاطه الثوري الموجع للإنجليز وأذنابهم من المصريين، حكمت عليه محكمة عسكرية بريطانية بالإعدام فهرب في مركب شراعي من المنصورة إلى حلوان، حيث خاض رحلة تخفٍّ مثيرة ليتمكن من الإفلات من حبل المشنقة، وإن كان بعد انزياح الغمة عنه بعد قرارات العفو في عام ١٩٢٤، قد تحول إلى معارض شرس لسعد زغلول في أوج مجده، ولم يلتزم حتى بالصمت الذي اختاره عبد الرحمن فهمي، بل ظل يهاجم سعد زغلول علنا، ويتهمه بالانحراف عن خط الثورة المصرية، حتى إن آخر مقالاته قبل موته في الهجوم على سعد زغلول كانت تحمل عنوان «اللهم انتقم»، وقد دفع بسبب تلك المقالات ثمنا مشابها للذي دفعه عبد الرحمن فهمي، حيث تمت إهالة التراب على سيرته، دون التفريق بين حقه في أن يكون له موقف سياسي معارض لسعد زغلول وقيادة الوفد، وواجب الجميع في أن يعطوه حقه من الإنصاف والتقدير لدوره الثوري. وهو ما تكرر أيضًا مع الطبيب «محمد حلمي الجيار»، من المنصورة، الذي قبض عليه مع عبد الرحمن فهمي في قضية جماعة الانتقام في مايو ١٩٢٠، وحُكِم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا، لكنه هرب في فبراير ١٩٢١ إلى تركيا، وحين زارها سعد زغلول عام ١٩٢٤ بعد توليه رئاسة الوزراء، أصدر عنه عفوا، فعاد إلى الدراسة في كلية الطب التي كان قد تركها، ليتجدد القبض عليه بعد قتل لي ستاك، وينال دبلوم الطب وهو في السجن عام ١٩٢٥، والغريب أن تاريخه النضالي الطويل لم يشفع له عند قيادة حزب الوفد التي رفضت بعد خروجه من السجن، ترشيحه على قوائمها في انتخابات ١٩٣٦، ليحدث صدام بين شباب الوفد وقيادتهم، كان صداما عنيفا، بحيث تدخل البوليس لحسمه وقتها.

(٦)

نختم استعراضنا لشهداء ثورة ١٩ الأحياء، بقصة مذهلة عن الثائر المجهول «أحمد عبد الحي كيرة»، طالب الطب الذي كان يرفض الاشتراك في مظاهرات زملائه ضد الإنجليز، حتى أطلق عليه زملاؤه في الجامعة لقب «ابن اللنبي» نسبة إلى اللورد اللنبي وسخريةً من حبه للإنجليز، ليكتشف أهله وأصدقاؤه بعد إلقاء البوليس القبض على تنظيم فدائي سري يقوده أحمد ماهر والنقراشي، أن كيرة كان عضوا قديما في التنظيم، وأن محبته للإنجليز كانت تمويها على نشاطه الثوري المسلح. شعر كيرة بضرورة الخروج من مصر، لكي لا يمكن الإنجليز وأذنابهم من شل حركته داخل السجن، واتفق بعض زملائه مع ربان باخرة إيطالية على تهريبه، لكن القبطان طلب مائتي جنيه ذهبا، متحججا بأنه يورط نفسه في تهمة خطيرة يمكن أن تجلب له الإعدام، وأصر القبطان على استلام المبلغ مقدمًا.
انتشر أصدقاء أحمد عبد الحي كيرة في القاهرة والإسكندرية، يستبدلون الأوراق النقدية التي كان قد تم جمعها من المتطوعين بالذهب، حتى اشترى بعضهم الجنيه الذهبي بـ ١٥٠ قرشًا، وكان ذلك رقما ضخما وقتها، ليتم تسليم المبلغ للقبطان قبل إبحار الباخرة بنصف ساعة، وحين وصلت

الباخرة إلى أول ميناء إيطالي، فوجئ كيرة بأن البوليس الإيطالي يبحث عنه، بعد ضغوط تعرض لها من الإنجليز، ففر من الباخرة، وعبر الحدود إلى ألمانيا، ولأنه خاف من إرسال عنوانه إلى أهله؛ لكي لا يقع العنوان تحت يد البوليس، وبدأ يعمل في تقطيع الأخشاب من الغابات ليكسب ثمن الطعام، بعد أن اتخذ من الحدائق سكنا له. وبعد مطاردات عديدة من البوليس، هرب إلى تركيا على أمل أن تحميه السلطات هناك، وبرغم ذلك لم يسلم من مطاردات البوليس الإنجليزي والمصري، حيث كان يتم إرسال عدد من الجواسيس إليه لمحاولة الإيقاع به، حتى إنه بعد أن كان قد فتح مقهى في إستانبول بالاشتراك مع مصري آخر، اضطر لإغلاقه هربا من الجواسيس، وعمل ممرضا في مستشفى تابع لمصلحة السكة الحديد التركية، ثم انتقل للعمل في مناطق أخرى من أجل لقمة العيش، وكان مسدسه لا يفارقه أبدًا.

وحين نزل الخديوي عباس حلمي الثاني في إستانبول بعد خلعه من العرش، قيل له من بعض رفاقه، إن أحمد عبد الحي كيرة سيقوم باغتياله لكي يحصل على عفو من الإنجليز، فشدد الخديوي الحراسة على نفسه، لكنه فوجئ ذات يوم بشاب داخل مكتبه يشهر مسدسا في وجهه وهو يقول له إنه أحمد كيرة، وظن الخديوي أنه هالك لا محالة، لكن كيرة سلمه مسدسه وقال له إنه لن يفعل ما تم اتهامه به، لأنه لن يحارب رجلا أعزل بلا سلطة ولا سلاح، ثم استعاد مسدسه وخرج، وحين حاول الخديوي الذي تأثر بذلك الموقف أن يتخذه سندًا له رفض بشدة، وقال له إنه لا يطلب أكثر من أن يعيش في سلام وأمان.

وحين تم اعتقال أحمد ماهر في قضية الاغتيالات السياسية، فكرت السلطات البريطانية في تسليم رقبته إلى المشنقة، فأرسلت مبعوثا إلى كيرة يجس نبضه في عرض شديد الإغراء، وهو أن يعود إلى مصر، ويشهد ضد ماهر الذي كان يعمل تحت قيادته في التنظيم من قبل، ولكي يتم استغلال ظروف كيرة الذي كان لا يجد قوت يومه إلا بشق الأنفس، خصوصًا بعد ضياع ثروة والده، وضع المبعوث الموفد من قِبل الإنجليز أمامه عشرة آلاف جنيه كمقدم لعودته إلى مصر، مع عرضٍ مُوقَّع بالعفو عنه، لكي يكون شاهد إثبات، لكنه رفض بشدة، فأخذ الموظف الإنجليزي الكبير يضاعف العرض، حتى وصل إلى ٤٠ ألف جنيه، لكن كيرة واصل الرفض، مؤثرا الاضطهاد والغربة والفقر على أن يخون نفسه ومبادئه، ويشهد ولو بكلمة ضد رفيق الثورة أحمد ماهر.

لم يكن غريبا أن يتعرض أحمد عبد الحي كيرة في عام ١٩٣٥ للاغتيال في تركيا، كعقاب على مواقفه الثورية، وخوفا من سيرته الناصعة التي تحولت إلى مصدر إلهام للثائرين من الأجيال الشابة في مصر، وبالطبع لم تتحرك المفوضية المصرية في إستانبول لمتابعة التحقيق في قضية اغتياله، بدعوى أنه يحمل الجنسية التركية، وأنها ليست مسئولة عنه كمواطن مصري. والغريب ـ كما يكشف صبري أبو المجد ـ أن جريدة «كوكب الشرق» الوفدية التي كان يرأس إدارتها في وقت اغتيال كيرة الدكتور أحمد ماهر، كانت الجريدة الوحيدة التي لم تنشر كلمة رثاء في حق الشهيد أحمد عبد الحي كيرة الذي أنقذ أحمد ماهر من حبل المشنقة، ليقتل أحمد كيرة مرتين، الأولى برصاص المسدس الذي اغتاله، والثانية بستار الصمت الذي أسدله عليه أبناء وطنه لسنين طويلة، قبل أن يتعرض للتشويه في أحد الأعمال الأدبية التجارية التي تناولت تاريخ ثورة ١٩.

(٧)

لست مغفلا، لكي أختم كلامي بالمطالبة بتكريم هؤلاء الأبطال، خاصة ونحن نقترب من ذكرى مرور مائة عام على ثورة ١٩١٩، لأن دعوة كهذه ستقابل بعبارات من نوعية «يا أخي إحنا في إيه ولا في إيه، مش لما البلد تفوق من اللي هي فيه!»، وهو ما قيل من قبل لكل من طلب لهم

الإنصاف والاحتفاء، في حين أن من يردد عبارات مثل هذه لا يجد أدنى مشكلة في إضاعة البلاد لأموالها ووقتها في تمجيد البطولات المزيفة للكثير من السياسيين والعسكريين، ولا يدرك خطورة تضخيم دور الكثير من القادة المشهورين، وإعطائهم أكثر من حقهم، وربط كل الثورات والهبات والانتفاضات الشعبية بأشخاصهم، لتبدو معزولة عن سياقها ومنفصلة عن ارتباطها بالحركة الشعبية التي صنعت من هؤلاء قادة وزعماء، وهو ما يساهم للأسف في تكريس الكثير من أوهام المصريين عن تاريخهم، وعلى رأسها أنهم شعب لا يتحرك إلا إذا وجد القائد أو الزعيم الذي يحركه، مما يساعد على ضرب أي تحرك ثوري شعبي، يفتقد إلى وجود شخصيات سياسية شهيرة، وبعيدا عن هذا كله، وبمصاحبة هذا كله، يتواصل ضياع التاريخ الحقيقي لمصر وسط زفات موالد التزييف والدجل، ويسود بين شعبها التوهم بأن مصر من الممكن أن تشهد تقدما أو تنمية أو استقرارا، إذا فرطت في تضحيات أبنائها من الثوار والمناضلين، وأن أهلها يمكن أن يجدوا خلاصهم في رفع شعار «الحي أبقى من الميت»، مع أن التجارب المريرة المتتالية أثبتت مقولة نجيب سرور رحمه الله: «لا حق لحيٍّ إن ضاعت في الأرض حقوق الأموات».

أربع محاولات لإنصاف اليأس..
وإقناعك أنه أصبح الأمل الوحيد
«مقاطع من رسالة إلى صديق أفقدته الأيام ثباته الانفعالي»

المحاولة الأولى

صدقني، إذا كان هناك بيننا من سيعبر هذه الفترة العصيبة التي لم تعد تمر بغيرها البلاد، وهو محتفظ بأكبر قدر ممكن من صحته وضميره وعقله وإنسانيته، فسيكون حتما من أولئك الذين يعتبرون أن اليأس ليس خيانة ولا ترفا ولا رفاهية ولا انهزاما ولا عيبا، لأن اليأس في الواقع ربما كان أمَلك الوحيد.

في فترات الانحطاط والتدهور والاضطراب الشامل يعاني كثيرًا ـ وبأقصى درجة يمكن تخيلها ـ أولئك الذين يظنون أن إصرارهم على إنكار الواقع هو طريقهم الأكيد نحو الخلاص، أولئك الذين يغفلون أهمية الثبات الانفعالي وضرورة السيطرة على الأعصاب والحفاظ على ذلك الخيط الرفيع بين العقل والفلقسة، ولعلي لا أجد تشبيها أكثر ابتذالا ـ ودقة ـ لحالة هؤلاء من تشبيههم بذلك المسكين عاثر الحظ الذي وجد نفسه تائها وسط صحراء مقفرة حارقة، فأخذ يجري فيها دون هدى بأسرع ما أمكنه، وهو يرى في كل خيال عابر خلاصا مؤكدا قادما إليه، ويحسب كل سراب بقيعةٍ ماء سيروي ظمأه، دون أن يضع في اعتباره أن تلك الصحراء ربما كانت هي الصحراء الكبرى، وأنه لا يزال في أولها من اتجاه الوادي الجديد، وأنه دون أن يعلم يجري في طريق النيجر.

سيؤسفني جدًّا أن تكون من أولئك الذين لا يجيدون التفريق بين العدمية الإيجابية والعدمية السلبية، فتتخيل ـ ولنستخدم نفس تشبيهنا المبتذل والدقيق ـ أنني أدعوك إذا تهت في الصحراء لأن تدفن نفسك «بالحيا»، وتنتظر عاجزا وقوع الموت دون أن تبذل أدنى مقاومة له، مع أن ما أدعوك إليه هو العكس، وهو أن لا تستسلم للموت أبدًا، ولا تتوقف عن محاولة التفكير في سكة السلامة، ولا تكل من البحث عن ما يعينك على مواصلة الحياة، ولا تكف عن التيقظ لكل صوت تسمعه لعله يكون طائرة عابرة أو قافلة مارة، لكنك تفعل ذلك كله فقط لأنك لا تملك شيئًا آخر لتفعله، وليس لأنه سينجيك بالضرورة، لأن ذلك التوجه وحده سيجعل تفكيرك أهدأ وانفعالاتك أكثر اتزانا وسيساعدك على توفير طاقتك أكبر وقت ممكن، وستعرف قيمة ذلك إذا نجوت، أما إذا حانت ساعة الهلاك فأنت على الأقل لن تضيف إلى ألمه المرير ألم الإحساس بسذاجة التفاؤل ومرارة اكتشاف كذب الأمل.

المحاولة الثانية

وهي محاولة وجيهة مع أنك ستظنها محاولة يائسة لإنصاف اليأس، لأنني سأستشهد فيها بواحد من أبرز منظري العدمية الإيجابية، أبونا صلاح جاهين الذي قال في واحدة من أعظم رباعياته:

«صبرك ويأسك بين إيديك وإنت حر
تيأس ما تيأس الحياة راح تمر
أنا دُقت من ده ومن ده عجبي لقيت
الصبر مر وبرضك اليأس مر.
عجبي»

أعلم أنك بالتأكيد ستقلل من أهمية الاستناد على صلاح جاهين في هذا الصدد لأنه أصلا مات مكتئبا ويائسا، ولو أنك تريثت قليلا لأدركت أن صلاح جاهين دون غيره هو أكبر دليل على

صحة ما أحاول إقناعك به، فما أعظم وأنبل وأجمل أن تخوض أكثر ظلمات الاكتئاب مرارة، ومع ذلك لا تكف عن الإنتاج والإبداع والعمل كل يوم، ولا أظن أنك كنت ستحب صلاح جاهين رحمه الله بنفس قدر حبك له، لو كان كل ما قام بإنتاجه هو تأكيده الذي ينزعه الناس من سياقه الدرامي على أن «الدنيا ربيع والجو بديع قفل لي على كل المواضيع»، وهو تأكيد ستدرك أنه كان مجرد «اشتغالة درامية» ساعدت فتنة جسد سعاد حسني وعبقرية موسيقى كمال الطويل على جعلها تعيش طويلا، لكنك ستدرك كم كانت اشتغالة درامية مضحكة عندما تتذكر أن من كتبها هو ذاته الذي قال: «حزين يا قمقم تحت بحر الضياع، حزين أنا زيك وإيه مستطاع، الحزن ما بقالهوش جلال يا جدع، الحزن زي البرد زي الصداع». وهو أيضًا الذي كتب «مهبوش بخربوش الألم والضياع، قلبي ومنزوع من الضياع انتزاع، يا مرايتي ياللي بترسمي ضحكتي، يا هلترى ده وش ولا قناع»، ومع ذلك فهذا الرجل نفسه قرر أن يتغلب على صداع الحزن ويتجاهل «خربوش الألم والضياع»، وجلس ليكتب كلاما يدعو للحب والتفاؤل والبهجة، تنهيه سعاد حسني بقولها: «تشك تشك تشك».

المحاولة الثالثة

في العادة يعشق الذين يكرهون سيرة اليأس، أن يتم الاستشهاد بعبارة الزعيم الوطني ـ بجد ـ مصطفى كامل الشهيرة «لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة»، وهي عبارة يسهل الرد عليها بالإشارة إلى أن القدر لم يمهل مصطفى كامل طويلا ليختبر خطأ عبارته، فقد وافته المنية وهو في الحادية والثلاثين من عمره، وربما لو كان قد عاش طويلا، لعرف أنه من الممكن أن تكون يائسًا من تحقيق أحلامك، ولا يدفعك ذلك لخيانتها أو العمل ضدها، كما فعل كثير من عظماء مصر كان مصطفى كامل على رأسهم.

يحب الذين لا يقدرون قيمة اليأس أن يتذكروا لمصطفى كامل مقولته في استحالة الحياة مع اليأس، بالطبع مع مقولته الشهيرة الأخرى بضم الألف: «لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا»، لكنهم لا يشيرون ـ عمدا أو جهلا ـ إلى أنه أيضًا قائل عبارة: «هذه الأمة بلاني الله بأن أكون واحدا من أبنائها»، وهي مقولة جاءت ضمن سطور رسالة بعث بها إلى صديقه الحميم فؤاد سليم في فترة عصيبة من حياته السياسية حين زادت الدسائس ضده ووجد نفسه منفيا خارج مصر وقد تقطعت به السبل دون مال ولا معين، سأدع مصطفى كامل نفسه يعبر لك عن يأسه ذلك وأنت تقرأ سطور خطابه الذي بعث به إلى صديقه بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٨٩٥ قائلا:

«لقد قررت ألا أعود إلى مصر إلا إذا يئست من معاونة الوطنيين، وإني حاليا يائس من واحد وهو الخديوي، ولكن أليس في استطاعة والدك والهلباوي ومحمد سالم أن يرسلوا لي سنويا ٤٠٠ جنيه ما داموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرون جهودي الوطنية، وإذا كانوا غير قادرين على مساندتي فإني سأعود إلى مصر يائسا فاقد الأمل ليس من أجل الجلاء فحسب بل من أجل مستقبل الأمة المصرية، وتأكد يا صديقي العزيز أنني لن أمكث في مصر بعد عودتي دون أن أرى النصر أكيدا: سوف أنتحر ولا أعيش في وسط أمة جامدة، بالإضافة إلى أني لا أعرف اليأس إلا بالموت معا. بلغ والدك سلامي باسم الوطن المقدس وليس باسم الصداقة، التمس منه وحده أن يرسل لي مبلغ ١٥٠ جنيه هذا الشهر لهذه السنة كلها ولن أطلب منه شيئًا بعد ذلك».

وعندما لم يتلق مصطفى كامل من صديقه أي جواب كتب له في ٢١ أكتوبر: «استلمت بالأمس كتابك وأؤخر الجواب عليه لوقت آخر وأسألك الآن أن تجيبني على رسائلي لأعلم إن كنتم نساء أم رجالا والسلام».

وفي ٦ نوفمبر ١٨٩٥ يكتب مصطفى كامل إلى صديقه قائلا:
«إني أشكرك على إمدادك لي بالأحداث التي جعلتني أرى بوضوح أن من بينكم لا يوجد أشخاص لا يمكن لوطني مثلي أن يعتمد عليهم، أنت تقول إنه لا يوجد في مصر شعب جريء، قادر على مساندتي، ولكن أيها البائس والدك وأصدقاء والدك هؤلاء وطنيون هم جزء من هذا الشعب، أكفاك هزلا إني أرى أنكم وطنيون عندما يكون الخديوي وطنيا، ولستم وطنيين عندما يكون العكس؟».
لكن لا تنسَ بعد ذلك كله أن مصطفى كامل نفسه قال في نفس الرسالة: «من أشق الأعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس، سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال إذ أجد حياتي في تلك العقدة، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة»، وقد ظل حتى آخر يوم في حياته صادقا وموفيا بوعده، ليثبت على عكس ما شاع عنه أنه من الممكن أن تجتمع الحياة مع اليأس.
من أجل إنجاح هذه المحاولة سنتجاهل معًا ذلك الخاطر الذي يلح عليك سائلا عما كان سيشعر به الزعيم مصطفى كامل لو اطلع على علم الغيب ورأى أن مصر سيحكمها حوالي ٤٠ عامًا حزب يحمل اسم حزبه فيجعل عباراته الشهيرة مثارا للسخرية والتندر، لدرجة أنه لم يعد يحظى في البلاد التي أحبها بنفس شهرة وذيوع مطرب يحمل نفس اسمه، جاءت شهرته من غناء عبارة أكثر إقناعا وتشابها مع عبثية حياة المصريين من «لا حياة مع اليأس»، هي عبارة «عم قول يا رب».
المحاولة الرابعة
وهذه الطلعة سيقوم بها نيابة عني الأديب اليوناني العظيم «نيكوس كازنتزاكيتس»، ولن أستشهد فيها بأحد أعماله الروائية العظيمة التي لم يحصل بفضلها على جائزة نوبل للآداب ـ خسرها بفارق صوت واحد لألبير كامو وهو ما يجعل لكلامه عن اليأس وجاهة إضافية ـ لكنه حصل على الخلود في وجدان الملايين من قرائه حول العالم، بل سأستشهد بمقطع من مسرحيته الوحيدة «عطيل يعود» والتي يقول فيها كلاما شديد الأهمية في صلب موضوعنا سأتركك تتأمله دون أدنى تدخل مني:
«ليس ثمة أمل قد بقي غير اليأس، لا حُرمنا منه، ولن ينتزعه مني أحد، لا الحليف ولا حتى العدو، لن ينتزعه مني سوى الموت فهو القادر على ذلك، عار عليك، أتبكي يا صديقي، وهذه اللحظة أغلى ما وهبه الله للإنسان؟ كان بالإمكان أن نبكي يا صديقي عندما كان الأمل يراودنا، ولم يكن في ذلك عار، أما الآن وقد بلغنا منتهى اليأس ماذا بقي لنا؟ شيء واحد: عزة النفس. وهذه في اعتقادي تأبى علينا أن نبكي.
ليس للحياة من معنى، ولا من مبرر لها حالا أو مستقبلا... إنها ظاهرة زائفة مكتوب عليها أن تندثر، دون أن تخلف وراءها شيئًا، ومع ذلك فقد مُنحت لنا، فهل نلقي بها عنا، ونرفض عذابها، أو نخطف بين الفينة شيئًا من المتعة، ولكن دون أمل أو رجاء... إن هذا الرفض لن يكون سوى جبن وفرار من أرض المعركة، إن ما أعطي لنا وإن لم تسع إرادتنا لنواله، وإن لم تكن لنا القدرة على الاختيار أو الرفض، قد أُعطي لنا وإننا لملزمون بأن نجعله ذا قيمة بارتضائه ومواصلته، وبأن يقدم كل منا أفضل ما عنده.
علينا أن نسلك طريق الكمال وتهذيب النفس، ولو كان هذا الطريق شأن كل الطرق لا يوصل إلى شيء، إنه إذن الكفاح من أجل الكفاح ذاته، وهكذا يتحقق في النهاية اشتراك بين أولئك الذين يعرفون السر وأولئك الذين لا يعرفون، فهم جميعًا يواصلون المسير، كل ما هنالك أن أولئك الذين يعرفون يواصلون ببطولة... لا تسأل: أين أذهب؟ امضِ في الصعود والنزول، ما من بداية أو

نهاية. إنما الوجود هذه اللحظة الحاضرة المليئة بالمرارة والحلاوة أيضًا، وإني أستمتع بها إلى آخر قطرة فيها... إني أطرد من بالي أكبر المغريات ألا وهو الأمل، وأحرم نفسي من متعته، إننا نقاوم لأن المقاومة هي كرامتنا، إننا نغني ولو لم تكن ثمة أذن تسمعنا، لا تسأل: أين نذهب، هل سيقدر لنا النصر يوما؟ ما الهدف من كل هذه المعركة؟ لا تسأل، قاوم فقط واعلم أن معنى الله هو المقاومة».

ولا أظن أن هناك كلاما يقال بعد هذا لإنصاف اليأس وإقناعك بأنه صار الأمل الوحيد، أو دعني أصارحك أنني حاولت أن أقول كلاما أجمل وأهم لكني يئست.

مسائل عائلية

استولى على الابن الخوف، حين طلبه أبوه للقائه فجأة، فقد تخيل للحظات أن والده عرف برغبته الملحة في الاستحواذ على العرش. كان يعلم في قرارة نفسه أن أباه لن يفلت الكرسي بسهولة، وأن عواقب غرامه باحتلال مقعد أبيه ستكون وخيمة، خاصة وقد وصل الخلاف بينهما إلى أقصى ذراه قبل أسابيع، حين تلقى من أبيه خطابا قاسيا حافلا بالاتهامات، ومن ساعتها لم يعد ينام الليل بسهولة، لأنه أصبح يرى كوابيس تُصور له أنه قد يسبق والده إلى القبر بفعل فاعل.
تنفس الابن الصعداء بعد أن خرج من قصر والده سالما، لكن الأحلام والكوابيس عادت لتتصارع في عقله من جديد، لم يكن ينكر أن والده قدم الكثير لمصر، لكنه كان يحلم لها بما هو أفضل. يروي خلصاؤه كيف بكى عندما رأى سِحر ريف أوربا لأول مرة قائلا: «إنني أبكي لأنني أرى هذه البلاد تنعم بالرخاء بينما مصر تعاني من البؤس على رغم أن أرضها أكثر خصوبة. سوف أغير كل ذلك إذا أمد الله في عمري». يحكون أيضًا أنه في رحلة أخرى، قطع جلسته أمام رسام، يقوم برسم لوحة له، وضرب الكرسي بيديه وصرخ قائلا: «لا لن أموت، لقد خلقني الله لخير مصر ولجعلها غنية، وكي يعم الرخاء فيها، لن يكون من الإنصاف أن يدعوني الله إلى جواره، قبل أن أعيد الحياة إلى مصر وأجعلها سعيدة».
مع مرور السنين، كان يشعر أن الوقت قد تأخر على وصوله إلى العرش، وأن والده قد تأخر كثيرًا في التنازل له عن مكانه، وكانت تطارده نبوءة غامضة سمعها، أن حياة والده ستكون أطول من حياته، ولذلك انتابته مشاعر مركبة، عندما عرف أن والده قد مرض بالدوسنتاريا، وأن الأطباء الذين نجحوا في وقف المرض، أعطوه أدوية أثرت على قدراته العقلية، لكن والده كان قادرًا دائمًا على أن يحتفظ بهيبته ومظهره المتماسك.
في فترات مرض والده، كان هو الذي يُسير أمور البلاد فعليا، لكنه لم يقنع بذلك، بل أراد أن تكون له السلطة الفعلية والرسمية أيضًا، فبدأ بعزل أبيه عن سائر الناس، وجعل حركته محدودة داخل قصره، وهو ما جعله يخشى من فكرة شفاء والده، الذي ربما تخلص منه، عقابا له على قيامه بتدعيم سلطته رسميا، ولأنه كان يعلم أن أباه سيعتبر ما قام به اغتصابا للسلطة. بدأ يفكر في اللجوء إلى قوى خارجية، لتساعده على تشكيل مجلس وصاية يسيطر به على الحكم، لكن مساعيه كلها خابت، حين تعرض فجأة لمرض عضال في الرئة، وبدأت تنتابه نوبات نزيف حاد، تصاحبها حمى تدفعه إلى الهذيان علنا بأحلامه، في احتلال كرسي العرش والإطاحة بأبيه وهو يستعرض ما فعله للبلاد من خير، وما ينتظرها من خير أكثر لو حكمها بدلا من أبيه.
لكن النبوءة الغامضة تحققت، حين اختاره الله إلى جواره قبل أبيه، بعد أن تغلب عليه المرض الغامض، الذي لم يعلم أحد من أين جاءه ولا كيف جاءه. والغريب أن كل الذين كانوا إلى جواره، وظلوا يغذون خيالاته بالوصول إلى كرسي الحكم، تخلوا عنه بعد وفاته، فقاموا بدفنه في مشهد مهين، تجنبا لغضب أبيه الذي كان الابن قد عزله عن مقاليد الحكم فعليا، والأب لم يُخفِ سعادته، عندما علم بوفاة ابنه في لحظة من لحظات الصفاء الذهني، التي كانت تنتابه أحيانًا بين فترات الخرف الطويلة، فقال لمن حوله: « لقد عاقبه الله وأماته لأنه حبسني، لكنني أجد نفسي لكوني أباه مجبرا على أن أترحم عليه وأدعو له».
هذه الحكاية يرويها بحذافيرها رجل الدولة الشهير والخطير نوبار باشا، في مذكراته المذهلة، أما الابن فهو القائد العسكري الشهير إبراهيم باشا، وأما الأب فهو محمد علي باشا، الذي تشبث

بكرسي الحكم حتى آخر لحظة، برغم حالته الصحية المزرية، وكان في لحظات إفاقته القليلة، يطلب من حرسه أن يطوفوا به شوارع القاهرة، ليلتقي بشعبه الذي كان ينظر إليه وقتها بوصفه «مجذوبا وبركة»، في حين لم يكن عقله يخلو من تهويمات أحلام لم تتحقق، بأنه يفتح مدنا بعيدة، ويستولي على عروش أكبر من عرش مصر، الذي أجلسه المصريون عليه بإرادة كبرائهم، ثم تفرغوا لممارسة دور المحكومين، ومتابعة الصراع على العرش بين الأب وابنه فيما بعد، ثم حين رحل الأب بعد ابنه بقليل، استسلموا لحفيده عباس، ثم للذي يليه ثم للذي يليه، أما باقي الحكاية فأنت تعرفها، ولا أظنك تريد أن أُذكرك بها لأقلب عليك المواجع.

اللهم لا تجمعنا على قلب رجل واحد..
أو أربع حكايات عن أهمية شق الصف

تمهيد

ومن حقك طبعا أن تدعو بما شئت، فما أنا هنا بداعٍ لكي تؤمِّن خلفي، لأن كل ما أطلبه منك، قبل أن تدعو أو أن تؤمِّن خلف من يدعو بأن نكون علّى قلب رجل واحد، أن تفكر أولا في مصائر الدول التي ظنت أن الصف الواحد والتجمع على قلب حاكم واحد هو طريقها الأكيد للتقدم، فسحقت كل رأي مختلف واتهمته بشق الصف وزعزعة الجبهة الداخلية، ثم لم تستَبِن الرشد إلا ضُحى غد الهزيمة.

حكاية أولى

يروي «ويل ديورانت» في كتابه «قصة الفلسفة» أن الفيلسوف الأشهر سقراط قال في دفاعه عن نفسه أمام المحكمة التي حكمت بإعدامه: «أحب أن تعرفوا أنكم إذا قتلتم رجلا مثلي، أسأتم إلى أنفسكم أكثر مما تسيئون إليَّ، لأنكم إن قتلتموني لن يسهل عليكم أن تجدوا رجلا آخر مثلي، فأنا إذا صح لي أن ألجأ إلى هذا التشبيه المضحك السخيف، أشبه «ذبابة» بعثها الله إلى الدولة، والدولة شبيه بحصان عظيم كريم، ولكنه بطيء الحركة لضخامة جسمه، وهو بحاجة إلى ما يبث فيه الحياة، وأنا هذه الذبابة التي تحرك الحصان وترفعه إلى النشاط وسرعة الحركة، وإذا كنتم لن تجدوا رجلا مثلي فإني أنصحكم ألا تقتلوني وأن تبقوا على حياتي».

تشبيه سقراط نفسه بذبابة لم يفده كثيرًا، فغرور قاتليه جعلهم يتصورون منطق «اعتبرونا ذبابًا يا أخي» ضعفا وانهزاما، فقتلوا سقراط لكي تستقر الدولة، أو على حد تعبيرهم «لكي يتطهر المجتمع من أمثاله الذين يفسدون شباب أثينا»، لكن قتل سقراط لم يكتب حياة أطول للدولة التي فقدت الحياة يوم فقدت قدرتها على تحمل الرأي المختلف.

حكاية ثانية

كانت مصر يومها قد أكملت ١٣ عامًا من بناء دولة الصف الواحد الذي يدهس كل من يعارضه، إما بالإعدام وإما بالاعتقال أو النفي، وفي يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٩٦٥ وقعت حادثة مفاجئة لم يحسن جمال عبد الناصر قراءتها جيدا للأسف الشديد وإلا لكان وفر على مصر الكثير.

الواقعة يرويها في مذكراته المهمة الصحفي الكبير «مصطفى بهجت بدوي»، وأتمنى على من يسارع باتهامه أنه كان من أعداء الثورة أن يقرأ عنه أولا قبل الحكم عليه، حيث يقول: «المفاجأة الكبرى كانت يوم جنازة مصطفى النحاس، فقد بدت كأنها يوم الحشر، تحركت المباحث الجنائية العسكرية وأرادت أن تلغي تشييع الجنازة بحجة المحافظة على الأمن رغم آلاف الآلاف من الجماهير التي احتشدت وسدت الطرق من جامع عمر مكرم إلى ميدان التحرير وحتى جامع الحسين. وتآمرت الشرطة على خطف جثمان مصطفى النحاس، ونشأت معركة حقيقية بغير مبرر بين الشرطة وبين جماهير الشعب، أيهما يفوز بالجثمان، وهل تستمر الجنازة أم تتبدد، وانتصر الشعب بطبيعة الحال. وكان أغرب المناظر التي سجلتها العين بعد انحسار المعركة بانتصار الجماهير هو هذا المنظر الشديد المفارقة والتناقض الذي قد يحير أساطين علم النفس وقد لا يحيرهم، منظر شيخ في الستين استولى على الجثمان ووضع النعش فوق عربة الموتى، وأخذ يرقص أمامه «عشرة بلدي» فرحا بالنصر على الشرطة في هذا المشهد الحزين. ودالت دولة الحمقى وبقي الشعب لأنه هو الباقي دائمًا».

حكاية ثالثة
«الله يخرب بيت الثورة اللي ضيعت البلد وقسمت صف الشعب»، عبارة بالتأكيد قالها ـ ولكن باللغة الفرنسية ـ كثيرون من الذين حاولوا أن يصوروا النظام الفرنسي في القرن الثامن عشر بوصفه فترة ظللها الهدوء السعيد الذي أنهته الثورة الفرنسية إلى الأبد.
في كتابه «التاريخ الاجتماعي للثورة الفرنسية» يقر المؤرخ «نورمان هامبسن» بحقيقة أن الثورة جعلت المجتمع الفرنسي منقسما، «حيث لم يجمع الفرنسيون في أي فترة من الفترات التالية للثورة على شكل الدستور، ولا على السياسة الاقتصادية التي يجب أن تتبعها الحكومة، ولا على مكان الكنيسة من الدولة»، لكنه يلفت الانتباه إلى أن تصوير الفترة التي سبقت الثورة بأنها فترة الهدوء السعيد هو محاولة للتضليل الخطير، لأن الانقسام الذي عاشه الفرنسيون لم يوجد فجأة مع الثورة، بل كان بسبب «الاستقرار الظاهري» الذي عاشته فرنسا في ظل حكم الملكية وفي ظل وجود المجتمع الإقطاعي المتنافر مع تقدم العصر، وفي ظل السلطة الصورية التي كانت تتمتع بها كنيسة فقدت سمعتها، وأن كل ذلك ظل يقوم بتوليد مشكلات وصراعات تحت السطح أخذت تشتد حتى كان مصيرها الانفجار الذي لم تعد بعده فرنسا كما كانت.
لم تتعلم فرنسا بسهولة أن الديمقراطية لا تعني أن يتفق الناس مع بعضهم في الرأي، بل أن ينجحوا في إدارة صراعاتهم مع بعض في ظل القانون الذي يمنع تحول المجتمع إلى غابة، وبالتأكيد لم تحل فرنسا كل مشاكلها حتى الآن، لأنه لن توجد على الإطلاق دولة تحل كل مشاكلها، لكنها بالتأكيد أصبحت أكثر تقدما، ربما لأنها لم تعد تعتبر اختلاف الناس في الرأي مشكلة.
حكاية ليست أخيرة
في ٢٣ مارس ١٩٣٣ عقدت الجلسة الافتتاحية للبرلمان الألماني «الرايخستاج» في دار أوبرا كرول الواقعة بوسط برلين بعد أن دمر حريق مبنى البرلمان الأصلي قبل أسابيع، وكما يروي «كيفن باسمور» في كتابه عن «الفاشية»: دخل النواب إلى القاعة وسط احتشاد من جموع من شباب يرتدون شارة الصليب المعقوف وينادون النواب بأوصاف مثل خنازير الوسط أو خنزيرات الماركسية، برغم أنه كان قد سبق اعتقال النواب الشيوعيين لاتهامهم بإحراق مبنى الرايخستاج، وتم احتجاز عدد غير قليل من الاشتراكيين، وألقي القبض على أحدهم لدى دخوله المبنى، واصطف أفراد كتيبة العاصفة النازية وراء الاشتراكيين وسدوا مداخل المبنى ومخارجه.
كان البرلمان يومها منعقدًا لهدف واحد، هو تمرير قانون تمكين يمنح الزعيم الألماني «أدولف هتلر» سلطة إصدار قوانين دون موافقة البرلمان، حتى إذا كانت قوانين تخالف الدستور، لكن إصدار ذلك القانون نفسه كان يتطلب تعديل الدستور، وهو ما لم يكن يمكن أن يتم بدون موافقة أغلبية الثلثين، ولذلك كان النازيون يحتاجون إلى دعم المحافظين، وهو ما جعل هتلر في خطابه أمام البرلمان يتعهد للمحافظين بأن تمرير هذا القانون لن يهدد وجود البرلمان، ولا منصب زعيمهم الرئيس «هايندنبورج»، لكي يصوتوا لقانون التمكين. في البدء نجح هتلر في السيطرة على نفسه خلال إلقاء الخطاب بشكل استثنائي، لكنه انفعل فجأة داعيا لإعدام مدبر حريق الرايخستاج، متوعدا الاشتراكيين بأشد العقوبات، ليهتف النواب النازيون في نهاية كلمته «ألمانيا فوق الجميع».
يومها امتلك رجل وحيد الجرأة ليشق الصف الواحد الذي بدا أنه يقود ألمانيا إلى سماوات المجد، كان ذلك النائب الاشتراكي «أوتو فيلز»، الذي وقف ليرد على هتلر بشجاعة مستندا إلى «مبادئ الإنسانية والعدالة والحرية والاشتراكية»، وبرغم أنه ـ كما يروي السفير الفرنسي الذي حضر

الجلسة ـ كان يتحدث بنبرة أشبه بصياح طفل مضروب، إلا أن الجميع كان مذهولا من كلمته، خصوصًا أنه ختمها بالإعراب عن أطيب أمنياته لأولئك الذين تحفل بهم السجون ومعسكرات الاعتقال. كعادة الطغاة لم يكن هتلر سعيدا بما قاله فيلز، لم يكن كافيا له أن تصفق له كل ألمانيا وأن يجتمع الكل على محبته وتأييده، ولذلك فقد قام ليرد على فيلز بعصبية محمومة، متهما الاشتراكيين بأنهم قد عذبوا النازيين طوال ١٤ عامًا، مع أن النازيين لم يكونوا يعاقبون على أنشطتهم غير المشروعة إلا بأخف العقوبات، وعندما أطلق النواب الاشتراكيون صيحات استهجان، تعالت صرخات النازيين من داخل القاعة وخارجها: «سوف تعدمون شنقا اليوم».
يومها وافق البرلمان على قانون التمكين لهتلر، بأغلبية ٤٤٤ صوتا مؤيدا مقابل ٩٤ صوتا معارضا من الاشتراكيين الذين جرءوا يومها على شق صف الأمة الألمانية، وهو ما أطاح بسيادة القانون وأرسى الأساس لسلطة قائمة على إرادة الفوهرر، ليمنحه ذلك القانون الحق في اتخاذ ما يراه مناسبا لتحقيق المصالح العليا للشعب الألماني ضد أي شخص يعتبره عدوا للأمة الموحدة، وكان الاشتراكيون الذين تجرءوا على الرفض أول ضحاياه، لكن قائمة الضحايا اتسعت فيما بعد لتشمل كل مؤيدي هتلر ومنافقيه ومواسيه والمبررين له والصامتين عليه، لتتخلص ألمانيا من كل أعدائها وتصبح بلدا موحد الصف، دون أن يدري أهلها أن ذلك الصف الموحد لم يقدها إلا إلى الدمار الشامل.

خاتمة

ولعلك كنت تعلم قبل قراءة هذه الحكايات أنه عندما تتحدث وسائل «إع.. لامنا» عن ضرورة اجتماع المصريين على قلب رجل واحد، فإنها لا تعني أبدًا أن يتوحدوا على أرضية مبادئ مشتركة مثل الحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية وغيرها من المبادئ التي اجتمع عليها أحرار المصريين في ميادين التحرير، ليس لأنهم نسوا اختلافاتهم، بل لأنهم أدركوا أن اختلافاتهم لا تتعارض مع أن يتفقوا على مبادئ مشتركة أصبحت من شروط التقدم الإنساني، أما التوحد الذي تعنيه وسائل الإع..لام الآن وبالأمس ودائمًا، هو توحد على تمجيد شخص القائد الملهم الضرورة، وعلى الحفاظ على حق مؤسسات الدولة المترهلة الفاشلة في أن تمارس المزيد من النهب والسلب والفساد دون رقيب ولا حسيب.
وإن كنتَ لست متأكدا من ذلك، جرب أن تتحدث مع أحد الذين يتحدثون عن أهمية التوحد وخطورة شق الصف، لتقول له في البداية إنك من أنصار الرئيس الملهم القائد الضرورة، وإنك لا ترى غيره بديلا ولا أملا، وستجد منه حفاوة شديدة فور أن تقول له ذلك، ثم جرب بعدها أن تقول له نقدا لممارسات جهاز الشرطة التي تقوم كل يوم بتجذير مشكلة الإرهاب وتعميقها، أو نقدا لارتفاع ميزانية الشرطة والجيش على حساب ميزانية الصحة والتعليم اللتين لن تنهض البلاد إلا بهما، أو أي نقد من أي نوع لأي من مؤسسات الدولة الفاشلة، وعندها ستجد نفسك وقد تحولت فجأة من خانة الأحرار المحبين لمصر إلى خانة الأعداء الراغبين في شق الصف، لتدرك أن دورك في الصف الوطني المفترض أن تتحول إلى حيوان أخرس يسير خلف قائد القطيع دون أن يمتلك حتى حق السؤال على وجهة سير القطيع، فضلا عن حق الاعتراض على طريقة قيادته للقطيع، وعندها ستحمد الله لأنه جعل لك قلبا اخترت له أن يظل حيا بدلا أن تميته بإرادتك، لكي يظل الرجل الواحد باقيا على كرسي الحكم.
اللهم لا تجمعنا على قلب رجل واحد، واحفظ لنا قلوبنا نابضة بالحياة والسؤال والشك حتى يأتينا اليقين.

حين كانت لصحفي مصري أفضالٌ على إمبراطور الحبشة شخصيًّا

أين ذهبت أوراق ووثائق الصحفي والمناضل المصري «قرياقوص ميخائيل»؟
أرجوك لا تنزعج، إذا لم تكن تعرف أصلا من هو «قرياقوص ميخائيل»، فإذا كان الأستاذ «وديع فلسطين» لم يعرفه إلا بالصدفة، فكيف لي ولك أن نعرفه بسهولة، ونحن أبناء بلد «آفته النسيان»؟
بل ليس غريبا ألا تعرف أصلا من هو وديع فلسطين، في بلد تنزف ذاكرته الثقافية والسياسية منذ قرون، دون أن تجد من ينشغل بإنقاذها، أو يرى في نزيفها مشكلة، أو يبادر لمعاونة القلائل من أمثال وديع فلسطين، الذين يبذلون كل ما بوسعهم، من أجل منع ذاكرتنا الثقافية من أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.
قرأت شذرات من سيرة المناضل المجهول قرياقوص ميخائيل، في كتاب جمع فيه الكاتب المصري الكبير وديع فلسطين بعضا من مقالاته التي كتب فيها سِير بعض من عرفهم من أعلام الأدب والثقافة في القرن العشرين، والتي ظل ينشرها لسنوات في جريدة الحياة اللندنية قليلة الانتشار في مصر، وكما لم تجد تلك المقالات القيمة من يتحمس لنشرها في الصحف المصرية، لم تجد أيضًا ناشرًا مصريا يتحمس لجمعها في كتب تصل إلى القارئ المصري المهتم بهذا النوع المهم من الكتابة، ولولا أن دار القلم السورية نشرت بعض تلك المقالات، في كتاب يصعب العثور عليه في المكتبات المصرية، عنوانه «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره»، وأن مركز فهد بن نايف الدبوس للتراث الأدبي في الكويت، نشر البعض الآخر في مجلد بعنوان «من مقالات وديع فلسطين في الأدب والتراجم»، لظلت كل تلك المقالات القيمة مدفونة في بطون مجلدات صحيفة الحياة، حتى تضيع في غياهب النسيان كما حدث مع غيرها، أو يأتي يوما ما باحث يكتشفها في زمن ما، فيوصلها إلى مستحقيها. (بالمناسبة، حين وصل وديع فلسطين في عام ٢٠١٥ إلى سن الحادية والتسعين، وبعد أن يئس من أي اهتمام رسمي بمقتنياته وأرشيفه، قام ببيع مكتبته وأرشيفه إلى دار الجديد اللبنانية، التي تحملت تكلفة نقلها إلى بيروت، إدراكا منها لأهمية ما فيها، لتضيع فرصة بقاء المكتبة في مصر ليطلع عليها الباحثون، وهو ما كان يمكن أن يحدث لو اشترتها مكتبة الإسكندرية مثلا، وبقي الآن الأمل الوحيد في أن تتيح دار الجديد مقتنيات المكتبة للباحثين على الإنترنت ولو بمقابل مادي معقول. دعنا نتمنى ذلك).

أنا زميلك قرياقوص

وديع فلسطين نفسه لم يكن سيعرف بأمر قرياقوص ميخائيل ونضالاته، لو لم يكن الرجل المتواضع قد حرص برغم تقدم سنه، على أن يُعرفه بنفسه. كان وديع يومها حديث عهد بالعمل في الصحافة، وكان يجلس في مكتبه بجريدة «المقطم»، حين دخل على مكتبه رجل أشيب قصير بدين يستند على عكاز، قائلا له بلهجة صعيدية محببة، وبروح ودودة: «أنا قرياقوص ميخائيل، هل تسمح لي بأن أجلس معك قليلا للتعارف؟»، وبرغم فارق السن الكبير بين الاثنين، فقد عرّف قرياقوص المولود في عام ١٨٨٧ نفسه للصحفي الشاب الذي كان يتابع مقالاته بإعجاب، قائلا: «أنا زميل لك أعمل بالصحافة في لندن، حيث أعيش منذ خمسين عامًا، متطوعا لخدمة القضية المصرية وقضايا العرب جميعا»، أخرج الرجل العجوز من حقيبته كتيبا عنوانه «جهاد شاب وطني»، كان قد ألفه صحفي مخضرم بالأهرام اسمه توفيق حبيب، ومجموعة أخرى من الكتيبات بالإنجليزية، قائلا له بهدوء: «لن أزعجك بالحديث عن نفسي، ستعرف من أنا عندما تطالع هذه

الكتيبات التي أهديك إياها»، ثم انصرف معتذرا عن إضاعة وقت الصحفي الشاب، الذي تركه العجوز في حيرة كاملة من هذا السلوك الذي لم يعهده من قبل.
حين قرأ وديع الكتيبات التي أعطاها له الرجل، انبهر بما قرأه.من سيرة رجل خرج من أعماق الصعيد، دون أن يحصل على مؤهل عالٍ، وأصبحت لندن مستقرا له، حيث نصب نفسه فيها محاميا متطوعا عن قضايا شعبه، حيث كان يتتبع كل المقالات التي تنشر في الصحف الإنجليزية عن مصر، فإذا وجد بها مقالا يهاجم مصر أو ينكر حق شعبها في الاستقلال، أرسل ردا على المقال مدعما بالحجج، وإذا نشرت صحيفة تصريحا لسياسي بريطاني ضد مصر، تصدى لذلك التصريح برد يكتبه بمراعاة للتقاليد الغربية، بعيدًا عن الطنطنة والخطابية، فيجد رده طريقا للنشر، ويصبح بمرور الوقت لسان حال الشعب المصري في الصحافة البريطانية، دون أن يكلفه بذلك أحد، سوى محبته لمصر ودفاعه عن حقها.
كان قرياقوص ميخائيل محظوظا بمستوى التعليم الذي كفله له والده، الذي ألحقه بمدرسة بسطا بك، أكبر مدارس سوهاج وقتها، لينتقل منها بعد ذلك إلى كلية الأمريكان في أسيوط، ثم يلتحق بمدرسة الأقباط الكبرى بالقاهرة لإتمام المرحلة الثانوية. وكان خلال دراسته مولعا بمراسلة صحيفة «المؤيد» التي أصدرها الشيخ علي يوسف، وصحيفة «الوطن» التي أصدرها جندي إبراهيم، وصحيفة الـ«إجيبشيان جازيت» التي كانت تنشر له بانتظام. ولعل تكرار النشر له جعله يصرف النظر عن الاستمرار في وظيفته كمدرس في مدرسة أهلية ببلدة ميت يشار بمحافظة الشرقية، حيث هجر عمله بعد أربع سنوات صار فيها ناظرا لتلك المدرسة، ليسافر في عام ١٩٠٨ إلى الإسكندرية التي كانت مركزا صحفيا مهما في ذلك الوقت، وهناك تتلمذ على يدَي أستاذ أيرلندي، ليطور كتابته بالإنجليزية، وينشئ بدعم من أسرته «المكتب المصري للأخبار والاستعلامات»، بل ويفتتح له في عام ١٩١٠ فرعا في لندن.
مكتبة الأسد الأحمر
بعد أن قام قرياقوص بتطوير أدواته اللغوية والصحفية، لم يقنع بمراسلة الصحف المصرية، بل قرر مراسلة الصحف الإنجليزية، بادئا بصحيفة «التيمز» الشهيرة، التي أرسل إليها ردا على تصريحات للمعتمد البريطاني في مصر السير «إلدون غورست»، استخف فيها بمطالب الحركة الوطنية المصرية، وحين رفضت الصحيفة نشره، أرسل به إلى صحيفة أخرى هي «بول مول جازيت» التي نشرته في مكان بارز من صفحاتها، فشجعه ذلك على مكاتبة الصحف البريطانية بانتظام، وحين زادت فرصه في النشر، قرر السفر إلى لندن والإقامة فيها، بهدف مناوأة الاحتلال البريطاني في عقر داره، كما قال لوديع فلسطين. ولكي يكون لمقالاته ثقل أكبر بعيدًا عن فكرة أنها تأتي من مواطن مصري يجيد الكتابة بالإنجليزية، التحق بـ«كنجز كوليدج» وعدد من المعاهد والكليات التي تتيح الدراسات الحرة، حيث درس الصحافة والقانون الدولي وقوانين النشر والقانون الإنجليزي وتاريخ الشرق الأدنى ومبادئ الفلسفة والمنطق وعلم النفس والاقتصاد، وحاول الالتحاق بمعهد الصحفيين ونادي الصحافة في لندن للحصول على دبلوم في الصحافة، لكنه تعرض للرفض بسبب نشاطه السياسي.
ولأن مساهماته الصحفية لم تكن تجلب له أي دخل مادي، قرر قرياقوص ميخائيل أن يبحث عن رزقه من خلال وسيلة تناسب تفكيره وقدراته، فأنشأ في لندن مكتبة بعنوان «الأسد الأحمر»، تختص بالتعامل في الكتب القديمة والمخطوطات. وقاده بحثه الدءوب في المكتبات ولدى هواة جمع المخطوطات إلى العثور على ٨٠٠ وثيقة تعود إلى أيام الخديوي إسماعيل، أغلبها بخط

الخديوي نفسه أو بخط ابنه الأمير إبراهيم حلمي، وحين نشر ذلك في الصحافة، أصدر الملك فؤاد أمره بشراء تلك الوثائق، التي كان بعضها يتحدث عن خطط تدبر لعزل الخديوي توفيق، وإعادة أبيه إلى الحكم من جديد. وحين أعلن في الصحف الإنجليزية عن بيع متعلقات المحامي الإنجليزي« برودلي»، الذي دافع عن أحمد عرابي وصحبه من قادة الثورة العرابية الموءودة، قرر قرياقوص بمبادرة فردية أن يدخل المزاد العلني، ويشتري كل أوراق «برودلي» التي توثق لعلاقته بعرابي، وأودعها خزانة في البنك حتى لا تتعرض لمكروه، وبقيت في حيازته إلى أن آلت بعد ذلك إلى الحكومة المصرية في عهد تولي الدكتور طه حسين وزارة المعارف في إحدى حكومات الوفد. وحين حاول ورثة عرابي رفع دعوى قضائية للحصول على بعض الأوراق التي تتضمن رسائل بين عرابي ومحاميه «برودلي»، حكمت المحكمة بأن تلك الرسائل ملك لمن أرسلت إليه، وليس لمرسلها الذي تنازل طوعا بإرسالها عن ملكيته لها. ولم أجد فيما قرأت من دراسات عن الثورة العرابية إشارة إلى مصير هذه الوثائق، وما إذا كان بها تفاصيل مختلفة، عما تم نشره بالفعل من مذكرات «برودلي»، التي صدرت بعنوان «كيف دافعنا عن عرابي وصحبه؟».

وكما يروي لنا وديع فلسطين، فقد حرص قرياقوص ميخائيل طيلة إقامته في بريطانيا على الاشتراك في خدمة توفرها وكالة صحفية، تمده بكل ما ينشر عن مصر في جميع صحف بريطانيا، ليحدد أولوياته في الرد والتعليق والتوضيح على ما ينشر عن مصر وكفاح شعبها من أجل الاستقلال. كما حرص على اقتناء كل الكتب التي تتحدث عن مصر، بل وكان يفتح صفحة المراجع في أي كتاب عن مصر، فإذا وجد فيها مرجعا لم يسبق له اقتناؤه، سواء كان كتابًا أو مجلة، طاف بالمكتبات البريطانية بحثا عنه، وإن لم يجده نشر إعلانا في الصحف طالبا شراء المرجع، وكان في أغلب الأحيان ينجح في الوصول إلى المرجع، من أناس يمتلكونه في مواقع متفرقة من دول العالم، لتصبح لديه مع مرور الوقت، مكتبة فريدة تضم أهم ما كتب عن مصر بمختلف اللغات، وظل يحتفظ بتلك المكتبة ويحرص عليها وينميها، إلى أن تقدم في السن وضعف بصره. ولأن قرياقوص لم يكن له أبناء، بل إنه حين تبنى صبيا اسمه علي التوني، بعد وفاة والده، وكان ذلك الصبي ثمرة حب بين مصري وإنجليزية، تم تجنيد الصبي في الجيش البريطاني، خلال الحرب العالمية الثانية، ولقي مصرعه فيها، فقد خاف على كنزه الثقافي الفريد من الضياع، فبدأ في التفكير في ضمان مستقبلها بعد وفاته، وحين وصل أمر المكتبة إلى الدكتور طه حسين الذي كان وزيرا للمعارف وقتها، أمر باقتناء المكتبة وضُمت إلى دار الكتب المصرية، ولا يعلم إلا الله أين ذهبت مقتنيات تلك المكتبة، في ظل الأحوال المزرية التي شهدتها دار الكتب عبر السنين، والتي كنت شاهدا على بعضها بنفسي، والحديث في ذلك شرحه يطول ويؤلم، ومن يدري فربما كان مصير مكتبة قرياقوص قد ظل حاضرا في ذهن وديع فلسطين، ليكون دافعا له لاتخاذ قراره المرير بإبعاد مكتبته عن مصر بأكملها، لتذهب إلى أيدٍ أمينة تصونها وتستفيد من كنوزها.

«هيلا سيلاسي» في ضيافة قرياقوص

كان بديهيا بعد كل ما بذله قرياقوص ميخائيل من مجهودات في الدفاع عن قضايا مصر أن يقوم الزعيم سعد زغلول باختياره وكيلا للوفد المصري في بريطانيا، في مرحلة مبكرة من مفاوضاته مع الإنجليز، وحين اندلعت ثورة ١٩١٩، قلقت السلطات الإنجليزية من نشاط قرياقوص السياسي والإعلامي فاعتقلته ثم رحلته بعد أربعة أيام إلى مصر، حيث كان ينتظره اتهام ملفق بأنه عضو فيما عرف بـ«جماعة الانتقام»، التي وصفت بأنها الجهاز السري للثورة الذي يأتمر بأوامر سعد

زغلول، وكان شريكا له في ذلك الاتهام ٢٨ شخصا، على رأسهم المناضل العتيد عبد الرحمن فهمي الذي سبق لنا الحديث عنه في مطلع الكتاب، وإبراهيم عبد الهادي ـ القيادي السعدي فيما بعد ـ ومن الصحفيين توفيق صليب وحامد المليجي، حيث وجِّهت لهم جميعا اتهامات خلع السلطان والسعي لاغتيال الإنجليز وقلب نظام الحكم. وبعد عامين من الاعتقال نُظرت تلك القضية أمام محكمة عسكرية بريطانية، دامت أعمالها ثلاثة أشهر، وأوقعت عقوبات قاسية على أغلب المتهمين، لكنها برأت قرياقوص ميخائيل، الذي كان طيلة الوقت موجودا في بريطانيا، ولم تتمكن سلطات الاحتلال وأذنابها في البوليس المصري تقديم أي دليل يقنع المحكمة بتوقيع العقوبة عليه، ومع ذلك فقد قال الجنرال البريطاني الذي رأس المحكمة لقرياقوص: «إن المحكمة قررت بعد تردد شديد الإفراج عنك». والمؤسف أن وديع فلسطين يخبرنا في كتابه أن قرياقوص ميخائيل أملى عليه مذكراته حول هذه القضية شديدة الخطورة والأهمية، لكنه لم يجد فرصة لنشر تلك المذكرات طيلة سنوات عمله الصحفي، ولعل الإخوة في دار الجديد اللبنانية الذين حصلوا على مكتبة الأستاذ وديع ينتبهون إلى هذه المذكرات، ويبادرون إلى نشرها وتحقيقها، في جزء من ذاكرة الإنسانية، قبل أن تكون جزءا من ذاكرة مصر والوطن العربي.
المهم يا سيدي، بعد أن حصل قرياقوص ميخائيل على البراءة بصعوبة من المحكمة العسكرية الإنجليزية عاد إلى لندن ليمارس نشاطه كصحفي يراسل عددا من الصحف المصرية، لكنه قرر أن يؤمن نفسه ماديا، فأنشأ شركة للتجارة والاستيراد تحمل اسمه، ولاقت شركته نجاحا كبيرا، مكنه من اقتناء بيت كبير، جعله مقرًا غير رسمي للمصريين الذين يزورون بريطانيا، بل والمفاجئ، كما يخبرنا وديع فلسطين، أنه استضاف في ذلك البيت الإمبراطور «هيلا سيلاسي» إمبراطور الحبشة، عندما لجأ إلى بريطانيا هربا من الغزو الإيطالي لإثيوبيا، والأمير سعود بن عبد العزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية، وملكها فيما بعد، والخديوي المخلوع عباس حلمي الثاني، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين. وكان قرياقوص يضع سيارته بسائقها تطوعا، تحت تصرف المصريين والعرب الزائرين لبريطانيا، ليصبح بيته بمثابة دوّار العمدة، بل ويحرص على تعليم مديرة بيته الإنجليزية طبخ الطعام على الطريقة المصرية، بل والصعيدية أيضًا، وهو ما جعل صديقه مجد الدين حفني ناصف ـ شقيق باحثة البادية ملك حفني ناصف ـ يداعبه بمقطوعة زجلية يقول فيها: «أخو كل مصري لازم له قريب، وضامن وشاهد تحت الطلب، معلم مترجم مؤلف أديب، ومكتب مخدم وبياع كتب، وده كله راجع يا ابن الحلال، لأكل الملوحة وعيش الدرة، مانيش قادر أفسر وجود لاحتلال، ده حتة صعيدي فتح لندره».
لم يكتفِ قرياقوص ميخائيل بذلك، بل قام بعد انتعاش أحواله المادية بشراء حديقة على نهر التيمز، قام بتجهيزها بمرسى للزوارق وحمام سباحة، وتنازل عنها للحكومة المصرية، لتجعلها منتدى للطلبة المصريين الذين يدرسون في بريطانيا، ليصعقه رد فعل الحكومة المصرية، التي خشيت من أن يتجمهر الطلبة المصريون في تلك الحديقة، ويمارسوا فيها نشاطا سياسيا غير مرغوب فيه، فتكاسلت عن تسلم الحديقة رسميا وتركتها مهملة، متبعة سياسة «الباب اللي يجي لك منه الريح سده واستريح»، وهي من السياسات المفضلة في هذا البلد المنكوب بحكوماته المتعاقبة التي لا يتغير فيها إلا اسمها. وبعد أن يئس قرياقوص من الحكومة، قام باسترداد الحديقة، والمؤسف في الأمر أنه كان يملك إلى جوار الحديقة بيتا كان يرغب في أن يتنازل عنه، ليحوله إلى بيت للطالبات المصريات القادمات للدراسة في بريطانيا، لكنه عدل عن ذلك بعد تجربته الفاشلة مع الحديقة.

لكن قرياقوص ميخائيل لم ييأس من سعيه لأن يفيد وطنه بشيء، وبعد سنين من تلك الواقعة، كان قرياقوص في غاية السعادة، حين تمكن من أن يقوم باستغلال علاقاته من أجل خدمة وطنه، حدث ذلك كما يروي لنا وديع فلسطين في عام ١٩٥٠، حين أذاعت وكالات الأنباء أن حكومة إثيوبيا بدأت تتفاوض مع شركة أمريكية على بناء خزان على بحيرة تانا، فخشيت مصر من نتائج هذا المشروع عليها مائيا وزراعيا، خاصة وأن الزراعة كانت المورد الأهم لمصر وقتها، قبل تأميم قناة السويس وقبل وجود أي نشاط صناعي كبير، وحين تذكر المهندس عثمان محرم باشا وزير الأشغال المسئولة عن ملف الري، أنه التقى في بيت قرياقوص ميخائيل في لندن بإمبراطور الحبشة، ولمس مودتهما الوثيقة، قام بإرسال برقية إلى قرياقوص، دعاه فيها إلى المجيء إلى القاهرة، ليشترك في مناقشات حول مشروع خزان تانا، يحضرها وزير الخارجية الوفدي الدكتور محمد صلاح الدين باشا.
لبى قرياقوص دعوة عثمان محرم دون تردد، وحين تم تكليفه بالسفر إلى أديس أبابا، لبحث موضوع الخزان مع صديقه الإمبراطور، سافر على الفور والتقى بالإمبراطور، الذي رحب بقرياقوص بحفاوة، وأكد له أن حكومة بلاده ستولي آراء مصر بشأن مشروع الخزان كل عناية وتقدير، مصدرا أوامره إلى الوزراء المختصين بدراسة مقترحات مصر والتعامل الإيجابي معها. ولم يكتفِ الإمبراطور بذلك، بل قام بتوجيه خطاب إلى عثمان محرم باشا، أشاد فيه بمساعدات مصر المادية والأدبية للحبشة في حربها مع إيطاليا الفاشية، قائلا إن بلاده لن تتصرف بمفردها في مشروع الخزان. ولعلك حين تقرأ هذه الواقعة، في خضم ما تعانيه مصر من أزمات مع إثيوبيا بخصوص سد النهضة، تتضاعف حسرتك على أحوال مصر، التي لم يترك مسئولوها رصيدا ماديا أو معنويا، تجمع في عهود سابقة، إلا وانهالوا عليه تبديدا وإتلافا، وكم كان أولى بعلاقة كالتي نشأت بين صحفي مصري مخضرم وإمبراطور الحبشة، أن تتحول من علاقة شخصية قائمة على أفضال ومجاملات، إلى علاقة وثيقة بين بلدين، تقوم على التبادل الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، كما حدث في العديد من الدول التي نجحت في استغلال العلاقات التي تربط شخصياتها العامة بقادة دول أخرى، لتحويلها إلى علاقات مؤسسية تبقى بعد رحيل أصحابها، ثم تتعمد بالمصالح والمنافع، فتدوم ويبقى أثرها.

كان لغزًا بين الرجال

لم تكن حياة قرياقوص ميخائيل حافلة بالصداقات مع الملوك والكبراء فقط، بل كانت حياة مليئة بالتجارب القاسية والثرية، عانى خلالها من الاعتقال مرتين، وحوكم مرة في تهمة عقوبتها الإعدام، ونجا من الغرق ثلاث مرات، وكاد يلقى حتفه في الجو مرتين، لولا أن نجت طائرته بالهبوط الاضطراري في المرتين، ودُس له السم مرتين من جانب «أصدقاء»، لا يخبرنا وديع فلسطين عنهم، مع أن طريقة كتابته للواقعة توحي بأنه يعرف المزيد. وبرغم أن قرياقوص ميخائيل نجا من كل أسباب الموت المتعددة هذه، إلا أنه لم ينجح في الإفلات من مرض الشلل الذي أصابه في شهر سبتمبر عام ١٩٥٦، وهو على مشارف السبعين من عمره، ليرسل إلى جميع أصدقائه بطاقة مطبوعة، يخبرهم فيها بمرضه، ويعتذر عن عدم الرد على رسائلهم، واعدا بالكتابة إليهم بعد شفائه، دون أن يدري أن وعكته الصحية لن تكون عابرة، وأنه سيعود إلى بلده الحبيب مصر، في تابوت تنقله طائرة، لكي يدفن في مصر التي عاش من أجلها حقيقة لا مجازا، وأوصى بأن يضمه ترابها بعد رحيله، لعله يعوض ابتعاده عنها أغلب حياته.

بعد رحيل قرياقوص ميخائيل بأيام، كتب القس الدكتور إبراهيم سعيد رئيس طائفة الأقباط الإنجيليين، في صحيفة «الأهرام» مقالا مستفيضا ينقل وديع فلسطين مقاطع مهمة منه، تصف قرياقوص ميخائيل بأنه كان «لغزا بين الرجال»، لأنه جمع بين بساطة المظهر، التي كانت تجعله أحيانًا يسافر إلى لندن وهو يحمل «قُفّة» يضع فيها بعض أشيائه، وبين عمق التفكير الذي جعله يكتب في كبريات الصحف البريطانية، بأسلوب مؤثر وقوي. وبرغم فهمه لعادات الإنجليز وطريقتهم في الحياة والتفكير، فقد كان يعتز في داخله بالمراغة مسقط رأسه، وبطابعه الصعيدي الصميم، الذي جعل بيته مقصدًا لكل مصري مغترب في لندن، لكنه كان عمدة عصريا، يناديه الناس بلقب «أونكل مايكل». يشير القس إبراهيم سعيد في مقاله، إلى واقعة قام فيها قرياقوص ميخائيل بالتصدي للورد «بيفر بروك» أحد ملوك الصحافة الإنجليزية، حين نشرت إحدى الصحف المملوكة له خبرًا غير صحيح عن مصر، فخاض قرياقوص ضده بمفرده حملة ضارية في الصحف والمحاكم، حتى أجبره على الاعتذار، وهو ما لم يفعله اللورد «بروك» حين خاض معركة صحفية مع قصر بكنجهام قبل ذلك.

ينقل لنا وديع فلسطين مقالا آخر كتبه عالم مسلم، في رثاء هذا الصحفي المسيحي الذي يصدق فيه قول الشاعر القروي رشيد سليم الخوري «حامل فوق هَمّه هَم شعبه»، هو الشيخ أبو الوفا المراغي مدير المكتبة الأزهرية، الذي نشر في «الأهرام» مقالا يشيد فيه بدور قرياقوص ميخائيل في الحركة الوطنية، وهو الدور الذي استوقف الخطباء من المسلمين والأقباط، الذين وقفوا على منبر الجامع الأزهر في أيام ثورة ١٩، ليشيدوا بالحملة الإعلامية التي قادها الرجل، بالتعاون مع بعض أصحاب الضمائر في الصحف الإنجليزية، ليكشف المخازي والجرائم التي ارتكبتها قوات الاحتلال في حق المتظاهرين المطالبين بالاستقلال، مشيرا إلى حملة أخرى قام بها قرياقوص ميخائيل للدفاع عن الأزهر، إزاء حملة شنها عليه بعض الكُتاب الإنجليز، الذين أغضبهم الدور الذي لعبه عدد من مشايخ الأزهر في حشد الجماهير نحو المطالبة بالحرية والاستقلال، وبالطبع كان ذلك قبل أن يفقد الأزهر ومشايخه حريتهم واستقلالهم، ويتحول ـ هو وأغلب مشايخه ـ إلى بوق ينافق الحاكم، طبقا للمواصفات الشرعية المزعومة.

يبقى أن نشكر الله تعالى؛ لأنه رزق الصحفي والمناضل العتيد قرياقوص ميخائيل، روحا متواضعة طيبة، جعلته لا يجد غضاضة في أن يقوم بتعريف نفسه إلى كاتب شاب أعجبته كتابته، وآنس فيه مهارة وأمانة، فلولا ذلك لما عرفنا شيئًا عن نضالاته المشرّفة، وللقيت سيرته نفس المصير المجهول الذي لقيته وثائقه وكتبه، فالحمد لله الذي لا يُحمد على أحوالنا المكروهة الكريهة سواه.

برلمان الزعيم الملهم..
أو «كيف ترشق الشعوب في الحيط؟»

(١)

في مساء ٢٢ يولية ١٩٥٧، كانت قد مرت خمس سنوات على وعد ضباط ثورة يولية ١٩٥٢ للمصريين بتحقيق حياة نيابية سليمة، دون أن تشهد البلاد مجلسا نيابيا يعبر عن إرادة شعبها، الذي تتحدث باسمه الأغاني والمقالات والأفلام، معبرة عن ولاء الشعب للقائد الضرورة الملهم جمال عبد الناصر، الذي تجسد فيه الشعب، والذي شاءت إرادته بعد حوالي أربع سنوات من سيطرته على البلاد، ومصادرته للعمل السياسي والحزبي والصحفي، أن يكون للشعب أخيرًا برلمان، تمت تسميته «مجلس الأمة».

ليلتها، وقبل ساعات من الانعقاد الرسمي لأولى جلسات المجلس المعبر عن الحياة النيابية السليمة، استقبل حرس المجلس إشارة بزيارة عاجلة سيقوم بها مسئول كبير، تم إعلان حالة الطوارئ بين صفوف الحرس، وبعد نصف ساعة فحسب، وصل إلى بوابة المجلس جمال عبد الناصر في سيارة عادية لا ترافقها حراسة، لكي لا يتعرف عليه المواطنون في الطريق، كان الزعيم الملهم قادما لكي يتفقد البرلمان، الذي سيراقبه ويحاسبه ويحكم باسم الشعب على قراراته وسياساته، دخل عبد الناصر قاعة المجلس، وصعد على المنصة، وقام بسؤال مرافقيه عن عدد المكروفونات واتجاهها واختبر قوتها، ثم طاف بالبهو الفرعوني الشهير الذي كان يراه لأول مرة. وخلال تجوله في أنحاء البرلمان، رأى عددا من التماثيل التي كان قد تم صنعها لزعماء مصر قبل الثورة، فأمر بتخزينها فورًا، لكي تتحقق القطيعة الكاملة مع الماضي الذي قامت الثورة من أجله، لتبقى التماثيل في المخازن إلى الأبد، وليبقى معها حلم الحياة النيابية السليمة الذي ظل حتى الآن وهمًا لم تشهده مصر.

(٢)

كانت أولى أزمات المجلس النيابي «السليم» معبرة للغاية، عن مدى سلامته وعن مستقبله أيضًا، فقبل أن يذهب النواب إلى المجلس أصلا، نشرت صحيفة «الأهرام» صباح يوم الافتتاح خبرًا عن انتخاب عضو مجلس قيادة الثورة عبد اللطيف البغدادي كرئيس لمجلس الأمة بالإجماع، كما نشرت اسم وكيلَي المجلس المنتخبَين، اللذَين كان أحدهما عضوًا آخر لمجلس قيادة الثورة هو محمد أنور السادات. كان الأمر مستفزا حتى لأعضاء المجلس الذين لا ينتمي أحد منهم إلى فئة «أعداء الشعب»، ولذلك فقد تسبب ذلك الخبر في أزمة حادة تحت قبة المجلس، كما يكشف المحرر البرلماني المخضرم محمد الطويل في كتابه «برلمان الثورة ـ تاريخ الحياة النيابية في مصر ١٩٥٧ ـ ١٩٧٧»ـ والذي بدأ كتابته عقب مقتل السادات عام ١٩٨١، مطلعا على ٧٥٠ مضبطة برلمانية، وليتحرى الوقائع غير المسجلة بالاتصال بشهودها الأحياء.

بدأت الأزمة بعد أن انتخب المجلس لرئاسته المؤقتة أحمد صبحي الهرميل أكبر أعضائه سنا، الذي دعا الأعضاء إلى انتخاب رئيس المجلس ووكيليه، وأعطى الكلمة لأول من طلبها، وهو الدكتور عبد الغفار متولي، الذي أدلى بكلمة غاضبة طلب فيها من رئيس المجلس أن يوجه نظر الصحف إلى عدم استباق الحوادث، معترضا على الخبر الذي نشرته الأهرام عن انتخاب عبد اللطيف البغدادي ووكيلَيه بالإجماع، قبل أن ينعقد المجلس، معتبرا أن ذلك يمكن أن يجعل الشعب يسيء فهم المجلس، ويتصور أن عليه إملاءات. ويبدو أن السادة الأعضاء قرروا أن يؤكدوا سوء

الفهم ذلك، فتجاهلوا ما قاله زميلهم كأنه لم ينطق به، بل على العكس تمامًا صاح العضو محمود العتال دون حتى أن يطلب الكلمة رسميا، مطالبا بترشيح عبد اللطيف البغدادي لرئاسة المجلس، ليصيح عضو آخر مطالبا البغدادي أن يقف ويقول اسمه بالكامل، وقف البغدادي فورا وردد اسمه بالكامل، فدوّى المجلس بتصفيق حاد، تخللته أصوات تعلن الموافقة على ترشيحه بالإجماع، ولكي يزداد طين الإجماع بلّة، وقف العضو شوقي عبد الناصر شقيق جمال عبد الناصر ـ طبعا ـ ليعلن أنه طالما كان المرشح لرئاسة المجلس واحدا، فلا ضرورة لإجراء الانتخاب على مقعد الرئيس ليكون بالتزكية، وحين اعترض العضو محمود جلال على ذلك، رد عليه شوقي عبد الناصر بحماس شديد، وأيده العضو محمد علي قاسم، فصفق المجلس لهذا التأييد، ويبدو أن إصرار محمود جلال على التعبير عن رأيه والذي دعمه بمواد من لائحة المجلس، قد أربك الجميع، خاصة أن أداء محمود جلال كان قويا بفضل تمرسه السابق في العمل النيابي، حيث كان عضوا لمدة ٨ سنوات في برلمانات ما قبل الثورة، ولذلك فقد قرر المعنيون بالأمر تغيير «البروجرام»، ليتقدم عدد من المرشحين لمنافسة البغدادي على رئاسة المجلس، لتكون نتيجة «الانتخابات» كالآتي: البغدادي ٣٣٢ صوتا، محمود فهمي أبو كرورة ٧ أصوات، محمد رشاد الحاذق صوت، إبراهيم الطحاوي صوت، ليعلن البغدادي رئيسا للمجلس وسط تصفيق حاد صاحب كلمته التي أعلن فيها سعادته بانتخابه رئيسا لأول مجلس نيابي يقوم في عهد الثورة المجيدة.

وبعد أن استمع الأعضاء إلى كلمة ألح في طلبها محمود جلال العضو المتسرب من حياة نيابية سابقة، ذكّرهم فيها بتاريخ العمل النيابي في مصر، لكي لا يتصوروا أنهم يجلسون في ذلك المكان من فراغ، وطالب رئيس المجلس وقادة الثورة بإتاحة الحرية للمجلس ليكون خير ممثل للشعب حقا وصدقًا، وهنا جاء الرد على كلامه بشكل عملي ومعبر، حيث قرر العضو محمد فوزي أبو سيف في كلمته أن يوجه التحية «إلى السيد الرئيس العظيم جمال عبد الناصر ورفاقه الذين كان لهم الفضل على الشعب المصري الذي أيدهم في ثورتهم، وسيكون المجلس بل ونحن لهم جميعا درعا نضحي بحياتنا في سبيل هذه الثورة وأبطالها».

عندما رُفعت الجلسة للاستراحة اكتملت المهزلة بتوجه العضو إبراهيم الطحاوي إلى رئيس المجلس في غرفته يعتذر عن مبادرته لترشيح نفسه، ويطلب سحب ذلك، وحين عاد المجلس للانعقاد أعلن البغدادي طلب الطحاوي سحب ترشيحه واعتبار الصوت الذي أعطي له باطلا، ليدور جدل عقيم حول ذلك الأمر، وتكتمل مسرحية انتخاب وكيلَي المجلس اللذَين سبق الإعلان عنهما قبل انعقاده، وتظهر بعد ذلك نفحات النفاق والتملق كما وصفها محمد الطويل، حيث طلب العضو إسماعيل كامل عثمان أن يقوم مجلس الأمة بتكريم سيادة رئيس الجمهورية وزملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة، ليزايد عليه العضو محمد فوزي أبو سيف ويطالب بمنحهم عضوية مجلس الأمة الذي يفترض به أن يراقبهم، وترفع الجلسة الأولى للبرلمان بتلك الاقتراحات النفاقية على أساس أن تعود في مساء نفس اليوم، لسبب لا أظنك ستستغربه، هو الاستماع إلى أول خطاب للزعيم الملهم أمام برلمانه، الخطاب الذي جاء بالأمس ليراقب جودة المكروفونات التي ستذيعه.

(٣)

لم يكن حرص ضباط يولية ٥٢ على اختيار لفظ «سليمة»، لوصف الحياة النيابية التي يسعون لها، منفصلا عن سعيهم لتوصيف الحياة النيابية التي قضت عليها الثورة بأنها كانت فاسدة ومعيبة، ولم يكن فيها ما يستحق أن يبكيه الشعب، ولأن «الدوي على الودان أمرّ من السحر»، فقد نجحت «دولة يولية» من خلال مناهج التعليم والأذرع الإعلامية والثقافية، في أن تنشر بين المصريين

جيلا بعد جيل، روايتها المعتمدة والوحيدة عن الفساد الكامل للحياة النيابية التي كانت لديهم قبل الثورة، وأن الديمقراطية الحزبية التي شهدتها مصر لم تكن سوى أكذوبة لإلهاء الشعب عن مشاكله الحقيقية، وأن مجالس النواب التي سبقت الثورة كانت كلها تقوم بعمل تمثيليات سياسية يتواطأ فيها الجميع مع الملك، وعلى رأسهم حزب الوفد الذي كانت الأغلبية الشعبية تؤيده، ولذلك فلا خير في حياة نيابية تقوم على التمثيل الحزبي والتنافس الانتخابي، بل على الانتخابات أن تتم بين من يثبت أنهم ليسوا من أعداء الشعب. ومع أن أغلب هؤلاء كان قد تم رميهم في السجون أو نفيهم إلى خارج البلاد أو حتى إعدامهم «بأمر الشعب»، إلا أن الأمر لم يسلم من غربلة دقيقة لكل المرشحين، تتم تحت سمع وبصر وبطش الأجهزة الأمنية التي تم تطوير أداءها القمعي، لتجعل من أسطورة القلم السياسي المرعب أضحوكة.

وفي ظل بحار من الطنطنة والتهليل والزعيق المستمر في الشعب أن «يرفع رأسه بعد أن مضى عهد الاستعباد»، غرق المصريون في أكاذيب عدم جدوى الحياة البرلمانية القائمة على المنافسة الحزبية والديمقراطية وحرية التعبير، وسلموا أمورهم للبرلمان المعقّم الخالي من أعداء الشعب والمواد المعارضة، والذي لن تدخله أبدًا قوى «ظلامية رجعية مناهضة لأحلام الشعب المصري كما يجسدها ويعبر عنها الزعيم جمال عبد الناصر». ولذلك أدينت الحياة النيابية والحزبية قبل الثورة دون أن يتم تقييمها بشكل عادل ومنصف، فيعرف المصريون أن قصور الأداء النيابي لتلك البرلمانات والأحزاب، كان سببه تدخل القصر الملكي في العمل السياسي بالحل والمصادرة والقمع، مما لم يتح لتلك البرلمانات والحكومات المنبثقة عنها أن تمارس دورها على أكمل وجه، بدليل أنها حين كانت تأخذ فرصتها في العمل، كانت تحقق نتائج مهمة، سرعان ما تثير غضب القصر الملكي فيلجأ لحلها وتعطيل عملها. وبالتالي فإن الحل لن يكون أبدًا بمصادرة إرادة الشعب من جديد، بحيث يلعب الرئيس القادم من الجيش دور الملك، بل أن يتاح للآلية الديمقراطية أن تعمل بكامل طاقتها، وليس أن يصور عسكر يولية للشعب أن العيب لم يكن في تفاصيل إدارة العملية السياسية، بل في العملية السياسية نفسها وآلياتها الديمقراطية والنظام الحزبي كله، وأن الحل يكمن في إلغاء كل ذلك وتحويل الانتخابات النيابية من صراع سياسي على برامج مختلفة، إلى تنافس بين أناس يتفقون تمامًا في الفكر والسياسة والتوجهات، على أن يسمح لهم بالاختلاف على التفاصيل فقط، لتتحول المجالس النيابية إلى مجالس محلية، تصب جام غضبها على الوزراء المستجدين، والمسئولين المساكين الذين لا يرتبطون بعلاقات قوية بالرئيس ومراكز القوة المسيطرة على البلاد.

(٤)

بالطبع، لم يكن في مصلحة عسكر يولية أن تقوم وسائل الإعلام ـ التي سيطرت عليها الدولة، قبل أن تؤممها بالكامل عام ١٩٦١ ـ بتذكير المصريين بالنضال السياسي الذي خاضه آباؤهم وأجدادهم من أجل تأسيس حياة نيابية ديمقراطية تجعل الشعب يحكم نفسه بنفسه، وتضع «الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة»، وهو ما جعل مصر تشهد بين ثورتَي ١٩١٩ و ١٩٥٢ تسعة برلمانات، كان من بينها ما تم إنشاؤه بالتزوير والقمع وإدارة البوليس السياسي، وكان من بينها ما جاء عبر انتخابات حقيقية أقبل عليها الشعب. والأخيرة تعرضت كلها لحرب شعواء من القصر الملكي، سواء بمعاندة ما يصدر عنها من قرارات، ومحاولة إفراغه من محتواه، أو بالتضييق على نوابها النشطين، أو بتعريضها لقرارات الحل والإلغاء، بتهمة أنها تتجاوز حدودها، وتنازع الملك في سلطاته.

كان ترتيب تلك البرلمانات كالآتي:
البرلمان الأول الذي جاء عقب صراع سياسي طويل استمر لسنوات عقب ثورة ١٩، تم افتتاحه في ١٥ مارس ١٩٢٤، ومع ذلك فقد تعرض للحل في بداية دورته الثانية في نوفمبر من سنة ١٩٢٤، بفضل ثغرة تم زرعها في دستور ١٩٢٣، ليستغلها الملك فؤاد في إحكام سيطرته على البلاد. لكن هذا البرلمان الذي استمر عدة أشهر فقط، كان أسعد حظا من البرلمان الثاني الذي تم حله في يوم افتتاحه، أي أن عمره لم يتجاوز ساعة واحدة، لأن الانتخابات جاءت ببرلمان وفدي اعتبره الملك صورة طبق الأصل من برلمان ١٩٢٤. وبعد ذلك جاء ائتلاف حزبي بالبرلمان الثالث في نوفمبر ١٩٢٦، وقد تولى فيه زعيم الأمة ورئيس حزب الوفد سعد زغلول رئاسة مجلس النواب، تاركا رئاسة الوزارة لعدلي يكن خصمه السياسي اللدود وزعيم معارضيه، ومع أن ذلك المجلس قام بخطوات تشريعية ورقابية مهمة، فقد تم حله في بداية سنة ١٩٢٨ بسبب انتهاء الائتلاف الحزبي واستغلالا لوفاة سعد زغلول.
في نهاية سنة ١٩٢٩ جاء البرلمان الرابع لكنه لم يُعمّر أكثر من خمسة أشهر ليعلن قرار حله بعدها، ثم يتم إلغاء دستور ١٩٢٣، ويعلن الطاغية إسماعيل صدقي المدعوم من الملك دستورا آخر جاء ببرلمان خامس تم صناعته على عين إسماعيل صدقي وبدعم أجهزة أمنه. وبعد نضال شعبي مبهر وملهم استمر عدة سنوات، وفي سنة ١٩٣٦ عاد دستور ٢٣ من جديد، وأقيمت انتخابات شعبية حرة، جاءت بالبرلمان السادس الذي سيطر عليه حزب الوفد الذي كان زعيمه مصطفى النحاس قد تحول إلى أيقونة شعبية، ليتم حل ذلك البرلمان في إبريل ١٩٣٨. ويعقبه البرلمان السابع الذي تم حله عقب أزمة ٤ فبراير ١٩٤٢ الشهيرة، والتي وصلت بالخلاف بين الوفد والقصر إلى منتهاه، وأتاحت الفرصة لكثير من أحزاب الأقلية أن تصطاد في المياه العكرة، وتستغل دعم الإنجليز لمصطفى النحاس في مواجهة الملك، بتصوير الوفد بأنه خان الوطن والشعب، في الوقت الذي كان النحاس قد تبنى فيه رأيا بأن الخطر الحقيقي على الأمة المصرية يكمن في إلغاء الملك لإرادتها، وأنها لن تتحرر من الإنجليز إلا إذا قامت بحماية الدستور الذي يضمن حكم الشعب المصري لنفسه، لتبقى البلاد في خضم تلك المعارك السياسية دون برلمان، حتى جاء البرلمان الثامن الذي تم انتخابه في يناير سنة ١٩٤٥، وهو البرلمان الوحيد الذي أكمل دوراته الخمس إلى نهاية سنة ١٩٤٩، ثم جاءت الانتخابات في يناير سنة ١٩٥٠ ببرلمان هو التاسع الذي ظل قائما حتى أطاحت به ثورة يولية ١٩٥٢.
كان مستحيلا أن تسمح دولة يولية بتذكير الشعب المصري بكل ما صاحب تلك المسيرة من نضال حقيقي، ولا بأن الدعوة إلى الثورة على الملكية بدأت أصلا من داخل البرلمان في عدة مواقف تاريخية أعلنها عدد من النواب من مختلف الأحزاب، ولا أن يتم تذكير الشعب بعدد من القوانين المهمة التي حققها البرلمان الوفدي الوحيد الذي أكمل دورته في مجالات التعليم والري والتموين والصحة والسياسة الخارجية، برغم أن ذلك تم في ظل تعرض الوفد نفسه للكثير من الأزمات، بعد انشقاق عدد من قادة الوفد المهمين، وتغول جناح فؤاد سراج الدين داخله، ومع ذلك فقد ظل النحاس قادرا على المناورة والمبادرة، وتجديد دماء الوفد بضم العديد من العناصر اليسارية والمتمردة إليه. لكن كل ذلك لم يؤتِ ثماره بسبب احتكام الأزمات السياسية التي تسبب فيها الملك فاروق وحاشيته، والتي أوصلت البلاد إلى طريق مسدود، كان ينذر بانفجار شعبي حاشد، أجهضه قيام العسكر بحركتهم التي وصفها المصريون بالمباركة، لأنها حققت أحلامهم في الخلاص من الملكية الفاسدة.

ومع أن الجيش كان قد وعد الشعب بأن يعود إلى ثكناته فورا، ليترك لممثلي الشعب تحقيق أهداف الثورة وأحلامها، إلا أن الأمر انتهى نهاية حزينة، بعد تواطؤ الإخوان المسلمين وعدد من القانونيين المنتمين لأحزاب الأقلية، على تحريض قيادات الثورة ضد الوفد وغيره من الأحزاب الكبيرة، ومطالبتهم على طريقة «كمل جميلك» بأن يقوموا بتطهير الحياة السياسية من تلك الأحزاب التي تم تحميلها كل خطايا العهد السابق، وإهالة التراب على سنوات من النضال السياسي والشعبي، ليظهر وكأن تاريخ الحرية والكرامة بدأ مع مجيء العسكر إلى الحكم، ولينتهي الأمر بتخلص العسكر من الوفد وغيره من الأحزاب، ثم بتخلصه من الإخوان والقانونيين الذين ساعدوه، ثم بتخلصه من قوى اليسار المتناحرة والسيطرة على النقابات والصحف، وخنق المجال السياسي، ليصبح الأداء السياسي المسموح به متاحا فقط تحت قبة مجلس الأمة الذي ذهب الزعيم الملهم ليتفقده قبل افتتاحه.

(٥)

كان مجلس الأمة الجديد كما رأينا ومنذ افتتاحه، مصنوعا على مقاس دولة الضباط وطبقا لمواصفاتهم السياسية القياسية، ومع ذلك فقد تسرب إليه بعض الأعضاء الذين خرجوا على النص، كان أشهرهم النائب أبو الفضل الجيزاوي الذي قدم سؤالا حول أوضاع المعتقلين السياسيين، رد عليه زكريا محيي الدين وزير الداخلية وعضو مجلس قيادة الثورة بشراسة، نافيا وجود أي معتقلين سياسيين في مصر. وبرغم أن النائبة راوية عطية حاولت مساندة زميلها الجيزاوي في سؤاله، إلا أن القضية أقفلت بالتجاهل، ليعود المجلس إلى دوره المرسوم بإقرار القوانين التي كان يحتاج عبد الناصر إلى إصدارها عبر المجلس، بدلا من أن يعلنها بنفسه مسبوقة بعبارته الأثيرة «باسم الشعب». ومع أن المجلس لم يخذل زعيمه الملهم في كل ما طلبه من قرارات، إلا أن ذلك لم يمنع الزعيم من إصدار قرار جمهوري بحل المجلس في أغسطس عام ١٩٥٨، لتختفي أي مظاهر نيابية حتى لو كانت صورية من مصر، لمدة سبعة أعوام، حيث لم تعد إلا حين قرر عبد الناصر في مارس ١٩٦٤ أنه بحاجة إلى برلمان ديكوري جديد.
وربما لو كان البرلمان الذي أعاده عبد الناصر في منتصف الستينيات يمثل كيانا شعبيا سياسيا حقيقيا، لقام بمحاسبة عبد الناصر ومراقبته وإيقاف الكثير من المسئولين عند حدودهم ومنعهم من العبث بالبلاد، ولكان صعبا أن تشهد مصر تلك الهزيمة المذلة في ١٩٦٧، لكنه كان برلمانا صوريا مصنوعا بانتخابات كرتونية تتحكم فيها الأجهزة الأمنية، تمامًا ككل البرلمانات التي أعقبته في عهدَي السادات ومبارك، حيث بدأت تتزايد شيئًا فشيئا المساحات المسموحة لنواب المعارضة، لكي يضفوا شرعية على القوانين والقرارات التي تخرج دائمًا حاصلة على الأغلبية الساحقة الماحقة، ومطابقة لرضا وليّ النعم وطلبات حاشيته.

(٦)

حين عادت البلاد ثانية لبرلمان الصوت الواحد في عام ٢٠١٠، حيث لم يسمح حتى للمعارضة الكرتونية بأن يكون لها مكان تحت القبة، جاءت ثورة يناير لتطيح بحسني مبارك وحكومته وبرلمانه، وشهدت مصر بعد الثورة برلمانا منتخبا حقيقيا لأول مرة منذ حكمها العسكر، لكن المؤسف أن الفائزين فيه والذين كان أغلبهم من أعضاء جماعة الإخوان والتيارات السلفية، قاموا بتحويل عدد من جلسات البرلمان إلى مسرح هزلي، ينشغل بأشد القضايا هامشية وإثارة للجدل الشعبي، ورفضوا تمرير قوانين مهمة كان يمكن أن تساعد على محاكمة المسئولين المتورطين في القتل وإعادة الأموال المهربة، وتحرير الإعلام من سطوة الأجهزة السيادية، وساعدت الكثير من

المواقف التي اتخذوها بالتنسيق مع المجلس العسكري على إشعال نار الاستقطاب السياسي وتخييب الآمال التي عقدها الكثير من شباب الثورة على المجلس، دون أن يدركوا عنصر الوقت الحاسم خصوصًا عقب الثورات، ليرتبط العمر القصير لذلك المجلس، قبل حله بقرار من المحكمة الدستورية العليا بشعار «وزير الداخلية قال مفيش خرطوش» الذي رفعه رئيسه سعد الكتاتني دفاعًا عن الداخلية والجيش خلال مذبحة محمد محمود، ولذلك لم يحزن عليه الكثيرون من شباب الثورة والمشاركين فيها حين تم حله.

في الوقت ذاته، وفي ظل عجز المشاركين في الثورة عن تشكيل تنظيمات سياسية قوية تفرض مطالبها بشكل واضح، قامت أجهزة الإعلام المدعومة من الجيش والأجهزة الأمنية، باستغلال كل الممارسات الغريبة والصادمة التي قام بها قادة تيارات الشعارات الإسلامية تحت قبة ذلك المجلس قصير العمر وخارجه، لشن هجوم شرس على الديمقراطية والعمل النيابي والحزبي. وظل ذلك المنطق الكريه يكتسب أرضا شعبية مع كل قرار خاطئ يقوم به الرئيس الإخواني محمد مرسي، ومع كل تصريح منفلت يصدر عن أي مسئول إخواني أو حليف سلفي. وبعد أن تم عزل مرسي عن الحكم، وجاءت لحظة طلب التفويض الشعبي التي صادرت مطلب الانتخابات الرئاسية المبكرة، كان لا بد أن تعود لاءات «لا حرية لأعداء الشعب ـ لا للأحزاب الكرتونية ـ لا لعملاء الخارج ـ لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» لتدوي في سماء الوطن، ويتم إخراس وتخوين كل من يطالب بمناخ ديمقراطي سليم تبتعد أجهزة الأمن والمخابرات عن التدخل فيه، وتشويه كل من يطالب أجهزة الإعلام بعدم تجاوز القانون بناءً على طلبات من يدفع لها ومن يحركها، ليبقى المجال السياسي في النهاية حكرًا على من ينالون رضا الأجهزة الأمنية، ليُصنع من هؤلاء الآن مشروع برلمان على مقاس الزعيم الملهم، لتعيد مصر ذلك الفيلم الهابط من جديد وبحذافيره، على أساس أنه يمكن أن يفضي إلى نهاية سعيدة هذه المرة.

إزاي؟ ما تفهمش!

الماريشال السياسي

سواءً كان الأستاذ محمد حسنين هيكل سيقوم حقًّا بإعداد البرنامج الرئاسي للمشير عبد الفتاح السيسي، كما نشرت صحيفة «اليوم السابع» المقربة من الأجهزة الأمنية، أو كان فقط يحتفظ بدور الخبير الذي لا يبخل بواجب النصيحة كما سبق أن روى في حوار تلفزيوني، سيبقى لديّ في الحالتين سؤال مهم يشغلني بشدة: يا ترى هل روى الأستاذ هيكل للمشير عبد الفتاح السيسي وقائع الحوار الذي دار بينه وبين القائد العسكري الإنجليزي الأشهر «برنارد مونتجمري» حين زار مصر بمناسبة مرور ربع قرن على معركة العلمين الشهيرة، والتقى هيكل به يومها ودار بينهما حوار طويل أبدى فيه «مونتجمري»، الذي كان يحمل رتبة المشير أو الفيلد ماريشال، استغرابه من حصول القائد العام للقوات المسلحة المشير عبد الحكيم عامر على تلك الرتبة بشكل سياسي دون أن يحقق إنجازًا عسكريًّا يجعله يستحق تلك الرتبة طبقًا لنص كلمات «مونتجمري» التي يرويها هيكل.

الواقعة يرويها الأستاذ هيكل في كتابه الجميل «زيارة جديدة للتاريخ» حيث يقول ـ في صفحة ١٨٠ طبعة دار الشروق ـ إن «مونتجمري» وصف المشير عبد الحكيم عامر بأنه أصبح ماريشالا سياسيًّا، ثم قال لهيكل بالنص: «ليست هناك حاجة على الإطلاق لـ«ماريشال سياسي»، الماريشالية لا تكون إلا بقيادة الجيوش في الميدان، وليس من أي سبب آخر». يقول هيكل: «قلت مقاطعًا: قد لا أختلف معك كثيرًا، ومع ذلك فلماذا لا تسأله هو الآخر حين تلقاه. فقال: هل أستطيع أن أسأله هذا السؤال فعلا إذا لقيته؟ وهل يغضبه السؤال؟ وقلت ضاحكًا: لا أعرف». ولم يذكر الأستاذ هيكل بعدها هل سأل «مونتجمري» المشير عامر ذلك السؤال الشائك أم لا.

الأهم والأخطر أن «مونتجمري» في حواره مع هيكل لم يكتفِ بإثارة مسألة حصول المشير عامر على لقب عسكري دون أن يحقق إنجازًا عسكريًّا، بل قرر أن يخوض في قلب ما رآه مشكلة تعاني منها مصر، هي مشكلة العلاقة بين العسكريين والمدنيين، وقد بدأ حديثه بتذكر خلاف حدث بينه وبين «ونستون تشرشل» رئيس الوزراء البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية وأحد أشهر الساسة البريطانيين على مر العصور، راويا أن «تشرشل» أرسل إليه أثناء اندلاع معركته مع الجيش الألماني بقيادة «روميل» يطلب منه غاضبا أن يتحرك بالهجوم ولا يكتفي بخوض معركة دفاعية، ليرد «مونتجمري» عليه ببرقية أملاها على مساعده الجنرال «فرانسيس دي جينجاند» قال فيها بالنص: «إنني أرجو أن يظل رئيس الوزراء في مكانه وأن يترك لي مكاني». واستشهد «مونتجمري» بمساعده الجنرال «جينجاند» الذي كان معه في زيارته لمصر.

ثم أضاف «مونتجمري» قائلا لهيكل: «إنني لا أحب الساسة حين يتحولون إلى جنرالات، وأيضًا لا أحب الجنرالات حين يتحولون إلى ساسة». وهنا يروي هيكل: «وعلى غير انتظار وحواسي كلها معه، اندفع «مونتجمري» في عملية اختراق مفاجئة لخطوطي، وسألني: «لماذا يتحول الجنرالات عندكم إلى ساسة؟»، وحاولت أن أكسب وقتًا فسألته: «أي جنرالات؟». قال بسرعة: «ناصر وزملاؤه»، قلت: «إن ناصر ليس جنرالا وآخر رتبة وصل إليها في الجيش هي رتبة الكولونيل فقط». قال مشددًا الهجوم: «حسنًا، سوف أُعدِّل سؤالي: لماذا يتحول الكولونيلات إلى ساسة؟». قلت: «حلمك، دعني أشرح لك القصة بالتفصيل». ورُحت أحدثه عن ظروف مصر ومراحل تطورها، والظروف التي أحاطت بالثورة، وكيف أن الذين قاموا بها مجموعة من شبان الجيش، قاموا بها بوصفهم شبابا وطنيين لا ضباطا في الجيش، بل وكانت مهمتهم الأولى في

الثورة هي الاستيلاء على مقاليد الأمور في الجيش لكي يمنعوا الملك من استخدامه ضد ثورة الشعب، ثم يضعونه هم تحت تصرف الثورة الشعبية لتأمين أهدافها، ثم استعرضت ظروف العالم الثالث كله ودور الجيوش فيه باعتبارها المؤسسات الوحيدة القادرة على كفالة الاستمرار في أوقات الأزمات الكبرى».

لم يجد «مونتجمري» تفسير هيكل مقنعًا فقال له: «إنك لن تستطيع أن تقنعني». وهنا جاء رد هيكل مفاجئًا حيث قال له: «إنني لا أحاول إقناعك، وكيف أستطيع أن أقنعك بشيء أنا نفسي غير مقتنع به! إنني كنت أشرح لك ملابسات حالة، ولم أكن أقنن قاعدة. على وجه اليقين أنا لست من أنصار تدخل العسكريين في السياسة. لا أريد للجنرالات أن يصبحوا ساسة بنفس المقدار الذي لم ترد فيه أنت للساسة أن يصبحوا جنرالات. لكن أمامنا في مصر وفي العالم الثالث كله تقريبًا ظاهرة لا بد لها من تفسير، وحين أفسر فإنني لا أبرر». وقلت: «على أي حال إنك سوف تقابل الرئيس ناصر، وأقترح أن توجه إليه نفس السؤال». وقال «مونتجمري»: «ألا يغضبه السؤال؟». قلت: «لا أظن».

للأسف، أنهى الأستاذ هيكل الفصل الذي تحدث فيه عن «مونتجمري» دون أن يخبرنا هل قام «مونتجمري» فعلا بتوجيه أسئلته لعبد الناصر، وكيف كان رد فعل عبد الناصر عليها؟ فهل يجيبنا الآن عن أسئلة أهم على رأسها: هل لا زال غير مقتنع بتدخل العسكريين في السياسة وبخطأ منح رتبة عسكرية لأسباب سياسية كما قال لـ«مونتجمري»؟ وإذا كان يرى أن تدخل ناصر ورفاقه في يولية ١٩٥٢ كان مبررا لمنع استخدام الملك للتصادم مع الشعب، فما هو المبرر الآن في ظل تقدير الشعب للجيش لكي ينتقل قائد الجيش من موقع الحامي إلى موقع الحاكم بكل ما يحمله ذلك من خطورة على تعميق الصراعات السياسية في المجتمع وتجميد التطور الديمقراطي وإعادة مصر إلى عصور الاستبداد المدعوم بإعلام الدولة ومثقفيها وإمكانياتها؟

حتى يجيب الأستاذ هيكل جمهوره عن تلك الأسئلة، إن أراد، يبقى أن أقول لك إن ما تخوّف منه «مونتجمري» من تدخل العسكريين في السياسة، شهدت مصر آثاره المريرة بعدها بفترة وجيزة، إذ إن زيارة «مونتجمري» لمصر كانت في الأسبوع الأول من مايو ١٩٦٧، ولست بحاجة لأن أذكرك بما جرى لمصر بفضل سياسات الكولونيل جمال عبد الناصر والماريشال عبد الحكيم عامر بعد ذلك بشهر.

حفظ الله مصر.

أيها الرجل الصغير..
لماذا تحب أن تظل صغيرًا إلى الأبد؟

«أيها الرجل الصغير، إنهم يقولون لك بصراحة بأنك وحياتك وأطفالك وعائلتك لا قيمة لكم، بأنك غبي وعبد، وإنه بإمكان المرء أن يفعل بك ما يريد، إنهم لم يَعِدوك بالحرية الشخصية ولكن بالحرية القومية، وهم لم يَعِدوك باحترام الإنسان ولكن باحترام الدولة. ليس بالعظمة الشخصية ولكن بالعظمة الوطنية، ولأنك تجهل «الحرية الشخصية» و«السمو الشخصي»، في الوقت الذي يسيل لعابك كما تُسيِّل عظمةٌ لُعاب كلب، لكلمات مثل «الحرية القومية» و«مصالح الدولة» فإنك تهلل خلفهم، مع أنه لا أحد من هؤلاء الرجال الصغار دفع ثمن الحرية الحقيقية، إنهم يحتقرونك ولا يحبونك لأنك تحتقر نفسك، إنهم يعرفونك جيدا، يعرفون نقاط ضعفك الخبيثة التي عليك أنت وحدك معرفتها، وأنت تحملهم نحو السلطة على ظهرك، إنك وحدك من ترفع أسيادك، من تطعمهم، مع أنهم أسقطوا كل الأقنعة، لقد قالوا ذلك بوضوح لك: أنت إنسان من الدرجة الثانية، إنسان بلا مسئولية، وعليك أن تظل كذلك، ومع ذلك تُسمِّيهم «المُخلِّصون الجدد» وتُهلِّل خلفهم».

كنت أتمنى أن يعود لي فضل كتابة هذه الكلمات، لكنها في الحقيقة مقتطف من كتاب «خطاب إلى الرجل الصغير» الذي كتبه عالم النفس النمساوي الشهير «فيلهلم رايش» في منتصف أربعينيات القرن العشرين، وترجمه إلى العربية رشيد بو طيب في كتاب صدر عن منشورات الجمل قبل أكثر من عشرة أعوام، ولم ينل ما يستحقه من اهتمام وقتها، ربما لأن الوقت الحقيقي لقراءته في رأيي، هو هذه الفترة الكئيبة التي نعيشها والتي عادت فيها بقوة وخسة ظاهرة قيام السلطة بتوظيف المواطن أو «الرجل الصغير» كما يسميه «رايش» لكي يعمل ضد مصالحه الشخصية، ولكي يقوم بخدمة مصالحها بعد أن اختطفت عقله وإرادته بفعل الخوف، وهو ما ينبه إليه «فيلهلم رايش» في مقدمة كتابه، عندما يقول إن الحكمة من كتابة خطابه كانت أن يحث الرجل الصغير لأن يتعرف على الواقع بشكل سليم، لأن هذه المعرفة ستجعله يتجنب التحول دائمًا إلى خدمة رجال السلطة، والذين أطلق عليهم «رايش» تسمية «الرجال الكبار ـ الصغار» لأنهم مهما كبرت مناصبهم يظلون صغارا بداخلهم، وقد اختار لهم هذه التسمية، لكي يفرق بينهم وبين من أطلق عليهم وصف «الرجال الكبار»، أولئك الذين يطلبون دائمًا الحرية والحقيقة وينشرون المعرفة ويحاربون استثمار السلطات للخوف والجهل.

(٢)

في مقدمة كتابه المهم والمؤلم يقول «فيلهلم رايش» إنه كتب «خطاب إلى الرجل الصغير» كوثيقة إنسانية وليس كدراسة علمية، وأنه بدأ في كتابته في صيف سنة ١٩٤٦ لكي يُحفظ في أرشيف مؤسسة «أوريغون» التي كانت متخصصة في الأبحاث المتعلقة بالطاقة الحيوية للإنسان، والتي كان يعمل لصالحها، وأنه لم يكن ينوي نشر الكتاب، لكنه عندما قررت الحكومة الأمريكية أن تقوم بخدمة تُجّار التحليل النفسي، وتقوم بتدمير الأبحاث التي عمل فيها، ليس عن طريق إثبات أنها خاطئة، ولكن فقط عن طريق الحط من قيمتها، قرر أن يقوم بنشر هذا الكتاب كوثيقة تعبر عن الهزات الداخلية التي ألمَّت به كباحث علمي وطبيب «عاش عقودا طويلة بسذاجة في البداية، ثم بدهشة، وأخيرا بفزع وخوف، وهو يراقب ما يقترفه الرجل الصغير من الشعب دائمًا بحق نفسه، كيف تألم وتمرد ثم قدس أعداءه وقتل أصدقاءه، وكيف عندما حصل على السلطة أساء استغلالها واستعملها بوحشية تمامًا مثلما فعلت السلطة التي عانى منها في السابق»، مؤكدا أنه لا يهدف من

نشر هذا الخطاب إلى أن يطلب تعاطف القارئ، لأنه لا يطالب بشيء سوى حق الباحث والمفكر في الكلام، وأن يتم رفض الطاعون الروحي الذي يمتلك نيات مبيتة لإطلاق سهامه المسمومة على الباحث الكادح، وأن يتعلم الرجل الصغير حرية التعبير ويستعملها من أجل الخير، على الأقل بنفس القدر الذي يستغلها به «الطاعون الروحي» من أجل الشر، معلنا عن إيمانه بأنه لو امتلك الناس نفس الحق في التعبير عن آرائهم، فسوف ينتصر العقلاني من هذه الآراء في النهاية.
بالطبع لم يكن غريبًا على «رايش» أن يتعرض للاضطهاد حين يعبر عن هذه الأفكار في ظل سيادة الفاشية بمختلف أنواعها في تلك الفترة العصيبة من تاريخ العالم، خاصة أنه كان يتعرض لحرب شرسة من الكثير من منافسيه وكارهيه بسبب أبحاثه المثيرة للجدل والتي حاول أن يتمرد فيها على أفكار أستاذه عالم النفس الأشهر «سيجموند فرويد»، لتضطره تلك الصراعات المتزايدة إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٩، لكنه لم يسلم من العناء هناك، حيث طورد فيها بسبب أفكاره وكتاباته التي أثارت ردود فعل عنيفة، خصوصًا مع تصاعد موجة محاكم التفتيش المعاصرة في تلك الفترة والتي قادها العديد من «الرجال الكبار - الصغار» كان من أشهرهم السيناتور «التافه» «جوزيف مكارثي»، ولأن «رايش» لم يكن يملك سوى حقه في الكلام، وهو حق لم تستطع للأسف قوة القانون أن تحميه، في ظل حملات التخويف من كل صاحب رأي مختلف والتي شكّلت هستيريا عمت المجتمع الأمريكي وسيطرت عليه، وفي ظل هذه الهستيريا تعرض «رايش» للسجن بسبب أفكاره وكتاباته، لتوافيه المنيّة وهو داخل السجن عام ١٩٥٧.
في كتابه المهم، يخاطب «رايش» «الرجل الصغير» بمرارة شديدة مستغربا من رغبته في أن يهوي دائمًا بنفسه إلى الوحل الذي تعذب بداخله طويلا بالسابق، ويتهمه بالعجز عن انتزاع ما هو حق له، وعن حماية ما أحرزه من انتصارات والحفاظ عليها، ودون أن يلجأ إلى إلقاء اللوم على شماعة السلطة التي يحتلها «الرجال الكبار - الصغار»، يقول للرجل الصغير بكل صدق: «لقد عرفتُ من يستعبدك، أنت من تستعبد نفسك ولا أحد غيرك، هذه هي الحقيقة، لا أحد غيرك يحمل وزر عبوديتك، وأنت وحدك من تستطيع أن تحرر نفسك. إنني أتشبث بهذه الجملة، أزعم أني مقاتل من أجل الصفاء والحقيقة، والآن وقد حان الوقت لقول الحقيقة حول وضعك. أتردد خوفا منك ومن موقفك من الحقيقة. الحقيقة قد تشكل خطرًا على الحياة، إذا ما تعلق الأمر بك، الحقيقة هي منقذة للحياة، لكنها تتحول أحيانًا إلى ضحية لكل اللصوص، وإلا لما كنت الآن حيث أنت وكيف أنت... إن عقلي يقول لي: قل الحقيقة مهما كلف الثمن، والرجل الصغير بداخلي يقول لي: من الغباء أن تنزل بالحقيقة إلى الرجل الصغير، أن تقدمها له، الرجل الصغير لا يريد سماع حقيقته، إنه لا يريد تحمل المسئولية الكبيرة التي تقع عليه، التي هي مسئوليته أحب أم كره، إنه يريد أن يظل رجلا صغيرا».
ولأن «رايش» درس بعمق كل نماذج القادة الفاشيين من مختلف التيارات التي عاصرها في حياته في أوروبا ثم في أمريكا، نجده يستخلص من دراسته تلك أن «الرجال الكبار - الصغار» درسوا بعناية شوق المواطن إلى أن يصبح عبدًا طيعًا، خاصة أنهم ينحدرون من بيئة الرجل الصغير، وليس من القصور، لقد جاعوا مثله، وتألموا مثله، ولذلك فقد استطاعوا في زمن قياسي أن يوظفوا معرفتهم بالرجل الصغير لكي يسيطروا عليه، ويدفعوه للتضحية بكل شيء لكي يصل إلى عبوديته الجديدة، ولذلك لا يخفي «رايش» غضبه الشديد على الرجل الصغير الذي جعله يسلم قياده لأناس مثل هؤلاء، فقط لكي يهرب من تحمل مسئولية الحرية، صارخا في مواطنه: «أنت مريض أيها

الرجل الصغير، ليس هذا ذنبك، ولكن عليك تقع مسئولية التحرر من مرضك، كان بإمكانك أن تكون منذ زمن قد تخلصت من نير المُتسلِّط عليك، إذا لم تصبر على المُتسلِّط ولم تقدم له يد المساعدة، ولو أنك كنت تملك ذرة احترام واحدة لنفسك، لما استطاع أي بوليس في العالم أن يتسلط عليك، لو أنك عرفت، حقًّا عرفت أنه بدونك لا يمكن للحياة أن تستمر. يجب أن تعرف أنك مَن صنع رجاله الصغار متسلطين عليه، ومن رجاله الكبار حقًّا شهداء، أنك أنت من قام بصلبهم وضربهم، وتركهم يجوعون، أنك لم تهتم بهم، ولا بتضحيتهم من أجلك... لقد كان بإمكانك أن تنتصر على جلاديك، لو أنك كنت في عمقك حيًّا ومعافى. إن جلاديك ينحدرون من صفوفك في الحاضر، كما كانوا ينحدرون في الماضي من الطبقات الراقية في المجتمع، إنهم أصغر منك أيها الرجل الصغير».

(٣)

في موضع آخر من كتابه وبعد أن يتأمل «فيلهلم رايش» كل صنوف المعاناة التي خاضها على مر التاريخ كل الذين حاولوا أن ينبهوا مواطنيهم إلى مخاطر الاستبداد والقمع والفاشية، فذاقوا المعاناة من مواطنيهم قبل أن يذوقوها من السلطات، يقوم بتكثيف هذه المعاناة قائلا في سطور مريرة: «أيها الرجل الصغير: إنك لا تستطيع أن تحس أو ترى الرجل الكبير، جوهره، ألمه، توقه، ثورته، نضاله من أجلك، هو ومن هم مثله بالنسبة لك أشياء غريبة، ولا تستطيع أن تفهم أن هناك رجالًا ونساء غير قادرين على قمعك واستغلالك، رجالًا ونساء يريدونك حُرًّا. إنك لا تحب هؤلاء الرجال والنساء لأنهم غرباء عن جوهرك، إنهم بسطاء ومستقيمون، إنهم ينظرون إليك ليس باستهزاء، ولكن بأسى على المصير الإنساني، ولكنك تحس بنفسك مراقبا، وتشعر بخطر يتهددك، إنك تعترف بهم أيها الرجل الصغير، فقط إذا ما قال لك العديد من الرجال الصغار أنهم رجال كبار، أنت تشعر بالخوف من الرجل الكبير، من قربه من الحياة ومن حبه لها، والرجل الكبير يحبك ببساطة ككائن حي، إنه لا يريد أن يراك تتألم، كما تألمت منذ آلاف السنين، ولا يريد أن يسمعك تتحدث في غباء كما تفعل منذ آلاف السنين، إنه لا يريدك أن تعيش كحيوان عامل، لأنه يحب الحياة ولأنه يريد من الحياة أن تكون خالية من الآلام والإهانة».

وفي استرجاع لمعاناته الشخصية التي جعلته يتعرض للاضطهاد والنبذ بدعوى أنه غريب الأطوار، يتهم «فيلهلم رايش» الرجل الصغير بأنه يدفع بأفعاله أي رجل كبير مدافع عن حريته إلى الاختباء والألم يعتصر صدره، لأنه يفضل تجنب صحبة مواطنيه الذين يشفق عليهم ويتألم منهم، حين يراهم يتهمونه بأنه مجرم أو مريض عقلي وغريب الأطوار، «كل ذلك لأنه لا يعتبر هدف حياته أن يصبح غنيا أو أن يحقق زواجا مناسبا لبناته أو نجاحا سياسيا أو زينة بروفيسورية، إنك تسميه غريب الأطوار لأنه ليس مثلك، تسميه غير اجتماعي إذا ما اختار الانزواء برفقة أفكاره، بدل إنفاق الوقت في الثرثرة الفارغة لمجتمعاتك، إنك تقيسه بمقاييسك الصغيرة لتخلص إلى أنه لا تتوفر فيه شروط الرجل الطبيعي، إنك لا ترى وترفض أيها الرجل الصغير معرفة أنك تطرده، هو الممتلئ بالحب، والمستعد دوما لتقديم يد المساعدة إليك، تعتبره ثقيل الظل.. ما الذي جعله يبدو كما لو أنه خارج من عقود طويلة من الألم؟ أنت الذي جعلته كذلك، بفعل غياب ضميرك، ضيق أفقك، تفكيرك الخاطئ، ووثوقيتك الدينية التي لا تستطيع أن تصمد أمام عقد من التطور الاجتماعي».

وهنا يضع «فيلهلم رايش» يده على نقطة شديدة الأهمية، هي أن قيام مجتمع الرجال الصغار بنبذ الرجل الكبير وإبعاده عن المجتمع، يشكل أمرا شديد الخطورة على صحة المجتمع وسلامته، لأن

المدافع عن الحرية حين يتحول إلى منبوذ، تُزرع بداخله البذرة المخيفة للعزلة، وهي بذرة أن يشعر بالخوف من أن يعجز الرجل الصغير عن فهمه، وأن يسيء معاملته، لأنه في النهاية هو «الشعب»، هو «الرأي العام»، هو «الضمير الاجتماعي»، ولأن الرجل الكبير يعي خطورة الوقوف ضد كل هذه المعاني، فهو يفضل غالبا أن يصمت وينعزل، متوحدا مع جراحه العميقة، التي لن تدفعه لمحاولة الانتقام من المجتمع، كما يفعل الإرهابيون مثلا، لأن ذلك الانتقام ربما أراحه من ألمه، بل هو على العكس سينشغل أكثر بمحاولة فهم لماذا تصرف معه الرجل الصغير بوضاعة، بينما هو لم يطلب منه سوى أن يحافظ على حريته، ولا يترك أصحاب المصالح يستغلونه، ولماذا قرر الرجل الصغير أن «يفقد كل توقٍ واشتياق إلى الأفضل بداخله، وأن يخنق ذلك التوق، بل ويقتله كلما اكتشفه في الآخرين، في أطفاله، في زوجته، في أبيه، في أمه، لماذا يحب الرجل الصغير أن يظل صغيرا». وهكذا يستمر الرجل الكبير حين يتعرض للنبذ في طرح هذه الأسئلة المريرة المؤلمة على نفسه، فيزداد مرارة وألما وانعزالا.

لكن ذلك ما لم يفعله «فيلهلم رايش»؛ فهو لم ينعزل خوفا من الشعب أو الرأي العام أو الضمير الاجتماعي، بل قرر أن يواجه كل ذلك وأن يُخرج هذه الأسئلة إلى النور، وأن يدعو ـ بشجاعة دفع ثمنها غاليا ـ مجتمع الرجال الصغار لمواجهة حقيقته المريرة، لعله يتعلم في المستقبل كيف لا يقوم بتسليم نفسه لأصحاب المصالح الذين سيظلون صغارا حقراء وإن احتلوا أكبر المناصب وأخطرها.

(٤)

مع أن قراءة ما يكتبه عالم النفس الألماني «فيلهلم رايش» في كتابه الشهير «خطاب إلى الرجل الصغير» ليست من القراءات التي تجلب السرور وتبعث على الحبور، لكنها يمكن ـ مع بعض التحايل على النفس ومحايلتها ـ أن تحمل لك في الوقت نفسه بارقة أمل، حين تدرك أن ما نعيشه في أوطاننا من واقع متعفن، عاشته من قبلنا شعوب أصبحت متقدمة، لكنها لم تصل إلى حلول للكثير من مشاكلها إلا بعد أن اكتوت أولا بنيران عدة كان من بينها نيران الفاشية التي لم تتخلص منها إلا بعد أن دفعت ثمنا غاليا لا نتمناه لشعوبنا، وبغض النظر عما إذا كنت ممن يعتقدون أن دفع ذلك الثمن الباهظ أمر حتمي لحدوث أي تقدم، أو إذا كنت ممن يعتقدون ـ أو يتمنون ـ بإمكانية التعلم من تجارب الآخرين دون تكرار أخطائهم، ففي الحالتين ستجد الأمل يخايلك وأنت تقرأ صرخات «فيلهلم رايش» الانفعالية الحزينة في مواطنيه من الرجال الصغار، حين تتذكر أن ذلك الواقع الكابوسي أصبح جزءا من الماضي البغيض الذي لم يعد يحلم بعودته في تلك الأوطان إلا الحمقى والمرضى، وأن صرخات «رايش» التي كان يظنها كثير من معاصريه صرخات بائسة ستذهب أدراج الرياح، لم تذهب سدى بل بقيت حتى عصرنا هذا ملهمة، بل وصالحة لأن نصرخ بها في وجوه رجال أوطاننا الصغار، لعلهم يفيقون قبل فوات الأوان.

لم يخاطب «فيلهلم رايش» كل رجل صغير في زمانه وزماننا بتعالٍ أو باحتقار، بقدر ما كان يبحث في ثنايا خطابه الانفعالي عن توصيف دقيق لمشكلة هذا الرجل الصغير التي تجعله يتسبب في تعاسته وتخلف وطنه، وهو يظن أنه يحسن صنعًا. لم ينكر «رايش» على الرجل الصغير قدرته على أن يعيش لحظات كبيرة إذا أراد ذلك، بل وأقرّ له بأنه يمكن أن يعرف الارتقاء والسمو، لكن مشكلته أنه لا يملك طول النَّفَس الذي يجعله يحافظ على ارتقائه ويستمر في سموه، ولذلك يصرخ «رايش» في مواطنه الصغير بمزيج مركب من المشاعر: «إنني أريدك أن تتوقف عن الوجود كرجل صغير، أن تصبح أنت، أقول لك: أن تصبح أنت، وليس كما تريدك الجريدة

التي تقرؤها، أو جارك السيئ الذي تصغي إليه، ولكن أن تكون أنت... إنك تتسول السعادة في الحياة ولكن الأمن أهم بالنسبة لك، حتى لو كلفك ذلك عمودك الفقري، حتى لو كلفك حياتك كلها، ولأنك لم تتعلم يوما كيف تخلق السعادة، كيف تتمتع بها، وكيف تحافظ عليها، لا تعرف شجاعة الصمود.. إنك تخطئ دائمًا التفكير وبشكل حتمي كلما فكرت بالحقيقي والجوهري، مثل رجل خبيث يصوب دائمًا بالذخيرة الحية وبطريقة خاطئة نحو الهدف».
وفي موضع آخر يتأمل «رايش» ما قام به من مجهودات كمثقف في جعل حياة مواطنيه أفضل، لكنه في نفس الوقت يحاول فهم سر فشل تلك المجهودات، معترفا بخيبة أمل أن الرجل الصغير فشل في إدراك الارتباط الحتمي بين الحرية وتطوير الاقتصاد، مؤكدا أنه يؤمن بأهمية تطوير الاقتصاد إذا ما أراد الرجل الصغير أن يتمتع بحياته، لأن الجوعى لا يمكنهم تطوير الثقافة، لكن مشكلة الرجل الصغير أنه لم يدرك أن كل عوامل الحياة ضرورية وليس العوامل الاقتصادية فقط، وأن الاقتصاد لن يتطور إلا إذا تمكن الرجل الصغير من حماية نفسه ومجتمعه من الطغيان، وحين يفكر «رايش» لماذا حدث هذا، لا يجد أمامه في نوبة غضب إلا أن يعلن أنه أخطأ حين اعتقد بقدرة الرجل الصغير على تحرير نفسه ثم حماية حريته حين يحصل عليها، لكنه اكتشف في نهاية المطاف أن الرجل الصغير لم تعلق بذهنه من بين كل الكلمات التي قالها سوى كلمة واحدة هي: الدكتاتورية، في حين طرح جانبا كل ما قاله له من كلمات ومفاهيم مثل الحرية والشفافية والقضاء على العبودية الاقتصادية والاستمرار في تطوير منهجه في فهم الحياة، كل هذا طرحه الرجل الصغير ليؤمن بأن تطوير اقتصاده لن يتحقق إلا بتطبيق شيء واحد هو الدكتاتورية، ولذلك وافق على صناعة «نظام عملاق من الكذب، المطاردة، السجن، التعذيب، الجلد، البوليس السري، التجسس، الغرور، سلاطة اللسان، المارشات والأوسمة»، متخيلا أنه لو ظل صغيرا إلى الأبد فسيحصل على السعادة، دون أن يدري أنه بموافقته على ذلك يجْهز تمامًا على فرصته في السعادة.

(٥)

حين يصف «فيلهلم رايش» سلوك مواطنيه الصغار تجاه كل من يحاول أن يقول لهم أفكارا مختلفة عما يرون أنه الأسلم والأصوب، تشعر بذلك الأسى المختلط ببارقة الأمل الذي حدثتك عنه، حين تكتشف أنه يصف ما يحدث في زماننا بحذافيره، انظر إليه وهو يقول مخاطبا رجل زمانه الصغير: «أنت تهرب من الحقيقة أيها الرجل الصغير، لأنه بإمكان الحقيقة أن توقظ الإحساس بالحب في داخلك، لكنك لا تريد ذلك، تريد فقط أن تظل مستهلكا ووطنيا، تصرخ: «اسمعوا، اسمعوا، إنه ينكر الوطنية، حصن الدولة المنيع وخليتها التي هي العائلة ولا بد من القيام بشيء ضده»، هكذا تصرخ إذا ما ذكّرك المرء بانغلاقك الروحي، إنك لا تريد أن تعرف أو تسمع ذلك، تريد فقط أن تصرخ أو تهتف، إني أتركك تصرخ لكنك لا تتركني أقول لك لماذا أنت عاجز عن العيش في سعادة؟ إني أرى الخوف يشتعل في عينيك، ذلك أن سؤالي يصيبك في الصميم، أنت مع «التسامح الديني»، تريد أن تكون حرا وأن تحب ديانتك، إنه شيء جيد وجميل، لكنك تريد أكثر من ذلك، إنك تريد أن تقيم الصلاة فقط كما بيّنها دينك، إنك متسامح تجاه دينك، ولكن ليس تجاه الديانات الأخرى. لا أحد أيها الرجل الصغير أخبرك لماذا لم تحقق حريتك حتى الآن، ولماذا إذا حدث وامتلكتها سرعان ما تتنازل عنها إلى سيد جديد. تصرخ: «اسمعوا، اسمعوا، إن نفسه تسول له الشك بالثورة، بالديمقراطية، لتسقط الثورة والثورة المضادة، لتسقط لتسقط، ليسقط، إنه يوسخ شرف الأمة، ليسقط، أعدموه بالرصاص»، اهدأ قليلا أيها الزعيم الصغير، صراخك هذا لن يقربك خطوة من هدفك، أيها الرجل الصغير، إنك تعتقد لحد الآن بأن حريتك في مأمن إذا ما

أعدمت الآخرين، فلتنظر مرة واحدة إلى المرآة... تصرخ: «ليسقط»، توقف أيها الرجل الصغير، إنني لا أريد الانتقاص من قدرك، أريد فقط أن أوضح لك لماذا لم تحصل لحد الآن على حريتك، ألا يهمك هذا الأمر؟ أنت تفهم الوقاحة كحرية، كان ذلك دائمًا علامة العبيد، وتمتنع استنادا إلى حريتك تلك عن إرسال تقارير حول عملك، ذلك أنك تحس نفسك حرا من التعاون والمسئولية، ولهذا أنت كما أنت أيها الرجل الصغير، والعالم هو، هو».

وحين يتأمل «فيلهلم رايش» الموقف العدائي لمجتمع الرجال الصغار بالأفكار الجديدة والآراء المختلفة، ويستعيد ما تعرض له من اضطهاد شديد بسبب أفكاره المختلفة الجامحة، يتوصل إلى أن مجتمع الرجال يرحب أحيانًا بأن يكون هناك عباقرة مختلفون عنه، لكنه يريدهم دائمًا «عباقرة طيبين على مقاسه وغير مثيرين للقلاقل، باختصار عبقري ملائم ومتكيف وليس متمردا وغير قابل للتدجين ليس ثائرا على كل القيود والحواجز، عبقري محدود مختصر مشذب مرتب، يمكن للمجتمع أن يخرج به دون أن يحمر خجلا في مواكب النصر السائرة في شوارع المدينة»، ولذلك لا يتسامح هذا المجتمع مع كل من يقول له أفكارا تربكه وتختلف معه وتقلق راحته، ويسعى لسحقهم حفاظا على شرفه الوطني، وحين يقول له هؤلاء «الرجال الوحيدون» ـ كما يصفهم «رايش» ـ ما يجب فعله، يقوم بتدميرهم ويصر على الإمساك بالخطأ الصغير، لا الحقيقة الكبيرة، ولذلك كما يقول «رايش» مخاطبا مواطنه الصغير: «ما زال بيتك يرتفع فوق الرمل وما زال سقفه يتساقط فوق الرأس، ولكن بالطبع فإن ما يهمك هو شرفك الوطني، تغوص أقدامك في الوحل، تهوي أرضا لكنك لا تتوقف عن الصراخ بحياة الزعيم وبشرف الأمة، ماسورة الماء تتحطم وطفلك مهدد بالغرق، لكنك ما زلت تؤمن بالعقوبة والنظام مستعملا العصا في تلقينهما لطفلك».

وفي مواجهة تلك الصرخات البائسة بحياة الزعيم، يصرخ «رايش» في وجه مجتمعه بعزم ما فيه، مطالبا إياه بأن يضحي بأوهامه من أجل قطعة صغيرة من الحقيقة، أن يمسك مصيره بقبضته ويبني حياته على الصخر، أن يخلق قانونا يحمي الحياة وما عليها، أن يفكر بطريقة سليمة، وألا يسلم حياته لأحد آخر، خصوصًا لزعمائه، وأن يدرك أن الوعي الذاتي أفضل من الوعي القومي، وأن التواضع أفضل من فم مليء بالشعارات القومية أو أي نوع من أنواع الصراخ، لكنه يدرك أن صرخته تلك لن تجد آذانا مصغية وسط ضجيج صراخ الزعماء، وأن مجتمعه سيظل يرفع ويمجد زعيما بعد آخر، وسيظل يسفك الدماء في الوقت الذي يتوجب فيه صون الحياة، فلا يملك إلا أن يواصل صرخته الحزينة في وجه الرجل الصغير: «سوف تعتقد أنه بمساعدة جلاديك ستحقق الحرية وستجد نفسك دائمًا غارقا في الوحل، سوف تعدو عبر القرون خلف زعمائك المأخوذين بجنون العظمة وتتقوت على كلماتهم المغرية، وأمام الحياة التي تناديك وتصرخ بك، ستظل أعمى، أصمّ، ذلك أنك تشعر بالخوف من الحياة الحية، سوف تقتلها ظنا منك أن تبني الدولة أو الشرف القومي أو شرف الرب، شيء واحد لن تعرفه ولن تطلب معرفته: أنك أنت وحدك مَن خلق هذا البؤس، كل ساعة، كل يوم دون توقف، إنك لا تفهم أطفالك، فأنت تحطم عمودهم الفقري، بدل أن تزرع فيهم الشجاعة وروح الإقدام، إنك تسرق الحب، إنك لا تحب سوى المال وتدمن على السلطة، وإنك لتحتفظ بكلبك، فقط لكي تقنع نفسك بأنك أنت الآخر «سيد»».

(٦)

لم يبالِ «فيلهلم رايش» بإمكانية أن يذهب صوته أدراج الرياح، ولم يلتفت إلى طلبات الكثيرين منه أن يسكت لكي لا يفسد بهجة الإجماع التي يشعر بها الرأي العام، بل على العكس تمامًا وقف

بكل شجاعة محذرا رجال وطنه الصغار بألا يدعوا الإجماع يخدعهم عن حقيقة المصير المفزع الذي يقذفون ببلادهم إليه، قائلا لهم: «الأهداف الكبيرة لا يمكن أن تحققها الوسائل الوضيعة، إن وضاعة ولا إنسانية الوسيلة تجعلك حقيرا ولا إنسانيا، وتجعل من الهدف أمرا مستحيلا، إن تفكيرك قصير النظر أيها الرجل الصغير... إنك لا تذكر الأشياء التي وقعت منذ عشر أو عشرين سنة، ولهذا السبب تُكرر نفس الأخطاء التي اقترفتها منذ ألفَي سنة، وتستمر متمسكا بتفاهاتك: «العِرْق»، «الطبقة»، «الأمة»، القهر الديني وحظر الحب، مثلما تتمسك قملة بفرو، كما أنك لا تملك شجاعة ملاحظة كيف أنت غارق إلى الأعماق في مستنقع البؤس، أحيانًا ترفع رأسك إلى خارج المستنقع لكي تصرخ بحياة الزعيم، نقيق الضفادع في الوحل أقرب منك إلى الحياة... إنني لا أستطيع تحريرك من وسخك، أنت وحدك من يستطيع ذلك، إدمانك على التصفيق، تحررك من المسئولية، باختصار: مرضك كله الذي ينتن هذا العالم الجميل، أعرف بأنك لا تحب سماع هذا وتفضل الصراخ بحياة الزعيم... ما تسميه رأيًا عامًّا أيها الرجل الصغير، هو حاصل آراء صغار الرجال والنساء، كل رجل صغير له في داخله رأي صحيح وآخر خاطئ، وكل امرأة صغيرة، والآراء الخاطئة ناتجة عن الخوف من الآراء الخاطئة الأخرى للرجال والنساء الصغار الآخرين، لهذا لا تظهر الآراء الصحيحة».

يتخيل «فيلهلم رايش» أنه وجد بين الرجال الصغار من يتأثر بتحذيراته، وأن ذلك المواطن سأله عما يمكن عليه أن يفعله لكي لا يظل سائرا في قطيع الرجال الصغار الذين يتم استغلالهم لضمان مصالح «الرجال الصغار ـ الكبار»، فيطمئن «رايش» هذا الرجل الصغير بأنه لا يطلب منه القيام بشيء خارق للعادة، لا يريده رجلا كبيرا، لا يريده خارقا ولا بطلا ولا شهيدا ولا معارضا مضحيا بحياته، وكل ما يطلبه منه ألا يسارع لتنفيذ ما يقوله له الماريشال فلان أو الأمير فلان، بل أن يواصل عمله الذي يقوم به، أن يزرع حقله، يلوح بمطرقته، يعالج مرضاه، يأخذ أطفاله إلى اللعب والمدرسة، ليس عليه أكثر من أن يستمر بعمله الذي يقوم به، ويحافظ على نمو أطفاله في سعادة ويحب زوجته في الليل، مؤكدًا له أنه لو قام بذلك بوعي ورباطة جأش لما تدهورت أحواله، وأنه لو عرف نفسه جيدًا وكوَّن رأيا خاصا به، وعرف أنه يجب أن يخدم الحياة لا الموت، لكانت حياته أفضل، يريده فقط أن يدرك أنه لا يحتاج إلى أن يصرخ دائمًا «نعم نعم نعم» لكل جنرال أو ماريشال أو أمير، وألا يترك هؤلاء يدوسون وعيه ويمنعونه من أن يكون هو سيد نفسه والمتحكم في مصيره، لكي لا يكون نهبًا لاستغلالهم له.

(٧)

في ختام خطابه الطويل المرير الملهم، لا يصرخ «فيلهلم رايش» في وجه الرجل الصغير، بقدر ما يخاطبه بحب وإشفاق ورجاء، ليثير شجنك وأساك أن تتذكر أن ما كان يرجوه من مواطنه، هو بالضبط ما ترجوه من مواطن مجتمعك لا أكثر ولا أقل: «أيها الرجل الصغير، إن الأمر مرتبط بك من البداية وحتى النهاية، هل يتوجب عليك أن تزحف مع الزاحفين إلى الحرب، هل تعرف أنك تعمل من أجل الحياة وليس من أجل الموت، هل تعرف أن كل الرجال الصغار على هذه الأرض يشبهونك أيضًا في السراء والضراء؟ كل شيء مرتبط بك، سوف تتوقف يوما في المستقبل القريب أو البعيد عن الصراخ بنعم نعم نعم، لن تترك حقلك ومصنعك هدفا للمدافع، سوف تتوقف عن العمل من أجل الموت ولن تعمل إلا من أجل الحياة. إن حياتك ستصبح جيدة وآمنة إذا كان ما هو حي بداخلك أهم بالنسبة لك من الأمن، وإذا كان الحب أهم بالنسبة لك من المال وحريتك أكثر من مجرد رأي حزبي أو عام، وإذا ما أصبح فكرك في انسجام مع أحاسيسك

وليس في تناقض، وإذا ما أدركت مواهبك في الوقت المناسب وشيخوختك أيضًا في الوقت المناسب وإذا ما بدأت تعيش أفكار الحكماء الكبار وليس جرائم المحاربين الكبار، وإذا ما جازيت أساتذة أطفالك أكثر من سياسييك، وإذا ما أدركت خطأ أفكارك في الوقت المناسب وليس متأخرا، وإذا ما أحسست بالسمو عند سماع الحقائق والفزع عند سماع الترهات، وإذا ما جعلك الحب الذي تحس به ابنتك تهتز طربا وليس غضبا، وإذا ما اشتعلت وجوه الناس في الشوارع بالحرية والحركة والصفاء وليس بالحزن والبؤس كما هو الحال في أيامنا هذه».

يا ليت قومي يعلمون.

ومن النفاق ما قتل

يروي أستاذ الصحافة الراحل الدكتور «إبراهيم عبده» في كتابه المهم «ومن النفاق ما قتل» واقعة حدثت قبل وقت قصير من مقتل السادات، مفادها أن «جورج بوش»، الذي كان وقتها نائب الرئيس الأمريكي «رونالد ريجان»، خطب في مأدبة أقامها للاحتفاء بالسادات خلال زيارته لواشنطن فقال: إن الله خلق العالم في ستة أيام، وكان يخلق كل يوم ملايين البشر وملايين الزواحف والأنعام، ثم خصص يوما لخلق السيد المسيح، وفي يومٍ خلق الرئيس السادات ولم يخلق في ذلك اليوم شيئًا آخر اكتفاءً بهذا العمل العظيم. وعندما انتهت الوليمة التفت الدكتور مصطفى محمود إلى رؤساء تحرير الصحف المصرية، وقال لهم إياكم أن ترسلوا بهذا القول إلى صحفكم فإنه سيقيم الدنيا ويقعدها، وعقبت السيدة أمينة السعيد بأن نشر عبارة «بوش» سوف يسيء إلى المسلمين والمسيحيين. وفي اليوم التالي استدعى السادات رؤساء التحرير بَاسِم الثغر منشرح الصدر، وسألهم هل استوعبوا ما قاله «بوش»، فتبرع منافق منهم بضرب مهموز في أمينة السعيد قائلا إنها نصحت بعدم إرسال ما قاله «بوش» لصحفهم، ليؤكد الجميع أنهم خالفوا نصيحتها وأرسلوا نص ما قاله، لينظر السادات شزرا إلى أمينة السعيد دون أن يقول لها شيئًا لحبه لها، لكنه حملها في داخله مسئولية نشر ذلك الكلام التافه الذي قاله عنه «جورج بوش» برغم أنه لو نشر لكان قد أضر السادات ولم ينفعه.

يقول الدكتور إبراهيم عبده راويًا واقعة أخرى: «عندما قال السادات في خطبة ألقاها بمناسبة تأسيس جامعة الشعوب العربية والإسلامية إن رفاعة الطهطاوي قاد الجماهير لمحاربة الولاة والخديويين، فكتبت للرئيس رسالة أنبه إلى أن الرجل نشأ وعاش ومات في حجر السلطة، وأنه كان رجل علم، ولم تكن هناك صحف تصل بينه وبين جماهير المصريين، حتى يشتغل هو أو غيره من الأعلام بالشئون السياسية. ومن طريف ما حدث أن الرئيس بعث برسالتي إلى كاتب خطبته، ويبدو أن كاتب الخطبة كان قد استعان بصديق في كتابتها فطلب إليه أن يرد على رسالتي، وإذا بي أقرأ من غير مناسبة مقالة عن الطهطاوي في إحدى صحف الحكومة في ٩ ديسمبر ١٩٨٠ يحدثنا فيها كاتبها أن الطهطاوي ترجم دستور ١٨٦٦ وأنه أول من ذكر في كتبه لفظ «الوطنية» و«الأمة» وبذلك يكون الرجل زعيما سياسيا، مع أن كلمة الأمة ذكرها الله تعالى حين قال للمسلمين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، واستعمل المؤرخون كلمة الوطنية والوطن قبل أن يولد الطهطاوي بقرون. وهكذا صوروا للرئيس رحمه الله أن الطهطاوي الذي ترجم الدستور، بأمر من الخديوي إسماعيل، زعيم سياسي يقف على قدم المساواة مع مصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس».

ويضيف قائلا: «من الخطب التي وضعت للرئيس وألقاها في مجلس الشعب في نوفمبر ١٩٨٠ خطبة جاء في فقرة منها أن الحقوق التاريخية لعروبة القدس «لا يمكن تجاهلها» وأنه تحدث في هذا الأمر مع بيجين، وقال له: «إن الأب إسطفانوس رفض تسليم القدس إلا للخليفة عمر بن الخطاب، وكان ذلك بعد الحروب الصليبية» ومعنى ذلك أن القدس سُلمت لعمر بن الخطاب بعد وفاته بنحو ثمانمائة عام! أما في خطبته الأخيرة فقد ظهر جهل مُعدّي خطبه بالتاريخ حين كرر السادات ست مرات، أن نوبار باشا ولي الحكم بعد سعد زغلول سنة ١٩٢٤، بينما نوبار باشا هذا مات قبل استقالة سعد زغلول، والذي ولي الوزارة بعد سعد هو زيور باشا. ومن النفاق الحقير أن

صحفيا مرموقا اتصل بالرقيب الخفي الذي لا يعلن عنه، وبين له وجه الحق في المسألة ليصدر أوامره لتصحح الصحف اسم الرجل الذي جاء في الوزارة بعد سعد زغلول، ولم يكتفِ بهذا الصحفي المرموق بل اتصل بالصحف نفسها، ولما كان الجبن سيد أخلاق المنافقين فإن رؤساء الصحف لم يجرءوا على تصحيح الواقعة حتى لا يغضب السلطان، وصدرت الصحف جميعا في اليوم التالي، إلا الأخبار، وفيها أن نوبار باشا الذي مات في القرن التاسع عشر جاء رئيسا للوزارة بعد سعد زغلول سنة ١٩٢٤».

يقول الدكتور إبراهيم عبده معلقا على كل هذه الوقائع التي لا تشكل سوى قطرة في بحر النفاق الذي أغرقنا عبر السنين:

«صدقوني، ما من أحد في العالم يلقى هذا النفاق ويعيش وسط هذا الرياء، ويقرأ ويسمع كل يوم وكل ساعة ولحظة أنه منزه ولا يخطئ، وأنه والأنبياء على قدم المساواة، وأن قوله لا يأتيه الباطل أبدًا، وأن في مقدوره أن يرحم أو لا يرحم، وأن في استطاعته أن يرمي ببعض خصومه من رجال الدين في السجون كالكلاب. ما من أحد في العالم يحاط بكل هذا النفاق ويبقى على طبعه الأصيل، فلا بد أن تغره الدنيا، ولا يقبل نقدا لسلطانه أو تصويبا لبيانه، فمن المسئول عن هذا كله؟ إنه النفاق الذي مهد لكل بلاء أصابنا أو أصاب السلطان».

فاعتبروا يا أولي الألباب.

سفاح الجيل..
أو تأملات في ظاهرة الولع بالطاغية

(١)

«هو الولع بالبطش ولا شيء سواه، والأمل في أن يواصل الرجل إسكات كل صوت مختلف حتى يأتي اليوم الذي لا يجد هؤلاء في مصر صوتا مختلفا يقض مضاجعهم، فتعود مصر عندها إلى زمن العفن الستينياتي الصامت الجميل»، هكذا قلت لصديق سألني عن تفسيري لظاهرة الهوس بالسيسي، أو «السيسيمانيا» التي يرى صديقي أنها انتشرت بين النساء، أكثر من الرجال، وهو ما خالفته فيه، لأن قمع نظام السيسي لم يفرق بين رجل وامرأة، كما أن النضال ضد قمعه لم يفرق أيضًا بين رجل وامرأة، بل لعلك تجد لبعض النساء مواقف مشرفة ضد قمع النظام، أكثر من بعض «ذكوره» الذين يؤمنون أن الرجولة هز أكتاف.

لكن ذلك كله، لا ينفي أن هناك أغلبية عددية للسيدات بين جمهور السيسي، وهو أمر لم ينكره السيسي نفسه، بل وحرص على توظيفه في مناسبات عديدة، وكان قد سبقه إلى ذلك «زميله الكبير» «أدولف هتلر» حين أطلق عبارته الشهيرة: «في السياسة يجب الحصول على دعم النساء، أما الرجال فسيتبعونكم لوحدهم»، ولذلك لم ترَ الكثير من نساء ألمانيا في «هتلر» أضحوكة مزعجة وعابرة كما كان يعتقد المتفائلون، بل اعتبرته نساء كثيرات: «الرجل المرسل من السماء، الرجل الكامل الأسمى»، وهو ما يرويه كتاب «نساء الطغاة» للكاتبة الفرنسية «ديان دوكريه»، الذي يكشف أن «هتلر» تسلم رسائل من معجبات مفتونات، أكثر من فرقة البيتلز ونجم الروك «ميك جاجر» مجتمعين، وأن أغلبها كان رسائل حميمية، برغم أنه «يصعب تخيل ذلك الدكتاتور ذي الشارب القصير رمزا لفتى أحلام حميمة»، وحتى حين تأكدت سمعة «هتلر» الدموية، وأصبحت أنباء محارقه على كل لسان، لم تنفر معجباته منه، بل ارتفع عدد الرسائل الغرامية التي تلقاها، ليفوق عددها العشرة آلاف رسالة في سنة ١٩٤١، بعد أن كان عددها يبلغ ٣ آلاف رسالة في مطلع ١٩٣٣، وقد وجد الدارسون للرسائل التي تم حفظها في أرشيف خاص، أنه لا توجد بين آلاف الرسائل، ولو حتى رسالة واحدة تحتوي على انتقادات أو لوم.

إذا ظننت أن هذا الولع بالقتل، كان ابن ذلك العصر المضطرب الذي مضى وولّى، فدعني أخبرك عن تقرير شاهدته على قناة «السي إن إن» مؤخرًا، يتحدث عن ظاهرة الافتتان بالقتلة التي تشهدها السجون الأمريكية، والتي تفجر الحديث عنها عقب هروب قاتلين من السجن، بمعونة سيدة أحبت أحدهما وانبهرت بجرائمه، وعرض التقرير نماذج لنساء مضطربات عاطفيا، وقعن في غرام قتلة ارتكبوا جرائم بشعة، من بينها قتل نساء وأطفال، وهو ما فسرته خبيرة نفسية درست الظاهرة، بأن فعل القتل إذا كان بشعا ومتعمدا، يُكسب القاتل سلطة معنوية مبهرة، لدى الشخصيات المضطربة التي تعتقد أن القتل فعل قوة، بدليل أن إحدى السيدات اللواتي وقعن في غرام قاتل تسلسلي، بدأت بعد فترة في تقليد جرائمه، لتجرب مشاعر النشوة التي يشعر بها حين يقتل، وهو ما أفضى بها إلى حكم بالسجن لعشرين عامًا، ليذكرني ذلك بما نقله العظيم «ممدوح عدوان»، عن «ويليام وودز» مؤلف كتاب «تاريخ الشيطان»، الذي قال إن الرجل القادر على سفك الدماء بسهولة كان ـ في كل مراحل التاريخ ـ يجتذب النساء عاطفيا، أكثر بكثير مما يجذبهن الرجل المسالم.

في تحليلها للرسائل الغرامية التي تلقاها «هتلر» و«موسوليني»، تتساءل «ديان دوكريه» عن أسباب الغواية بهما، التي وقع فيها نساء مثقفات مستقلات، مستبعِدة تفسير ذلك فقط ببراعة الطاغية في التظاهر بالوداعة، أو ظهوره بمظهر الخطيب العظيم القوي الأنيق، فتجد نفسك بعدها تتساءل عن سر الغواية التي أوقعت في غرام السيسي وتأييد حكمه، مثقفين ومثقفات لديهم دراية واسعة بالتاريخ، وأيضًا معرفة يقينية بالجرائم التي ترتكبها أجهزة أمن السيسي ليل نهار، ومع ذلك لا يكفّون عن تبرير تلك الجرائم، وتحليل تصريحات السيسي المضحكة كأنها نصوص باطنية للإمام محيي الدين بن عربي، ومن يدري فربما كان بعضهم يرسل إلى السيسي رسائل محبة سرية، قد يتاح لنا أن نقرأها يومًا ما.

(٢)

«يربط بين الطاغية ومحبيه نوع من الشهوة»، هكذا تقول الكاتبة «ديان دوكريه» بعد دراستها للمراسلات الحميمة التي تلقاها «هتلر» من مواطناته المعجبات، مضيفة أن: «السلطة في الأنظمة المستبدة تقوم على طاقة الدكتاتور في الإغواء وليس فقط الإكراه»، وهو ما يفسر لنا كيف يرى الكثيرون في الحاكم القاتل رمز غواية، ليس لأنه جميل المُحيا أو بهيّ الطلعة، بل لأنه يحقق لهم أحلامهم المريضة في قتل وقمع من يكرهون.

في عام ١٩٣٥ أرسلت سيدة إلى «هتلر» قائلة إن كبرى أمنياتها أن تنام معه فقط لكي تنجب منه طفلا، وبعدها بثلاثة أعوام أرسلت إليه ثلاث نساء من جنوبيّ برلين معبرات عن اضطرابهن الشديد منذ لمحنه بالمصادفة في أحد شوارع برلين، ومع نهاية الثلاثينيات وتصاعد جنون «هتلر» وبطشه، بدأت حميمية الرسائل في التصاعد، فأرسلت له مثلا من الإسكندرية البارونة «ألزاهاغن فون كيلفاين»: «أتمنى أحيانًا لو أموت وصورتك أمامي، لكي لا أبصر بعد ذلك أي شيء غيرك، إنني أكتب إلى الرجل الذي أهوى، وسأتبع حتى نهاية حياتي»، وقررت سيدة اسمها «ريتشي» إطلاق اسم دلع على «هتلر»: «عزيزي إدي قبلاتي الحارة لك يا وحشي المفترس»، وأرسلت أخرى من برلين: «عزيزي أدولف اللذيذ، أتأمل دائمًا في صور لك وأضعها أمامي، ثم أقبّلها، نعم نعم يا حبي يا حبيبي يا أدولفي الرائع، أرجح أنك استلمت اليوم الطرد وفيه قرص الحلوى وأنه طاب لك أيضًا، فما أرسلته لك إلا عن حب، آلاف القبلات من عزيزتك المخلصة ميل»، وكانت سيدة قبلها قد أرسلت له عسلا ليدفئه في الشتاء.

مع مرور الوقت، نفد صبر بعض معجبات «هتلر»، فقررن عدم انتظار رأيه في الزواج منهن، وأرسلن له عقود زواج، على أمل أن تُعاد إليهن وثائق الزواج وهي تحمل توقيع «الزوج الحبيب أدولف»، وفي حين يئست بعضهن فتوقفن عن مراسلة «هتلر»، سنجد حالة فريدة لـ«داغمار راسل»، التي استمرت تبعث برسائل حماسية مطولة، يعادل مجموعها ٢٥٠ صفحة، كانت أولاها عام ١٩٤٠ في الذكرى العشرين لتأسيس الحزب النازي، جاء في إحداها ما يمكن تشبيهه بأسماء «هتلر» الحسنى: «أنت الرجل الذي أحببته حبا جمًّا، الأشرف والأعظم والأبدع، الذي لا مثيل له والعبقري، المرسل من الله، المقدس، المتوج والمحبوب من الله، رسول السلام السماوي، المنفذ للمشيئة الإلهية على الأرض، الجندي الأول والقائد الأعلى لهذا الجيش الرائع، الخبير الاستراتيجي الذي يفوق كل من سبقه في التاريخ عبقرية وهيبة، رئيس الدولة النابغة الأكبر، الألماني الأعظم، من أجلك فقط أعمل، من أجل حبك المرح ستبتهج روحي إلى الأبد». في حين أرسلت أخريات معبرات عن رغبتهن في حضنه الدافئ، مع إمطاره بحكايات عن تفاصيل حياتهن اليومية، في إحدى تلك الرسائل، تقول له إحداهن: «بات زوجي كالغريب بالنسبة لي، لا أرى إلا أن أكون إلا

لك»، وهو ما تربطه كاتبة «نساء الطغاة» بدراسة نفسية عنوانها: «الأحلام في عهد الرايخ الثالث»، كشفت عن زيادة الأحلام الجنسية التي ترويها المريضات لأطبائهن النفسيين، والتي يلعب بطولتها «هتلر»، الذي يظهر في حلم إحدى المؤمنات به، يوزع منشورا نازيا بيد، ويداعبها باليد الأخرى.
من ناحيته، لم يكن «هتلر» سعيدًا بآلاف الرسائل التي تأتيه من نساء كان يعتبرهن «بلا حياء»، لكنه كان يقر بأهمية هذه المراسلات، ويعتبرها مقياسا للرأي العام، ولذلك كان يطلع دائمًا على مضمون الآلاف من تلك الرسائل، بعد أن يلخصها له «رودلف هس» المسئول عن المراسلات حتى ١٩٣١، ثم خليفته «ألبرت بورمان»، لكن التعامل مع تلك الرسائل كان يخضع لمزاج الزعيم وحالته النفسية، إذ إنه مرة قرأ قصيدة أرسلتها له سيدة تقول فيها: «العالم كله يصرخ عاش «هتلر»، البطل العظيم المحبوب، وفاؤك وفاؤنا، لنحمده معًا، لنرفع سواعدنا»، فأمر بإرسال خطاب لها يمنعها من نشر هذه القصيدة على الملأ، بدعوى أن «القائد يرفض أي شكل من أشكال التمجيد لشخصه»، ولكي يسيطر على أي تداعيات قد تنتج عن تلك الرسائل، أمر الضباط الذين يفحصونها بإبلاغ سلطات الأمن عن أي رسالة تطلب صاحبتها المجيء إلى برلين لتقبيل قائدها ومعشوقها، ليتم تحذيرها بأن القائد لن يورط نفسه في أي علاقة خاصة، فتتوقف عند الحد الذي يرغب فيه القائد، الذي لا يريد عشيقات ينام معهن، بقدر ما يريد مفتونات تُسبحن بحمده، وتبطشن إذا لزم الأمر من أجله، وتبلغن عن أعدائه، وترقصن أمام اللجان تأييدا له. لكن طاغية آخر مثل «موسوليني» لم يكتفِ بذلك، بل طمع في المزيد.

(٣)

«قويّ يمتطي جوادًا، منتصبٌ أنوف، له وجهٌ شهم منحوتٌ، وعينان مشرقتان واسعتان بنظرة آمرة، وجبين نيِّر عريض كجبين النابغة، إنه الدوتشي»، لا شيء سوى الافتتان بالقتل والقمع هو الذي يجعل شابة تكتب قصيدة غزلية كهذه، وترسلها إلى «موسوليني»، الذي لو رأته بجوارها في الأتوبيس لاعتبرت إطالته النظر إليها وقاحة لا تليق بعجوز متصابٍ، وربما لو كان «موسوليني» سياسيا حصيفا وقورا، لكان جُلّ ما يحصل عليه من اهتمامها، نظرة عابرة إلى صورته في صحيفة الصباح.
تكشف «ديان دوكريه» أن الدكتاتور الإيطالي كان يتلقى من نساء شعبه، ما بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ رسالة شهريا، يتم إيداعها في أمانة سر الدوتشي الخاصة، بعضها مكتوبة على أوراق منتزعة من دفاتر وضيعة، وبعضها على بطاقات ثمينة من صنع اليد، فقد حظي الدوتشي بمعجبات في أوساط النبيلات وبنات العائلات والفلاحات والراهبات والعاهرات أيضًا، وعلى عكس «هتلر»، كان «موسوليني» مولعًا بتلك الرسائل الغرامية الحميمة، وكان يرد عليها بحميمية مماثلة، بل إنه دعا عددا من المرسِلات المتحمسات إلى زيارته في قصر البندقية، ليتاح لهن التعرف عليه بشكل أوثق، وتلبية الرغبات الحميمة لبعضهن، وفي حين كانت أي بادرة نقدٍ علني للدوتشي تجر الويلات على صاحبها، كان «موسوليني» يتقبل من الإيطاليات فقط اللوم على سياساته. كان ضعفه العاطفي يجعله يقبل من النساء الحب والغضب وخيبة الأمل أيضًا، في حين لم يكن يقبل من الرجال سوى الحب والولاء غير المنقوصَين.
يمكن أن تأخذ فكرة عن حجم التشوش الذي أحدثته السياسة الفاشية في عقول الناس، في ظل حكم «موسوليني»، حين تقرأ رسالة أرسلَتها إلى «موسوليني» في ٨ مايو ١٩٣٦، شابة من فلورنسا اسمها «مارغريتا»، حيث حكت له أنها تناولت في ذات اليوم القربان المقدس للمرة الأولى، وأنها

تخيلت أن زعيمها المحبوب هو المسيح: «يا لها من أنانية، أن أتقبلك أنت والمسيح في الوقت نفسه، أن تدخل إلى فمي، أن أجعلك على صدري، أن ترقد على قلبي المسكين، كم كنت أشتهي ذلك». في عام ١٩٤٠ ترسل إليه شابة في سن العشرين، لتخبره أنها ستتكلل بعد شهرين، وأنها تود أن تأتي إلى روما ليتاح لها رؤيته «لكن بما أني لا أستطيع المجيء، فإني أرسل لك مسكّراتي، وأطلب منك على الأقل كلمة تعطيني الشجاعة لأستهل حياتي الجديدة التي أريدها أن تليق بامرأة فاشية»، و«موسوليني» كتب بيده ملاحظة على رسالتها تفيد أن علبة الملبّس التي أرسلتها فارغة، لتكون الملاحظة بمثابة أمر بالتحقيق، فيمن سرق الملبّس الذي أرسلته الشابة الفاشية اليانعة، وهي على أي حال لم تكن ملاحظة استثنائية، لأن «موسوليني» كما كشفت دراسة مراسلاته، كان يهتم جدًّا بالهدايا التي تصله من معجباته، في حين لم يكن يستسيغ الطلبات الملحة التي ترسلها نساء يطلبن معونة مالية، أو تدخلا لحل مشاكلهن العائلية التي يتجاهلها مسئولو دولته.
حين سألت ممثلة مسرحية «موسوليني» ذات يوم، عن سر محبة الإيطاليين الجارفة له، قال لها عبارة كان يكررها كثيرًا: «لأنهم يعلمون أني أنظر إليهم، يعلمون أني أحب وطني، لا يُحكم المرء إلا بالحب». كان «موسوليني» يدرك أنه لم يكن يتوجه إلى شعب، بل إلى جمهور، لكنه لم يكن يقول بالطبع لجمهوره تلك الجملة التي كتبها ذات يوم «الجمهور كما النساء، وُجد ليُغتصب»، ومع أنه حكم شعبا كان يعج بالمثقفين والمتعلمين، إلا أن قدرته على مخاطبة غرائز الجموع الحاشدة جلبت له افتتان بعض المثقفين قبل الجهلة. خذ نموذجا على ذلك الكاتبة «مرغريتا فازيني» التي تقول إن «موسوليني» ورث عن «نابليون» قدرته على فتنة الجماهير والنساء «اللاتي تجذبهن دائمًا القوة متى ما كانت ساحرة، عند الرجال على الأقل، فالجمهور أيضًا أنثوي، وهو كالمرأة، يعرف كيف يميز الرجل الحقيقي»، وهي كلمات لم يكن ينقصها إلا عبارات من نوعية «يا دكري»، أو «نساؤنا حبلى بنجمك».
على عكس «هتلر»، عاش «موسوليني» حياة جنسية حافلة، مع الكثير من معجباته، ليقضي مع بعضهن سنوات، ومع بعضهن ساعات، لكنه حين حلت ساعة النهاية، بعد هزيمة نظامه الفاشي، لم يبق معه إلا واحدة منهن، هي «كلارا» التي كانت سعيدة أنها تبعته حتى آخر لحظة، لكنه لم يكن سعيدا بصحبتها، حين تمت تصفيته على أيدي الذين ضبطوه، وهو يحاول الهروب متنكرا في ملابس جندي ألماني، ليلقى مصيره المحتوم وحيدا، دون أن يصحبه الملايين الذين صدَّقوا أكاذيبه، ولا النساء اللواتي وقعن في غرامه، فلم يكن بصحبته لحظة النهاية سوى الأوهام.

(٤)

لكن غرام الطاغية بنسائه، يبقى أمرا يخصه ويخصهن، على عكس الغرام الشعبي بالطاغية، الذي يتجاوز كونه غراما بشخص، ليصبح غراما بقدرة الطاغية على سفك الدماء وقمع الآراء المختلفة، وهو ما ينتج أثرا مدمرا، يستمر لفترة تطول أو تقصر، حسب قدرة الشعوب على مراجعة نفسها، وتجنبها تكرار أخطاء الماضي المؤلمة.
في كتابه المهم «حيونة الإنسان»، يناقش الكاتب السوري الكبير ممدوح عدوان فكرة استغلال الأنظمة الاستبدادية لغريزة القتل لدى الإنسان، بدءًا من العصور القديمة التي كان الحكام يستغلون فيها مشاهد سفك الدماء في حلبات المصارعة الرومانية، لكي يثيروا في الناس شهوات عارمة، كانت تؤدي إلى عربدة جنسية عفوية في بعض الأحيان. في زمن لاحق يصف لنا كتاب «التعذيب عبر العصور» نقلا عن الدوق «دوريشلو» عملية حرق شخص أدانته محكمة تفتيش إسبانية، فيقول إن رائحة اللحم المشوي كانت شديدة حتى ملأت جو المحكمة كله، وجعلت الجمهور يثار

بشدة بالعرض الوحشي الذي يجري أمامهم، وفي حين كان البعض يتساءلون متى سيكف هذا التعيس البائس عن التخبط وهو يتلظى في لهيب النار؟ كان آخرون قد انتشوا إلى درجة أنهم بدءوا يتضاجعون على الأرصفة.

لم يعد لممارسات كهذه مكان في زماننا الذي يتخفى القمع فيه خلف أقنعة الدين والأخلاق، لكن النشوة الجماعية بالقتل لا زالت قائمة، وإن اختلفت مظاهرها ووسائل التعبير عنها، ولعلك رأيتها مثلا في ردود الأفعال الحماسية التي أعقبت مذبحة رابعة، حيث سادت مصر حالة من الجنون الجماعي، دفعت كثيرًا من المصريين إلى أفعال غريبة، لا تتناسب مع احترام قدسية الموت، فالذين قُتلوا في رابعة بالنسبة لهؤلاء، لم يكونوا بشرا عاديين، بل كانوا وحوشًا تهددهم بالذبح وخراب الديار، ولذلك قابلوا قتلهم بالفرحة والابتهاج، دون إدراك لأن أي أخطاء ارتكبها هؤلاء، لا تبرر أبدًا قتلهم، ودون تفكير ولو حتى من باب المصلحة العامة، في آثار هذا القتل على استقرار البلاد، وأنه سيستخدم مستقبلا لتبرير قتل ضباط وجنود وقضاة، والحشد لقتل سياسيين وإعلاميين وعسكريين، دون التعامل معهم أنهم بشر يستحقون الحياة، وأن أخطاءهم تستحق المحاكمة العادلة لا التصفية الجسدية، وأن النظام سيستخدم ذلك كله، لتبرير ما قام به من قتل، ولاستخدام كل تلك الدماء في إشاعة مناخ من الخوف، يجعل الملايين يفكرون تحت وطأة الخوف بغرائزهم وليس بعقولهم، وليصبح لدينا كما يقول ممدوح عدوان «حيوانات ضارية حاكمة تستمتع بقتل حيوانات مذعورة، وحيوانات تستمتع بقتل حيوانات أخرى، أو بالفرجة على قتل الحيوانات الأخرى وتعذيبها».

ستجد توظيف حب الشعب للطاغية في تبرير القتل، أمرا مشتركا بين كافة الأنظمة القمعية، وستجد نتائجه في إثارة غرائز الشعوب مدهشة ومؤلمة وكارثية في نهاية المطاف، لكن أحدا لا يتعلم للأسف، لأن شهوة القتل تعمي وتُصم عن قراءة دروس التاريخ، فالحاكم القاتل لا يهمه بالطبع أن يتطور البشر، ولا حتى أن يظلوا بشرا، بل يريد كما ينبهنا ممدوح عدوان أن يُحول شعبه إلى نمطين من الحيوانات: الأرانب أو الفئران المذعورة التي يتم تصنيعها على أيدي حيوانات أخرى هي الذئاب الشرهة للدم، فيصبح الناس في ظل الحاكم القاتل نوعين: «أناس عبارة عن جلود، وآخرون عبارة عن سياط. ويعيش الطرفان من دون إرادة أو حرية أو كرامة»، ويصبح بقاء الحاكم القاتل على الكرسي فترة طويلة، متوقفا على مهارته في إدارة الصراع بين الطرفين، وفي إلقاء الكم اللازم من الفُتات للأطراف التي يحتاج إلى دعمها، حتى لا تنفجر غاضبة فتطيح به من على كرسي الحكم.

حين نرى في ظل ظروف كهذه أناسًا كنا نظنهم طيبين، يتطوعون بتبرير القتل والقمع، ينبهنا العلم إلى خطأ الافتراض الدائم بأن الإنسان الطيب يظل دائمًا طيبا، وينبهنا أيضًا إلى آلية الإزاحة التي تجعل بعض الناس «الطيبين» يشاركون أحيانًا في ارتكاب المجازر، فضلا عن تبريرها، لأنهم يزيحون مسئولية ما جرى إلى السلطة، التي تقول لهم إنها تحمي الوطن وتحفظه من الضياع، لكن السلطة لا تنجح في ذلك إلا إذا أقنعت أولا من يشاركها في جرائمها، بأن ضحايا تلك الجرائم مجردون من الإنسانية، حتى تضمن عدم تسرب مشاعر الشفقة إليهم، والجميع ينسى أنك حين تفقد الإنسانية في التعامل مع خصومك، تأذن لهم بالتحول إلى حيوانات متوحشة، وحينها تبدأ الأطراف الأضعف في افتراس بعضها، ويظل الحاكم آمنا، إلى حين ينفجر الوطن بكل من فيه، وعلى كل من فيه، أنصارا كانوا أم خصوما، جلادين كانوا أم ضحايا.

«وأنْ ليس للإنسانِ إلا ما سعى».

حين قصفت إسرائيل قصر الملك فاروق
بمساعدة من المراقبة الجوية المصرية

مع أن الفيلم الذي سأحدثك عنه تدور أحداثه في عام ١٩٤٨ الشهير في تاريخنا العربي الحديث بوصفه «عام النكبة»، إلا أنني ظللت أثناء مشاهدته أفكر في أيامنا هذه التي يعلو فيها ذكر تنظيم «داعش» وأفعاله الإرهابية، خاصة أن الميديا الغربية كانت في نفس وقت عرض الفيلم ـ نهاية عام ٢٠١٤ ـ تموج بتحقيقات وتقارير ترصد ظاهرة سفر عدد من المواطنين المسلمين الغربيين الذين ولدوا وتربوا وعاشوا في الدول الغربية، ثم فوجئ بهم أهلهم وقد سافروا للالتحاق بداعش تحت شعار نصرة الدين الإسلامي، مما جعلني أسأل: كيف سيكون رد فعل تلك الميديا، لو تم إنتاج فيلم مشابه للفيلم الذي أراه، يمجد أولئك الذين يحاربون في بلاد غريبة عنهم بزعم نصرة دينهم، ويصور قيامهم بقتل المدنيين وإرهابهم بوصفه بطولة خارقة؟ ولم أكن بحاجة لإجابة عن سؤالي، فأنا وأنت نعرف الإجابة جيدًا.

الفيلم الذي عرضه مهرجان نيويورك الدولي للأفلام الوثائقية، وأخرجته المخرجة الأمريكية «روبرتا جروسمان»، يحمل عنوان «Above and Beyond»، ويكشف لأول مرة بشكل علني وموثق بالصوت والصورة، دورا خطيرا قام به مجموعة من الطيارين الأمريكيين اليهود الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية، ثم عادوا إلى بلادهم حيث تم تسريحهم من الخدمة، لكنهم بعد أن تم اندلاع حرب ١٩٤٨ التي أعقبت إعلان دولة إسرائيل وشاركت فيها عدة جيوش عربية، وتحت تأثير الخوف من تكرار تجربة الهولوكوست التي كانت لا تزال حاضرة في الأذهان بقوة، قرروا أن ينضموا إلى تشكيل سري لمساعدة إسرائيل على إنشاء سلاح للقوات الجوية دعمه عدد من رجال الأعمال الصهاينة المقيمين في نيويورك، لتتم عملية جمع تبرعات ضخمة في الخفاء، تم بعدها شراء عدد من الطائرات الأمريكية التي شاركت في الحرب العالمية الثانية، ثم تم تكهينها بعد الحرب، وأصبحت تباع للراغبين في الاقتناء من الأثرياء، دون أن يخطر على بال السلطات أنها يمكن أن تستخدم لأغراض حربية، وربما ساعدت أجواء الهدوء التي كانت تعم أمريكا بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية على أن يتم كل ذلك في هدوء تام، خاصة أن عملية تجنيد الطيارين كانت تتم في سرية تامة، لأن القوانين الأمريكية وقتها كانت تُسقط الجنسية عن أي مواطن أمريكي ينضم إلى أي جيش سواءً كان لدولة صديقة أم دولة معادية، طالما لم يتم ذلك بتكليف من قيادته العسكرية. أما الطائرات المشتراة نفسها فلم ينتبه أحد إليها، بعد أن تم تفكيكها ووضعها في طائرات شحن سافرت بها خارج البلاد دون أن يلفت ذلك نظر أحد، وإن كان قد تم فيما بعد اكتشاف طائرة من هذه الطائرات خلال توقفها للتزود بالوقود في البرتغال، وقامت الحكومة الأمريكية بطلب رسمي لاسترجاعها، وتعاونت معها السلطات البرتغالية لكنها احتجزت الطائرة لديها.

لم يكن عدد هؤلاء الطيارين اليهود كبيرًا، ولم يكونوا جميعا منتمين إلى الفكر الصهيوني، بل إن أحدهم ـ والذي أصبح بعد ذلك كاتب سيناريو شهيرًا في هوليود ـ يعترف خلال شهادته في الفيلم أنه لم يكن متدينا أصلا، وأن ما دفعه للانضمام إلى التشكيل السري هو أنه وجد في فكرة أن يعود للطيران الحربي أمرًا يشبع رغبته في العودة للقتال ويعيده إلى أجمل أيام عمره، ولذلك لم يخجل من الاعتراف أنه وزملاءه عاشوا ليالي حمراء صاخبة خلال محطات توقفهم في رحلة تهريب الطائرات إلى إسرائيل التي كانت لا تزال دولة وليدة وقتها، وهي رحلة طويلة وخبيثة التخطيط

بدأت من لوس أنجلوس بالولايات المتحدة، ثم إلى بنما ثم إلى البرازيل ثم إلى روما، التي كانت أشد محطات رحلة الطيارين مجونا وإثارة، وبعدها تواصلت الرحلة إلى تشيكوسلوفاكيا، التي تم فيها إدخال تعديلات فنية على الطائرات واستبدال بعض معداتها المتهالكة بقطع غيار جديدة، حتى لو لم تكن متوافقة تمامًا معها، وبدأ الطيارون يتلقون هناك تدريبات مكثفة على الطائرات المعدلة، لينضم إليهم طيارون يهود من جنوبيّ إفريقيا وكندا أيضًا، ويبدأ بذلك تشكيل أول وحدة لسلاح الجو الإسرائيلي، كان من رؤسائها الطيار «عيزرا فايتسمان» الذي أصبح رئيسا لإسرائيل بعد ذلك.
حين حمي وطيس الحرب أكثر، وبدا أن الجيوش العربية بدأت تحقق تقدما في الزحف نحو تل أبيب، تلقى الطيارون نداءات من القيادة العسكرية الإسرائيلية تدعوهم إلى تقصير مدة التدريبات، والإسراع بإحضار الطائرات للانضمام بها إلى المعركة، وهو ما كان يشكل مخاطرة غير محسوبة، ساعد القادة العسكريون الإسرائيليون في حسمها حين تم إطلاع الطيارين على نماذج لما تقوله الصحف والإذاعات العربية، من أنها حين تدخل تل أبيب لن تترك يهوديا إلا وقتلته، وأنها لن تكرر هذه المرة خطأ «هتلر» بترك بعض اليهود أحياء، ليتوجه الطيارون بطائراتهم القديمة المجمعة إلى أرض الدولة الوليدة لإنقاذ «بني قومهم»، ليظهر أثر عامل الشحن الديني جليا، حين يقول أحد الطيارين وهو يغالب دموعه بعد كل هذه السنوات، إنه حين رأى أرض إسرائيل وهو يتوجه نحوها بالطائرة، شعر أنه رأى هذه الأرض من قبل في التوراة. وأخذ يبكي لأنه أدرك أنه يؤدي واجبا مقدسا لإنقاذ بني وطنه، ولم يعد يفكر في أي خطورة يمكن أن تلحق به.
بعد فترة وجيزة من وصول الطائرات، بدا أن قادة إسرائيل كانوا محقين تمامًا في استقدام الطائرات للاشتراك في الحرب بأي شكل، لأن موازين الحرب انقلبت بفعل عامل المباغتة الذي تعرضت له الجيوش العربية بتعرضها لقصف الطيران الإسرائيلي الذي لم تكن تعلم بوجوده أصلا، وبدلا من أن تصل القوات المصرية الضخمة إلى تل أبيب لسحق مركز قيادة الدولة الوليدة، تعرضت هذه القوات للقصف المركّز من أربع طائرات إسرائيلية فقط، ليتوقف زحفها على تل أبيب، وتكون تلك الضربة كما يدّعي الفيلم سببا في طلب القوات العربية للهدنة الأولى في الحرب، مما أكسب القوات الإسرائيلية دفعة معنوية مذهلة، خصوصًا أن تل أبيب كانت تتعرض منذ بدء الحرب لقصف مكثف من الطيران المصري، كان يحدث خسائر فادحة في الأرواح والمنشآت، خاصة أنه كان يقصف المنازل ومحطات النقل العام أيضًا، فيزيد من مخاوف الرأي العام الإسرائيلي الذي يعتبر دولة إسرائيل فرصته الأخيرة في البقاء، ولذلك كان سكان تل أبيب وغيرها من المدن الإسرائيلية يبتهجون حين تمر طائراتهم في السماء، لتشعرهم أنهم أصبحوا يمتلكون الآن قوة جوية كالتي يمتلكها أعداؤهم العرب. لكن أحدا لم يقل لهم في وسائل الإعلام الإسرائيلية إن من يقودون هذه الطائرات ليسوا من أبناء إسرائيل أصلا، وهو ما نتج عنه موقف شديد الدلالة يرويه أحد الطيارين في الفيلم، حيث يحكي كيف سقطت طائرته خلال اشتباك مع بعض الطائرات الأردنية، فنزل بالباراشوت على أرض كان يحسبها أرضا عربية، فأعد نفسه للقتال حتى آخر رمق، ليفاجأ بمجموعة من الفلاحين يقتربون نحوه وهم يصيحون بالعِبرية، فيكتشف أنهم إسرائيليون، لكنهم حين يجدونه غريبا، يظنونه عربيا ويهمون بالفتك به دون أن يعلموا أنه قدم لنصرتهم، ولأنه لا يعرف الحديث بالعِبرية، يبدأ في تذكر كل الكلمات العِبرية البسيطة التي كان يسمعها من أفراد أسرته الذين كانوا من يهود أوربا المهاجرين إلى أمريكا، ومن بينها أسماء أكلات يهودية شهيرة، ويبدأ في ترديد تلك الكلمات بشكل سريع هستيري قبل أن يفتكوا

به، ليلفت ذلك انتباه المهاجمين له فيبدءوا في استيضاح الأمر حتى يكتشفوا أنه طيار في سلاح الجو الإسرائيلي، ليتعاملوا معه كبطل، ويساعدوه على العودة إلى القاعدة الجوية من جديد.
في موضع آخر يكشف الفيلم واقعة شديدة الخطورة قام بها سلاح الجو الإسرائيلي الناشئ، وهي تستحق بالفعل وصفها بأنها «واقعة» لأنها وقعت عليّ كالصاعقة وأنا أشاهد الفيلم، ولولا أن الفيلم عَرض نتائجها بشرائط مستمدة من الأرشيف البريطاني، لتشككت في حدوثها، خصوصًا أنها واقعة ليست مشهورة في الأدبيات التاريخية التي وثّقت لحرب ١٩٤٨ من وجهة النظر العربية، ولذلك قلت لنفسي حين رأيتها: ربما تاهت عني في الكتب التي قرأتها عن حرب ٤٨. ثم مِلت على الصديق حسام بهجت الذي كان يشاهد الفيلم معي، لأكتشف أنه يسمع عن الواقعة لأول مرة، واتفقنا بعد الفيلم أن يسأل كل منا أصدقاؤه إذا كان قد سمع عن هذه الواقعة أم لا، لنكتشف أن قليلين من بين كل أصدقائنا من الكُتاب والصحفيين هم الذين يعرفون هذه الواقعة، وحتى هؤلاء مرت عليهم خلال قراءتهم لمصادر أجنبية فقط.
الواقعة التي يرويها الفيلم هي أن سلاح الجو الإسرائيلي كان قد تعاقد على شراء طائرات مقاتلة بريطانية من طراز «بي ١٧» كانت أيضًا من المقاتلات التي شاركت في الحرب العالمية الثانية، وكان لها سمعة مشرِّفة خلال أدائها في الحرب، وبعد أن تم شراء الطائرات وبدأ التحضير لاستقدامها إلى إسرائيل، كانت الهدنة كما يروي الفيلم قد تم خرقها من الجانب المصري الذي عاد ليقاتل بشراسة لكي يثأر للضربة التي فاجأته، وعادت الضربات الجوية المصرية لتضرب قلب تل أبيب بقوة. قرر قادة سلاح الجو الإسرائيلي أن يقوموا بإدخالها في القتال مباشرة، خصوصًا أن إمكانياتها القتالية كانت أفضل من إمكانيات الطائرات السابقة، ويعرض الفيلم بالتحديد لتفاصيل طلعة جوية كان هدفها الدخول إلى المجال الجوي المصري ومحاولة التسلل إلى القاهرة لقصفها، ولم يصدق قائد الطائرة نفسه حين وجد نفسه يصل ليلا إلى أطراف القاهرة دون أن يعترضه أحد، وحين اقتربت طائرته من القاهرة أكثر والتقطها الرادار المصري، تلقى إشارة لاسلكية من المراقبة الجوية لمطار القاهرة تطلب من الطائرة الإبلاغ عن هويتها، فيقوم الطيار بالتصرف السريع ويدّعي أنها طائرة تجارية تريد المساعدة على الهبوط في مطار القاهرة، فتقوم السلطات الجوية كما يروي الفيلم بمساعدة قائد الطائرة بمده بإرشادات تسهل مروره، لتقوم الطائرة بقصف قصر الملك فاروق، ويعرض الفيلم صورًا أرشيفية بريطانية لآثار ذلك القصف المدمرة. وحين أمعنت النظر في الصور، لم أجدها مشابهة لمنطقة عابدين، لأخمن أن القصف ربما كان في منطقة مجاورة لقصر الطاهرة.
حين عُدت إلى البيت بعد مشاهدة الفيلم، هرعت إلى شبكة الإنترنت متمنيا أن أجد تكذيبا لما شاهدته في الفيلم، وكالعادة لم أجد مصادر بالعربية تروي الواقعة، لكنني وجدت تأكيدات عليه في مصادر غربية متعددة تحدّث بعضها عن قصف قصر الملك فاروق بالتحديد وليس فقط قصف المنطقة المجاورة له. منها مثلا خبر نشرته صحيفة «نيويورك تايمز» بتاريخ ١٦ يولية ١٩٤٨، وفي الخبر عرْض موجز لبيان لوزارة الدفاع المصرية، لا تشير فيه الوزارة بالطبع إلى أنها تعاونت مع الطائرة القادمة، بل وساعدتها على بلوغ هدفها، بل يكتفي بيان الوزارة بتأكيد وقوع هجوم على القاهرة من قِبل طائرة ما ألقت بعض القنابل، دون أن تحدد جنسية الطائرة، لكن خبر الـ«نيويورك تايمز» ينقل عن وكالة «يونايتد برس» أن تل أبيب أكدت هجومها الجوي الأول على القاهرة، كما أضافت أن طائرتين أخريين قامتا بقصف الحدود المصرية، وأن الطائرات الثلاث عادت إلى قواعدها سالمة، وهو ما لم تتم الإشارة إليه في الفيلم، حيث تم الاقتصار على

ذكر تفجير القاهرة وأنه وقع من طائرة واحدة، ربما لأن الفيلم التقى بالطيار الذي نفذ تفجير القاهرة، ولم يلتقِ بالطيارين الآخرين، لكن خبر الـ «نيويورك تايمز» ـ بالإضافة إلى عدد من المصادر المتاحة على شبكة الإنترنت ـ يؤكد وجود هجمات جوية إسرائيلية وقعت في نفس التوقيت على العاصمة السورية دمشق ومناطق سورية أخرى والعاصمة الأردنية عمان، وهو ما لا يشير إليه الفيلم الذي يتحدث فقط عن هجمات استهدفت القوات العراقية والسورية والأردنية والمصرية داخل فلسطين، لكن الفيلم يعترف في نفس الوقت بخسائر تعرضت لها بعض الطائرات الإسرائيلية أدت إلى مقتل بعض الطيارين الذين برغم ما قدموه من تضحيات جسيمة لإسرائيل لم يتم تكريمهم علنًا.

ومع أن دور الطيارين اليهود القادمين من أمريكا وغيرها كان هو العامل الحاسم في تحقيق إسرائيل لنصر غير متوقع ضد الجيوش العربية التي زحفت عليها في حرب ١٩٤٨، إلا أن إسرائيل خلال احتفالاتها بالنصر، لم تعلن عن هذا الدور الخطير، وحرصت على إبقائه طي الكتمان لسنوات طويلة، ليس لأنها مثلا كانت حريصة على ألا يتم اعتقال الطيارين حين عودتهم إلى بلادهم التي تمنع قوانينها الالتحاق بجيوش دول أجنبية، ولكن لأن إسرائيل شعرت كما يكشف الفيلم، أن حالة النشوة بالانتصار ستبوخ إذا عرف الرأي العام أن النصر تحقق بسواعد أجنبية، حتى لو كانت يهودية، وأن من المصلحة العامة أن يظن المواطن الإسرائيلي أن دولته الناشئة تمتلك سلاحا جويا صاعدا تمكن من دحر الأعداء العرب، حتى إن أول رئيس لدولة إسرائيل «ديفيد بن جوريون» حين تحدث مشيدًا بدورهم، لم يذكر تفاصيل عنهم، لكنه قال إن فرقة الطيارين تلك، والتي أطلق عليها اسم «المخالب»، كانت هدية يهود الشتات من أجل إنشاء دولة إسرائيل.

لكن كل الطيارين الذين التقى بهم الفيلم، وبعضهم مات قبل أن يكتمل إنتاجه، لم يكونوا مستائين من ذلك التجاهل، بل كانوا متفهمين تمامًا لأسباب تكريمهم في السر، لأنهم ذهبوا إلى تلك المهمة باقتناع كامل واستعداد للتضحية بحياتهم، ولذلك فقد ظلوا طيلة عمرهم منتشين بذكريات انتصارهم الساحق على القوات العربية التي كانت تمتلك من خلال وسائل إعلامها صورة متضخمة غير متسقة مع واقعها الهزيل.

في لقاءاته مع خمسة من الطيارين الذين شاركوا في العمليات وهم «ليون فرانكيل»- «هارولد ليفينجستون»- «جورج ليختر»- «كولمان جولدشتين»- «ليو لينارت»، يقدم الفيلم صورة مهمة للطريقة التي تم بها إعداد الطيارين نفسيا لكي يشتركوا في هذه المهمة في وقت قصير، ليكشف الطيارون أن إسرائيل لم تنتظر قيام الحرب عليها لكي تلجأ إلى استقدام الطيارين، بل خططت لذلك قبل أن يعلن «بن جوريون» قرار إنشاء دولة إسرائيل، لأن قيام العرب بمحاربتها كان متوقعا، ولذلك فقد لجأت إلى فكرة الاستعانة بالطيارين اليهود المتقاعدين أينما تيسر الوصول إليهم، ومع أن حياة هؤلاء كانت رغيدة ومتيسرة في ذلك الوقت، إلا أنهم لم يترددوا في تلبية الدعوات التي وجهت لكل منهم على حدة في سرية تامة، وطُلب من كل منهم أن يحضر معهم أوراقا رسمية تثبت كونه طيارا حربيا في السابق، ليتجمع الفوج الأول في فندق في نيويورك ويتم إبلاغهم بفكرة المهمة التي تم استقدامهم من أجلها.

تجاوب الجميع مع العرض، لكن كل طيار منهم كان له مدخله للاقتناع: «ليون فرانكيل» قال إنه لم يكن ليسامح نفسه لو تباطأ عن إنقاذ بني دينه، وإنه لن يترك أحدا يمنعه من ذلك. «هارولد ليفينجستون» الأقل تدينا قال إنه وجد إثارة شديدة في فكرة أن يقوم اليهود بالقتال بعد أن ظلوا

مقموعين دائمًا، في حين قال «كولمان جولدشتين» إن ما جعله يحسم قراره بالمشاركة هو ما سمعه من كلام يتردد نسبة إلى المسئولين العرب عما سيفعلونه باليهود في حالة انتصارهم في الحرب، فيما تحدث «جورج ليختر» و«ليو لينارت» عن شعورهما بأن سلاح الطيران سيكون السبيل الوحيد لكسر التفوق العددي الساحق للجيوش العربية، خصوصًا أنها كانت قد سبقت بتشكيل أسلحة للقتال الجوي لم تكن تمتلكها إسرائيل؛ ولذلك قرر الجميع المشاركة، حتى وهم يعلمون أنهم سيحاربون بطائرات متهالكة، بعضها تم تهريبه من أمريكا، وبعضها تم شراؤه من مخلفات سلاح الجو الألماني التي تركها الألمان بعد هزيمتهم مستقرة على أرضيات مطارات تشيكوسلوفاكيا.
يروي «ليون فرانكيل» أنه حين بدأت التدريبات على ركوب الطائرات قبل سفرها إلى إسرائيل، وجد نفسه في أول جلسة تدريب يدخل طائرة ألمانية، وهو يرتدي بدلة طيران رسمية ألمانية وخوذة كانت لطيار ألماني وباراشوت ألماني، وكانت تلك مفارقة بالنسبة له كيهودي قتل الألمان أهله في جحيم الهولوكوست، ومع أن العدو هذه المرة كان مختلفا، إلا أن شبح الهولوكوست ووقائع المعاناة اليهودية كانت حاضرة في وجدانهم بقوة، لدرجة أنهم جميعا وهم يتحدثون عن مشاركتهم في المعارك، يقولون إنهم كانوا يتخيلون مشاهد أفران الغاز ويستحضرون قصص معاناة اليهود عبر العصور، مما جعلهم يؤدون حركات خطيرة أثناء ضربهم للقوات البرية المصرية، لدرجة أن أحدهم يروي بفخر شديد كيف قام بأداء حركة قتالية خطيرة قلب فيها الطائرة رأسًا على عقب، لمجرد أن تصويبه للنيران في هذه الحركة سيؤدي لإيقاع خسائر أكبر، دون أن يفكر في خطورة ذلك على حياته، ولتكتمل فرحتهم وفخرهم بما فعلوه، حين يرون كيف ازداد توافد المهاجرين اليهود من أوربا على إسرائيل بعد انتصارها في الحرب، وكيف أخذ المهاجرون يُقبلون أرض دولتهم الجديدة، ليشعر الطيارون أنهم أدوا ما عليهم من دَيْن تجاه أولئك الذين عانوا من النازية والفاشية، ولم يتمكنوا فقط من فرض واقع جديد يخلق مستقبلا أفضل لأبناء وطنهم، بل وتمكنوا من الانتقام من الماضي الكريه أيضًا، حتى إن «هارولد ليفينجستون» الذي اعترف أنه لم يكن متدينا، والذي عاد بعد انتهاء المهمة إلى أمريكا حيث عمل كاتب سيناريو في هوليوود، يعتبر أنه فعل عملا طيبا لأول وآخر مرة في حياته، وأن هذا جعله يعيش راضيا طيلة عمره. ولك أن تتخيل كيف كانت مشاعر زملائه المتدينين الذين قالوا إنهم بكوا حين رأوا أرض الميعاد من الجو.
تم تصوير الفيلم في إسرائيل والولايات المتحدة وإنجلترا، وقد تم إعادة تصوير مشاهد قتال الطائرات التي يتضمنها بشكل متقن، باستخدام طائرات من نفس الموديل، تم تصويرها وهي تقوم بطلعات جوية فعلية، ثم تم تركيب تلك المشاهد باستخدام المؤثرات الخاصة، لتظهرها في مشاهد الاشتباكات مع الطائرات الأردنية والسورية والمصرية، ومزج تلك المشاهد بأصوات الطيارين الحقيقيين وهم يتحدثون عن ذكريات تلك الطلعات الجوية التي فقدوا فيها بعض زملائهم، بالإضافة إلى مؤرخ يتحدث عن الخلفية العسكرية لحرب ١٩٤٨ من وجهة نظر منحازة لإسرائيل بالطبع، فيما حرص الفيلم على استضافة القيادي الإسرائيلي الشهير «شيمون بيريز» الذي كان لا يزال رئيسا لإسرائيل وقت تصويره مع الفيلم، ليكتمل بظهوره الطابع الدعائي الصهيوني للفيلم، الذي يتوجه لجمهور يعرفه جيدا، وليبدو الفيلم متسقا مع قيام الحكومة الإسرائيلية بإقرار قانون «إسرائيل ـ دولة القومية للشعب اليهودي» لتقديمه إلى الكنيست الإسرائيلي، لتأكيد الطابع والهوية اليهودية للدولة، لاستخدام ذلك في تمرير المزيد من القوانين العنصرية والتمييزية ضد العرب الفلسطينيين الذين رضوا بالهَمّ، واختاروا حمل جنسيتها بدلا من التشرد في المنافي.

شاهدت الفيلم وسط جمهور يدرك رسالة الفيلم جيدًا ويحتفي بها ولا يجد فيها أي غضاضة، لو كنت حضرت عرضه معي في تلك القاعة المكتظة عن آخرها، لشاهدت كيف تشهق بعض المتفرجات استياءً حين يقول الفيلم إن أحد الطيارين الأمريكان المشاركين في تلك الحرب تم اعتقاله بعد عودته إلى أمريكا لأنه خالف القانون، وقضى عقوبة السجن لمدة سنوات، وكيف عبّرن عن غضبهن من ذلك بوصفه عارًا على الولايات المتحدة، دون حتى أن يشفع لحكامها أنهم لم يدخروا وسعا بعد ذلك في دعم إسرائيل بجسر جوي في حرب ١٩٧٣ كان له أبلغ الأثر في تغيير نتائج الحرب، وهو ما عرض له فيلم إسرائيلي وثائقي آخر، هو فيلم «رؤساء الوزراء»، ولكنت قد شاهدت كيف تعاملت قاعة العرض باحتفاء غير عادي مع منتجة الفيلم «نانسي سبيلبيرج» التي لم تقم مندوبة المهرجان بتوجيه أي أسئلة نقدية لها تتضمن ملاحظات على الفيلم، بل قامت باحتضانها بحرارة شديدة، ليتحول اللقاء القصير الذي تم عقده مع المنتجة عقب عرض الفيلم إلى لقاء احتفالي، زاده حرارة وجود طيار عجوز من الذين شاركوا في الحرب، والذي حضر مستندا على أبنائه وأحفاده، وصفق له الجمهور بحفاوة شديدة، لأقول مازحا لحسام بهجت، وقد بدا جليا لمن حولنا أننا الوحيدان اللذان لم نصفق طيلة الوقت، إنني لم أكن أتصور أنني سأعيش مشاعر رأفت الهجان في مشهد الرقص الشهير الذي يجسد فيه محمود عبد العزيز باقتدار مشاعر الهجان المتضاربة عقب إعلان خبر نصر إسرائيل في ١٩٦٧.

أصبح قديما وبايخا ومهينا، عندما نتحدث عن أعمال فنية تناصر المشروع الصهيوني بقوة، أن نسأل عما فعلناه نحن كعرب، بكل ما نملكه من وزارات إعلام تستخدم المليارات المرصودة في ميزانيتها لنشر الكذب والدجل والنفاق والانحطاط، فمشكلتنا للأسف صارت أعمق من مجرد أن نقوم بإنتاج أعمال فنية تتحدث عن بطولات مقاتلينا في الحروب التي قمنا بخوضها مع إسرائيل، لأننا نحتاج أصلا إلى أن نعرف ما الذي حدث فعلا لنا ولقواتنا المسلحة في كل حروبنا مع إسرائيل، فلا يمكن أن تُبنى قراءة سليمة لمستقبل صراعنا مع إسرائيل، إلا على حقائق واضحة عن تاريخ صراعنا معها، وخذ عندك على سبيل المثال لا الحصر حرب ١٩٤٨ التي يتحدث عنها هذا الفيلم، والتي بقي منها في الوجدان العربي حقيقة رسّخت لها أجهزة إعلام ثورة يولية، وهي أن جيوشنا العربية كانت مستعدة لسحق إسرائيل بالكامل، لولا أنْ تآمر الملوك العرب الفسقة على الجيوش، واشتروا لها أسلحة فاسدة انفجرت في الجنود وهم يحاربون فخسرنا الحرب. مع أن كثيرًا من المؤرخين المرموقين ينفون أسطورة الأسلحة الفاسدة، وينفي آخرون أن يكون تأثيرها بالحجم الذي تم الحديث عنه، ويعتبرها هؤلاء وأولئك مجرد خبطة صحفية ناجحة قام بها إحسان عبد القدوس، واستثمرتها ثورة يولية عقب نشأتها لإضفاء مشروعية على توليها الحكم، قبل أن يتعرض إحسان نفسه للتنكيل لاحقا.

لا يتسع الوقت لاستعراض كل ما ثار من جدل حول هذه القضية، ولكن تكفي الإشارة إلى كتابَيْن صدرا منذ سنوات طويلة في سلسلة «تاريخ المصريين»، الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأول بعنوان «الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين» للدكتور عبد المنعم الجميعي، والثاني بعنوان «ثورة يوليو والحقيقة الغائبة» يقدم شهادات من اللواء مصطفى عبد المجيد نصير واللواء عبد الحميد كفافي واللواء سعد عبد الحفيظ والسفير جمال منصور. لكن تبقى المشكلة في وجود هذا الجدل مقتصرا على كتب الدراسات التاريخية التي لا يصل إليها إلا المتخصصون، وهو ما يجعل الصورة الشعبية السائدة عن حرب ١٩٤٨ وغيرها مشوشة وضبابية؛ ولذلك لم يكن مفاجئا حتى على من قرأ بعض الكتب عن حرب ١٩٤٨ مثل حالاتي، أن يفاجأ بحقيقة ضعف

وعدم كفاءة قواتنا المسلحة في ذلك الوقت، لدرجة تجعلها تتعاون بحُسن نية مع طائرة قادمة لضرب قلب العاصمة المصرية، ولأكتشف من خلال البحث فيما توفر من مصادر، أن هناك تعتيما شديدا على واقعة خطيرة مثل هذه، يكشف أن من تولوا وسائل الإعلام منذ ذلك الوقت، اعتبروا أن كتمان الحقيقة سيكون في مصلحة الشعب المصري، وهو ما تكرر بعدها في حرب ١٩٥٦ التي قررت وسائل الإعلام في لمح البصر أن تحولها من عدوان ثلاثي إلى نصر ساحق لعبد الناصر؛ ولذلك لم يكن غريبا أن نصل بعدها إلى هزيمة ١٩٦٧، ولا أن نعرف حتى الآن الصورة الكاملة لما حدث بعد العبور المجيد في ١٩٧٣ من تفريط سياسي أدى إلى أن تفقد مصر سيادتها الكاملة على سيناء.

يبقى مؤسفا في النهاية أن نتذكر أن إسرائيل قامت بالتعتيم على بطولات مَن استقدمتهم من طيارين يهود لمناصرتها، لكي تقوم برفع معنويات شعبها، ثم قررت في الوقت المناسب أن تقوم بإظهار هذا الدور والاحتفاء به. لكننا عندما نقوم بالتعتيم على هزائمنا وخسائرنا لا نفعل ذلك إلا لمساندة حكامنا ومساعدتهم على الإفلات من المسئولية أو حتى اللوم، وليظلوا في أذهاننا في صورة حُماة البلاد والمنتصرين للعباد. وفي الفرق بين الموقفين يكمن جوهر النكبة التي لم نفارقها منذ ١٩٤٨ حتى الآن.

عندما توقع عبد الناصر أن يشنقه المصريون في ميدان التحرير

هل كان قرار جمال عبد الناصر بالتنحي عن الحكم عقب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ مغامرة محسوبة، أم فيلما سياسيا كتبه محمد حسنين هيكل وتم تحضيره بالتنسيق مع قيادات الاتحاد الاشتراكي لإطلاق الشرارة الأولى للمظاهرات التي تطالب ببقاء عبد الناصر في الحكم، قبل أن تلحق بها جموع أكبر؟ وهل التفكير في ذلك تعسُّف يقف وراءه الكارهون لعبد الناصر؟ أليس منطقيا أن يرفض رحيل عبد الناصر، شعبُه الذي عاش لسنين مطمئنا بحتمية هزيمة إسرائيل وإلقائها في البحر، وحين وجد قائده يعلن مسئوليته عما حدث ويعلن تركه للمسئولية، شعر بأن القائد يتركه ليواجه مصيره الغامض، ولأنه لا يعرف غير هذا القائد، ولأن سنوات من التمجيد والتأليه وقتل الإرادة الفردية جعلت هذا الزعيم بمثابة الأب لشعبه؟ ألم يكن طبيعيا إذن أن يخرج الشعب ليطالب قائده وأباه بألا يتركه؟

من الطبيعي أن تتبادر إلى ذهنك هذه الأسئلة، وأنت تسترجع ما حدث في مصر يومَي ٩ و ١٠ يونية عام ١٩٦٧، ولعلك لن تفكر وأنت تسألها أنك ترتكب منكرا أو محرما، لكنني فوجئت حين سألتها قبل عشرين عامًا بأنها ليست أسئلة مقبولة أو مشروعة كما كنت أتصور، كان ذلك حين وجهت هذه الأسئلة في عام ١٩٩٧ إلى عدد من الساسة الكبار الذين شهدوا تلك الفترة، وكان بعضهم من صُنّاعها ورموزها، وكنت وقتها أقوم بتحقيق صحفي نشرته صحيفة «الدستور» في إصدارها القديم، كان يحمل سؤالا رئيسيا هو: هل كانت مظاهرات التنحي في أحسن الأحوال مغامرة محسوبة؟

أول من وجهت له أسئلتي كان السيد أمين هويدي الذي شغل منصب وزير الحربية ورئيس المخابرات في عهد عبد الناصر، والذي ظل لسنوات يكتب مقالا أسبوعيا في الصفحة الأخيرة من صحيفة «الأهالي»، حين كانت صحيفة وحين كان الحزب الذي يصدرها حزبا، وبرغم أنني كنت أحب أن أقرأ له كثيرًا مقالاته التحليلية الهادئة والمفيدة، إلا أنني فوجئت برد فعله الحاد بمجرد طرح السؤال، حيث قال لي غاضبا: «مجرد طرح هذا السؤال يعتبر مهزلة، أنا كنت شاهدا على ما حدث، أنا كنت أول واحد جنب الريس لما أعلن إنه هيتنحى، لكني أفضل أن يتركز جهدكم فيما نحن فيه الآن، أنتم جيل يهرب من الحاضر للماضي، وصحافة لا تريد أن تبصر الجماهير بحالها، بتخلوا الشعب يعيش في أحلام الماضي وغيبيات الماضي، وأنا لا يمكن أن أشترك في هذه المهزلة، ولو سمعت هذا السؤال في مجلس لن أرد». وطلب مني إنهاء المكالمة فورًا.

بعدها لم يكن انفعال الكاتب الكبير محمد عودة غريبا بالنسبة لي، فمحبة الرجل لعبد الناصر معروفة ومؤكدة، ولذلك بدأ إجابته بالقول منفعلا: «هذا على رأي أغنية عبد المطلب: «سؤال غريب ما أجاوبش عليه»، دي لا مؤاخذة قضية بيزنطية، والسؤال فيه إثارة، والمفروض أن تنشروا موضوعا مدعما بالوثائق يثبت أن هذا الخروج كان خروجا شعبيا صادقا»، قلت له: «ولذلك أسألك يا أستاذ عودة عشان تنورني بما لا أعرفه، إلا إذا كنت ترى أن السؤال حُرُم»، فهدأ انفعاله وأجاب عن سؤالي.

الكاتب الكبير سلامة أحمد سلامة اعتذر لأنه يعتقد أن السؤال شائك، وقال إنه يخشى أن يأتي رأيه انطباعيا، خاصة أنه كان وقت وقوع المظاهرات خارج مصر. الفريق محمد فوزي اعتذر بفيض من الأدب لظروف مرضه. الفريق سعد الدين الشاذلي والذي كنت قد وصلت إليه بصعوبة اعتذر

كذلك ولم تطل مكالمة التلفون أكثر من دقيقة. وحتى من توقعت أن يُدلوا بآرائهم بحماس، على الأقل بسبب عدائهم للفترة الناصرية اعتذروا عن الإجابة لأن السؤال شائك وسيثير حساسيات سياسية، وكان على رأس هؤلاء المستشار مأمون الهضيبي المتحدث الرسمي وقتها باسم جماعة الإخوان المسلمين، والذي قال باقتضاب بعد أن سمع السؤال: «دي حاجات تاريخية عاوزة بحث». قلت له: «يا فندم أنا أسألك عن الموقف السياسي للجماعة التي تتحدث باسمها، وليس عن تفاصيل الواقعة». رد باقتضاب أشد: «أنا مش عاوز أتدخل بشكل عام في سؤال خطير زي ده. شكرا. سلام عليكم». وأغلق السماعة، وكان واضحا أن اللسع من شوربة الصحافة، بعد واقعة حوار صحيفة «الأهرام ويكلي» الذي أعلن فيه مرشد الجماعة وقتها مصطفى مشهور رفضه لتجنيد الأقباط في الجيش، جعل الإخوان جميعا يقررون النفخ في الزبادي، حتى لو كان الحديث عن فترة مضت قادها رئيس يمقتونه.

أذكر يومها أن أحد الساسة الكبار بعد أن اعتذر عن الحديث، أصر على أن أعده بأنني لن أنشر، حتى إنه اعتذر عن الإجابة قائلا لي: «الكلام في موضوع زي ده بصراحة هيجيب وجع دماغ والواحد هيتشتم حتى لو قال إنه مش هيعلق، والحكاية مش ناقصة». قالها ضاحكا دون أن ينتبه إلى أنه كان ينكأ جرحا مؤلما هو طريقة تعامل الأجيال التي عاصرت ثورة يولية مع تاريخها، كأنه مِلك لهم ولمن صنعوه وليس ملكا للأجيال التي تليهم؛ ولذلك ظللنا لسنوات نشهد هجوما شرسا على كل من يعيد قراءة واقعة تاريخية، فتقع الواقعة على رأسه، ومع أن هزيمة يونية وقت أن وجهت أسئلتي عما جرى عقب وقوعها، لم يكن قد مضى عليها سوى ٣٠ سنة، ولم تكن آثارها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية قد غادرت واقعنا أبدًا، إلا أنني اتهمت لمجرد طرح الأسئلة بالإثارة والتشجيع على الهروب إلى الماضي وتغييب الناس عن هموم الواقع، مع أن الطريق الأسهل للإثارة هو نشر صور عارية أو قصص جنسية، بدلا من محاولة تطهير جراح لا زالت نازفة، والتذكير بأن هزيمة يونية ليست تاريخا ولّى وراح لحاله، وأنها بعد مرور خمسة عقود عليها، لا زالت واقعًا يطبق بمرارته على نفسيات وعقول وقلوب أجيال عديدة، حتى وإن كان البعض ينكر ذلك أو لا يدركه.

يومها، وبعد أن خذلني الكبار الذين حاولت جمع شهاداتهم على ما جرى، قررت أن أقرأ قصة التنحي وما أعقبه من مظاهرات، كما وردت على لسان بعض معاصريها، وكان من الطبيعي أن أبدأ بشهادة الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل الذي كان مشاركا في صناعة الحدث، أكثر من كونه شاهدا عليه، فهو كما يروي في كتابه «الانفجار»، كان أول من طرح فكرة التنحي على عبد الناصر في تمام الثامنة والنصف من مساء الخميس ٨ يونية، قبل أن يقول عبد الناصر له إنه فكر في ذلك فعلا. وقتها كانت الحقيقة المُرة لم تتضح بعد للمصريين، حيث كانت الصحف لا تزال تتحدث عن المعارك الضارية التي تدور بشراسة على الجبهة، والإذاعة تعلن أرقام الطائرات المعادية التي يتوالى سقوطها، بينما كان عبد الناصر يقرأ كشفا وصله للتو بخسائر الجيش المصري، وعندها ـ على حد تعبير هيكل: «أحس بهول الكارثة وأدرك أنه لن تكون هناك ضربة ثانية أو ثالثة»، ومع ذلك حاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وطلب من القادة الميدانيين الصمود، لكنه عندما أدرك أن الأمر أصبح غير قابل للسيطرة، اتصل بوزير الخارجية محمود رياض، ليطلب من السفير القوني ـ سفير مصر في الأمم المتحدة في نيويورك ـ إبلاغ موافقة مصر على وقف إطلاق النار.

قبل أن يتحدث هيكل مع عبد الناصر، كان قد اقتنع أن عليه ترتيب أوضاع البلد للانتقال إلى ظروف مختلفة. وفي جلسة منفردة مع عبد الحكيم عامر شريكه في الثورة والحكم والهزيمة، اقترح ناصر تقديم استقالته للشعب، وأن يكون شمس بدران رئيسا مؤقتا لمصر. ووافق عامر، بعدها اتصل ناصر بهيكل في مكتبه بصحيفة «الأهرام». يقول هيكل واصفا تلك المكالمة: «وبدا صوته لأول وهلة على التلفون مثقلا بهموم الدنيا كلها، وقد سألني ما الذي أقترح عمله، وكان رأيي أنه لم يبقَ أمامه غير الاستقالة، وكان رده بالحرف: غريبة، هذا ما فكرت فيه تمامًا. وكان ردي أنه ليس هناك خيار آخر. وكان تعليقه بالموافقة». طلب ناصر من هيكل أن يكتب له خطاب الاستقالة «كجهد أخير في معاونته»، وتحاورا في نقاط الخطاب، واتفقا على اللقاء في الساعة الثامنة من صباح يوم ٩ يونية. ظل هيكل يكتب مسودات الخطاب طيلة الليل، وفي الصباح اتجه لبيت عبد الناصر ومعه مشروع الخطاب «الذي أرهقني سطوره أكثر من أي شيء آخر كتبته من قبل، وظننت أنني حفظت العبارات والألفاظ من كثرة ما راجعتها وغيرت فيها وبدلت».

عندما التقى هيكل بناصر بدا له وكأنه «أضاف إلى عمره ١٠ سنوات على الأقل. كان مرهقا بشكل يصعب وصفه، وكانت في عينيه سحابة حزن لم أرها من قبل». أخذا يتحدثان طويلا في تفاصيل الخطاب، وبالذات في نقطة اختيار شمس بدران خليفة لعبد الناصر، وهو اختيار يشعر كل من يقرؤه بأنه مُلغز، خصوصًا حين يأتي عقب هزيمة كان شمس بدران واحدا من صناعها، لكن هيكل في هذه النقطة لا يفصح عن الكثير، ليساهم في إضفاء هالات الغموض على شمس بدران التي لم يتم إزاحتها حتى الآن. على أي حال انتهت المناقشة الطويلة بأن أصبح زكريا محيي الدين هو المرشح البديل، خاصة أنه كما قال ناصر: «مقبول دوليا، وقادر على الحوار مع الأمريكان».

بعدها اختلف ناصر وهيكل على نص عبارة في الخطاب، كانت هي أهم العبارات فيه، وربما هي أشهر عبارة في الخطاب بعد ذلك، وهي عبارة كانت صيغتها الأولى تقول: «وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفي من الأزمة، فإنني على استعداد لتحمل نصيبي من المسئولية»، واعترض ناصر مؤكدا أنه يتحمل المسئولية كلها، وهنا يعلق هيكل: «ولم أختلف معه فيما قال، وأعدت صياغة العبارة على الفور فجعلتها كالآتي: «إنني على استعداد لتحمل المسئولية كلها». وكان تعليق ناصر على هذه الصياغة الجديدة: «تلك هي الحقيقة وهذا أدق وأكرم». حمل هيكل خطاب التنحي، وعَبَر الشارع إلى مكتب سامي شرف لتتم كتابته على الآلة الكاتبة. أصابت سامي حالة من الهستيريا عندما قرأ عبارة «التنحي تمامًا ونهائيا عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي». نفس الحالة أصابت موظف الآلة الكاتبة الذي أجهش بالبكاء وهو يكتب الخطاب. وبالتأكيد لم يكن خافيا على هيكل وهو من هو دهاءً وحنكة، أن الأثر الشعبي الذي سيسببه الخطاب سيكون أقوى بكثير من هستيريا سامي وبكاء موظف الآلة الكاتبة.

عاد هيكل بعدها إلى ناصر، ودار بينهما حوار طويل عن الساعات القادمة، وما سيحدث فيها، والأيام الماضية وما حدث فيها، وسنقتبس بعض العبارات التي وردت في الحوار كالآتي، مع التنبيه على أن ما يرويه هيكل لم يشهده أحد غيره، مما يجعل لك الخيار في تصديقه كما جاء، أو إنكاره كاملا دون الالتفات إليه، أو تأمله في ضوء حساسية الموقف المحيطة بالحوار لاختيار ما يوافق عقلك وتفكيرك:

ناصر: «لا أستطيع أن أتصور ما سيفعله الناس، والله لو أنهم أخذوني إلى ميدان التحرير وشنقوني فيه لما اعترضت عليهم، لهم الحق».

هيكل، بارعا في دور المبرر والمُنظر كعادته: «ليس هناك ضرورة لأن تدفع مشاعرك إلى هذه الدرجة، فما حدث لك شيء حدث من قبل كثيرًا في التاريخ، واعتقادي أن البلد واجه نكسة، ولكنه قادر على القيام منها بقواه الذاتية».
ناصر: «إنني أتصور أن الناس بعد مفاجأة استقالتي، سيطلبون معرفة الحقيقة فيما حدث، وهو حقهم، ولست أعرف السبيل إلى تحقيق هذا الطلب، فهو ضروري لمستقبل العمل، ولكني أخشى أن يتصور أحد أنني بأي شيء أقوله أحاول إشراك غيري في المسئولية، والله يعلم أنني لا أفكر في أي شيء من ذلك، فأنا نازل عند حكمة الله في قضائه، ولكن الحقيقة يجب أن تكون واضحة للناس».
بعدها طلب ناصر من هيكل أن يحضر معه إلقاء الخطاب فاعتذر. تبادلا المشاعر الطيبة عن الصداقة التي جمعت بينهما، ودار بينهما حوار دعونا نضع شكلا له طبقا لما أورده هيكل – مع بعض الاختزال.
ناصر: أعرف إلى آخر العمر أن لي أخا.
هيكل (مقاطعا): لا داعي لأن نقع فيما نهينا أنفسنا عنه فنُسلم أنفسنا للانفعالات، وأنا سعيد بما أديته إلى جانبك من دور، وقد خدمت فيه بلدي بما أستطيع.
ناصر: خِدمتك للبلد لم تنتهِ بعد. مازالت أمامك خدمة أرجو أن تؤديها، أنا بعد إلقاء خطابي سأدخل إلى غرفتي وأعزل نفسي تمامًا عن العالم، وقد تثور مشاكل ومضاعفات، وكل ما أطلبه منك أن تكون في هذه الليلة مسئولا عن أي شيء يذاع أو يقال باسمي أو نيابة عني، حتى يتمكن زكريا محيي الدين من حلف اليمين غدا. أنا أعرف أن علاقتك بزكريا طيبة.
هيكل: أنا لا أنوي أن أكرر دوري بجانبك مع أي رجل آخر، ولكني سأقبل تكليفك لدقة الظروف.
«ينهض هيكل ثم ينهض ناصر، يُسلمان على بعض». وهنا يقول هيكل: «ولمحت دمعة في عينيه لأول مرة في حياتي، واستدرت خارجا من غرفة مكتبه، فلم أكن أريده أن يرى دمعة أخرى في عيني».
بعد ساعات، كان الشعب المصري والشعوب العربية على موعد مع مشهد أكثر درامية ومأساوية من المشهد السابق، وهو مشهد عبد الناصر وهو يلقي خطابه على مدى ثلث ساعة، صمت الملايين فيها صمت الموتى، وتأكد لمن كانوا لا يزالون يُغلّبون الأمل على اليأس أن الهزيمة قد وقعت، وأن البطل الهمام قرر أن يترك المركب واختار من سيحكمهم بدلا منه. وبعد انتهاء الخطاب تبدد الصمت شيئًا فشيئا، ليعلو صوت البكاء الذي تحول تدريجيا إلى نشيج مكتوم، ثم إلى عويل، ثم إلى صراخ يطلق هتافات تقول: «ناصر، ناصر، كلنا عايزين ناصر».
ثمة شهادات منشورة تقول إن ما حدث وقتها كان مدبرا من قِبل قادة الاتحاد الاشتراكي. مثلا أحد رموز الإخوان المستشار «علي جريشة» يحكي أنه كان في السجن، وقال له سجان إنه تعبان جدًّا لأنهم أعطوه ملابس مدنية وقالوا له أن يشترك في مظاهرات مدبرة. الفريق عبد المحسن مرتجى يؤكد ذلك أيضًا، ولكن رأيه كان بناء على انطباع وليس مُستنِدا إلى معلومات، هناك حديث عن قيام الاتحاد الاشتراكي بتوفير أتوبيسات في اليوم الثاني من المظاهرات، وليس في اليوم الأول. حين سألت الكاتب الكبير محمد عودة ونقلت له هذا الكلام لكي يعلق عليه أجاب بحماس شديد: «مين المخرج العظيم اللي هيطلّع الشعب المصري كده؟ طب هل الاتحاد الاشتراكي هو اللي طلّع برضه الشعب الجزائري والتونسي واليمني في مظاهرات ضد التنحي؟ هل هو اللي أقنع أكبر معلق سياسي في الغرب (دويتشر)إنه يقول: لأول مرة يخرج شعب مباشرة ليصنع التاريخ بنفسه

وليعيد زعيما مهزوما؟ أنا يوم التنحي خرجت في هذه المظاهرات ورأيت شرائح عمري ما شفتها في حياتي. في الدقي والزمالك، الستات خرجوا بهدوم البيت، ببساطة ودون أي مبالغة، عبد الناصر كان يمثل الاستقرار، والناس بيقولوا له إحنا عارفين إنك غلطت، ولكن إنت القائد اللي إحنا بنثق فيه ونقف معاه ساعة المحنة».

من أهم الشهادات التي تثبت براءة المظاهرات من التدبير، شهادة حسن طلعت مدير المباحث العامة الذي يكشف في مذكراته أنه فوجئ بأمر المظاهرات، ولأن لديه أوامر بقمع أي مظاهرة بغض النظر عن ما تتظاهر من أجله، شعر بالحيرة وحاول الرجوع إلى رئيسه المباشر وزير الداخلية شعراوي جمعة، فرفض شعراوي أن يرد عليه، كعادة المسئولين في لحظات الأزمات، ولذلك اتخذ حسن طلعت بمبادرة فردية قرار عدم الاصطدام بالمظاهرات، ولولا ذلك لحدثت كارثة محققة، خاصة أن المئات من مسئولي الأمن الذين يرفعون على الدوام شعار «سلومة الأقرع ما يعرفش أبوه ولا أمه»، كانوا يتصلون به ليسألوا في إلحاح عن الطريقة التي سيتعاملون بها مع المظاهرات.

في تلك الفترة أيضًا كان الدكتور حسين كامل بهاء الدين، الذي ظل لسنوات طويلة وزير تعليم حسني مبارك، قائدا لمنظمة الشباب التي أنشأها عبد الناصر لتكون ذراعه السياسية وسط الشباب، وفور إعلان خطاب التنحي، ذهب إلى مكتب المعلومات المواجه لبيت عبد الناصر، وكان في حالة عصبية شديدة، وقال بصوت عالٍ لموظفي المكتب أن ٣٠ ألف شاب من أعضاء منظمة الشباب مستعدون للزحف على بيت عبد الناصر لإثنائه عن قرار التنحي، وهو تهديد لو أطلقه في ظروف أخرى، لكان مرميًّا في زنزانة انفرادية في السجن الحربي، لكنه تهديد يكشف عن عدم وجود تواصل قيادي معه للأمر بإخراج الشباب، وإلا لكان قد فعل ذلك فورا قبل التلويح به.

خلال بحثي في الكتب والمذكرات التي تناولت تلك الفترة، فوجئت بأن المؤرخ الدكتور عبد العظيم رمضان المعروف بعدائه الشديد للناصرية، يرد بقوة على اتهام مظاهرات التنحي بأنها كانت مدبرة، ويقول في كتابه «تحطيم الآلهة» إن ذلك الاتهام مهين جدًّا للشعب المصري، حيث يصوره أنه شعب يساق كالأغنام فقط، نافيا أن يكون الاتحاد الاشتراكي قادرا على تدبير مظاهرات ضخمة كهذه، لأنه في الواقع لم يكن يتمتع بشعبية بين الجماهير تمكنه من أداء هذا الدور الضخم، وحين تمت الإطاحة بقياداته في مايو ١٩٧١، لم يستطيعوا إخراج تلميذ واحد في مدرسة لمساندتهم ضد السادات.

من ناحية أخرى، لم يكن غريبا أن أجد في صحف اليوم التالي لمظاهرات التنحي سيلا من المقالات التي ترفض القرار وتناشد عبد الناصر في الرجوع عنه، لكن ما لفت انتباهي هو بعض ردود الأفعال لأشخاص عرفوا فيما بعد بمهاجمة عبد الناصر بشراسة، ولم يذكر أحد منهم موقفه عقب التنحي، ولو على سبيل المراجعة الذاتية. خذ عندك مثلا موسى صبري الذي كتب يصف الجماهير التي شاركت في مظاهرات التنحي بأنها «جماهير شاء لها القدر أن تعيش لأول مرة في تاريخ مصر منحة السماء لها في حاكم مصري ابن مصري». وكتب أنيس منصور يسأل: «كيف للراعي أن يتخلى عن رعيته المؤمنة به؟». وكتب جلال دويدار ـ الصحفي المؤيد لمبارك فيما بعد ـ يعلن «أنه حين كان يعيش في الخارج لم يكن مصريا ولا عربيا بل كان يحمل جنسية ناصر». وسبحان مغير الأحوال من حال إلى حال.

مغامرة محسوبة

لكن إذا كان هناك شِبه اتفاق بين معاصري الفترة برغم اختلافاتهم السياسية، على أن مظاهرات التنحي لم تكن مدبرة، فلن تجد نفس الاتفاق في الإجابة عن سؤال: «هل كان تنحي عبد الناصر مغامرة محسوبة؟»، حيث سنجد شهادات عديدة تؤكد أن التنحي كان مغامرة محسوبة، لأن عبد الناصر وهيكل كانا يدركان تعقيد الوضع، ويتوقعان رد فعل الجماهير، ولذلك فقد أحسنَا اختيار كلمات خطاب التنحي بذكاء شديد. هذا ما يؤكده منير حافظ الرجل الثاني في مكتب سامي شرف الذي يؤكد في شهادته للتاريخ بأن ما حدث كان مغامرة محسوبة، «بدليل أن خطاب التنحي الذي ألقاه عبد الناصر، بعد أن شرح ظروف النكسة تقدم ببرنامج عمل للمرحلة القادمة، والذي يتنحى لا يُعقل أن يضع لخلفه برنامج العمل الذي يسير عليه، كما أن نص الخطاب لم يقطع بمسئولية عبد الناصر بما حدث، فقد ذكر أنه على استعداد لأن يتحمل المسئولية، ولم يقل إنه يتحمل المسئولية بالفعل، وهذا يعني أن عبد الناصر يريد أن يقول إن آخرين كانوا وراء ما حدث ولكنه مستعد لأن يتحمل عنهم المسئولية أمام الشعب، كذلك فإن اختيار عبد الناصر لزكريا محيي الدين خلفا له كان مناورة؛ لأن الاتفاق بينه وبين عامر كان على أن يتسلم شمس بدران الحكم، لكن عبد الناصر أدرك أنه لو اختار شمس فإن شمس سيتولى الحكم على الفور لقوة مجموعته العسكرية».
إذن فقد خاض عبد الناصر هذه المغامرة، المحسوبة في تحليل منير حافظ، وهو يعلم أن إعلان التنحي له واحدة من نتيجتين لا ثالثة لهما، فإما أن تقبل الجماهير تنحّيه، وينتهي به الأمر إلى زاوية مهملة من زوايا التاريخ كزعيم مهزوم، أو أن تتشبث به الجماهير فيبقى ليتحمل تبعات النكسة. وقد تحققت أهداف تجربة التنحي كلها بالفعل، إذ لم يكن عبد الناصر يتصور أن الشعب سيخذله.
عبد العظيم رمضان وبعد رفضه لكون المظاهرات مدبرة، يرى أن التنحي نفسه كان عبارة عن سيناريو شديد الإتقان، معتبرا أنه «سيناريو من صُنع هيكل بالدرجة الأولى، وليس من صُنع عبد الناصر، لأن مثل هذا التخطيط يحتاج لخبرة بفن التعامل مع الجماهير وكتابة خبير سياسي يستطيع التفرقة بين تعبير «تحمل المسئولية» وتعبير «الاستعداد لتحمل المسئولية»، وإن كان هذا بطبيعة الحال لا ينفي إدراك عبد الناصر لكل هذه التلميحات والإيحاءات وموافقته عليها، خاصة وأنه كان يشعر في داخله بمسئولية عامر عن النكسة، لذا كان يتوق إلى فرصة أخرى يمنحه إياها الشعب ليتخلص من سيطرة عامر، ولكنه لم يعول كثيرًا على هذا الأمل». ورغم أن خطاب التنحي كما يؤكد رمضان كان حافلا بالأكاذيب الضخمة والخديعة، منها عبارة «العدو الذي كنا نتوقعه من الشرق والشمال جاء من الغرب»، بينما الصحيح وفقا لشهادة عبد المنعم رياض أن الطائرات الإسرائيلية جاءت من الشرق. كذلك فقد تم إخفاء أي إشارة إلى أخطاء القيادة العسكرية المصرية، وتم الحديث عن «قتال الجيش السوري قتالا بطوليا»، وهو ما لم يكن صحيحا. ومعنى ذلك في رأي عبد العظيم رمضان أن الحقائق كانت غائبة تمامًا عن ذهن الشعب المصري، حيث اتخذت هبَّته العفوية مساء ٩ يونية شكل التمسك بقيادة عبد الناصر، بعد أن كان يتجه في صبيحة ذلك اليوم إلى محاسبتها، ولذلك فهذا الشعب هو الذي هب مرة أخرى في فبراير ٦٨ احتجاجا على الأحكام التي صدرت ضد قادة الطيران، وهو ما يؤكد أن تصرف الشعب المصري تم في إطار جهله بحقائق ما يجري، ولذلك فربما كانت حسابات الشعب المصري في مساء ٩ يونية والتي بناها على غريزته المجردة أصدق حكما من أية حسابات تفرضها الحقائق، فلو أنه خذل عبد الناصر في ذلك اليوم لارتكب أكبر الأخطاء في تاريخه، ليس فقط لأنه يكون قد حقق رغبة

الأعداء في التمتع بانتصارهم كاملا، وإنما لأنه يكون قد حرم نفسه من القيادة الوحيدة التي كانت وقتها قادرة على انتشاله من هذه الهزيمة.
يبقى أن الشعب المصري في نهاية المطاف، لم يفوت الفرصة لوضع لمسة عبثية على الأمر برمته، بعد أن اطمأن إلى عودة عبد الناصر إلى الحكم، ليتحول شعار «لا تتنحى، لا تتنحى»، إلى شعار ساخر هو «أحه أحه، لا تتنحى»، والذي ربما كان يعبر برغم بذاءته، عن معنى شديد الصدق والواقعية، وهو رفض الشعب لأن يتخلى عن مسئولية الهزيمة من كان سببا في وقوعها، وأن عليه أن يبقى ليُصلح ما أفسدت يداه. وحين أدرك الشعب المصري صدق عبد الناصر في محو آثار الهزيمة، كما بدا عقب الإطاحة بعبد الحكيم عامر ورجاله، وإعادة بناء الجيش المصري، تجاوز الناس لحظة الهزيمة التي كان يمكن أن تشل حركتهم لسنين، وبدأت ملحمة حرب الاستنزاف التي تم تغييب الكثير من بطولاتها حتى الآن، لكن خروجهم التالي في المظاهرات التي أعقبت الأحكام التي صدرت ضد قادة الطيران لم يكن تأييدا ولا تهليلا، بل كان غضبا من تحميل الهزيمة لمن ليس مسئولا عنها، وهو ما أزعج عبد الناصر كثيرًا، وأشعره أن لحظة «لا تتنحى»، كانت مجرد لحظة استثنائية خرجت في توقيت حرج، ولن تتكرر ثانية، ولذلك فقد تعامل مع مظاهرات الطلبة بالذات بعصبية شديدة، وصلت إلى حد أنه طلب في لحظة انفعال ضرب تلك المظاهرات بالطيران، طبقا لشهادة وثّقها الدكتور هشام السلاموني في كتابه «الجيل الذي واجه عبد الناصر والسادات». ومن يدري، فربما كان عبد الناصر في تلك اللحظة بالذات، يفكر في أن غضب المصريين على أي هزيمة قادمة، ربما انتهى بمصير الشنق في ميدان التحرير.

آن الأوان ترجعي يا دولة الجواسيس

(١)

كل ثلاثة أيام تقريبًا كان يصلني منه نفس «الإيميل» الذي يختار له نفس العنوان اللافت: «تحذير من مواطن شريف: عمارة يتم تأجيرها بالكامل للإرهابيين والإخوان المسلمين»، واضعًا في المتن اسم صاحب العمارة وعنوانها بالكامل، ولاعنًا سنسفيل صاحب العمارة وكل سكانها، بل وكل سكان الشارع الذين يتسترون على جريمة تسكين إرهابيين يتآمرون على مصالح الوطن، ثم بدأت إيميلاته بعد فترة تصبح أكثر حدة ومبالغة، ربما لأنه لم يجد اهتماما من الكُتاب والصحفيين الذين أرى أسماءهم معي في قائمة من يتسلمون الإيميل، لدرجة أنني أصبحت أراه في خيالي يزعق وهو يكتب ليصل صوته للجميع مرددًا عبارات حفظها من خلال متابعته الدائمة لوسائل الإعلام «جريمة خطيرة في وضح النهار ـ مصر تضيع تحركوا لإنقاذ مصر ـ نحن نفضح بالأسماء والعناوين ـ لكِ الله يا مصر». وكان آخر ما وصلني منه قبل أيام رسالة غاضبة يشتم فيها سنسفيل أحد الذين كان اسمهم موضوعا في القائمة لأنه رد عليه طالبا منه أن يذهب إلى طبيب نفسي بدلا من أن يصفي حساباته مع أحد جيرانه بهذه الطريقة.

قلت لنفسي: بالتأكيد يشعر ذلك الرجل بحزن عميق، لأنه تلقى طعنة غادرة في وطنيته، فهو لم يفعل شيئًا سوى الامتثال لقيادته الحكيمة التي خصصت في العام الماضي خطوطا ساخنة تحث فيها المواطنين على الإبلاغ عن أعضاء جماعة الإخوان الإرهابية، وربما حاول الرجل أن يفعل فكان حظه كحظ من يتصل بخطوط الإسعاف أو النجدة أو المطافئ، لعله لم يلجأ للإبلاغ المباشر عن جيرانه في قسم الشرطة لأنه اقتنع بخطورة عناصر الطابور الخامس الموجودة في كل مواقع الدولة كما كشف الخبراء الاستراتيجيون، لكنه مع ذلك لم ييأس، بل قرر أن يلجأ لرجال الإعلام الذين يراهم دائمًا يحضون المواطنين على الإيجابية وحماية الوطن، لكنه لم يكن يتوقع أبدًا أن يكون رد فعلهم سلبيا ومتباطئا، لعله قرأ الأخبار المنشورة عن اتجاه حكومي للاستعانة بالطلاب الوطنيين في الجامعات للإرشاد عن زملائهم المشاغبين، فتمنى أن يكون هناك مكان رسمي يمكن أن يشبع فيه رغبته الوطنية في الإرشاد عن جيرانه من الإرهابيين، لعله تذكر ما كان يرويه له والده عن العصر الذهبي للإرشاد الوطني في الخمسينيات والستينيات، حين لم تكتفِ السلطة بكل ما كان لديها من مخبرين تابعين لكل الأجهزة السيادية والأمنية، بل أنشأت تنظيما سياسيا سريا أسمته «التنظيم الطليعي» كان يقوده في أزهى عصوره وزير الداخلية شخصيا، ولعله استبشر خيرا بعودة هذه الأيام عندما قرأ وسمع وشاهد المطالبات المتلاحقة للرئيس عبد الفتاح السيسي بأن يشكل حزبا خاصا به، يتجمع فيه «بتوع السيسي» كما أسمتهم ابنة الزعيم الملهم ـ الأولاني ـ هدى جمال عبد الناصر في أحد حواراتها، والذي شكت فيه من أنها تبحث على الساحة السياسية عن «بتوع السيسي» فلا تجدهم.

قبل خمسين عامًا كانت مصر قد أصبحت مليئة عن آخرها ببتوع والد الدكتورة، وكان «البتوع التانيين» أيا كان انتماؤهم مرميين في السجون أو منفيين خارج البلاد أو ماشيين جوه الحيطان دون أن ينسوا أن لها ودان، ومع ذلك لم يكتفِ والدها بكل ما لدولته من بتوع ومخبرين تابعين لكل الأجهزة السيادية والأمنية، ولم يقنع بتأميم السياسة لتصبح ممارستها حِكرًا على من ينتمي إلى كيانات مشوهة تنشئها دولته لتراقب دولته، فقرر أن ينشئ التنظيم الطليعي الذي قام فيه بتجنيد خيرة كُتاب مصر ومفكريها ومبدعيها وسياسييها، ليكون من أبرز مهامهم كتابة تقارير سرية عن

كل «مظاهر الانحراف التي تهدد مسيرة الثورة وعن كل أعدائها الداخليين المتعاونين مع الخارج»، ولم يجد إلا قلة نادرة ترفض التعاون معتذرة بكل أدب لأنها لا تصلح لهذه المهمة الوطنية الجسيمة، في حين وجد مئات آخرين يوافقون على التحول إلى كتبة تقارير سرية، دون أن يشعروا بأنهم ارتكبوا خطيئة تستوجب العار، فالإنسان حيوان مبرر بامتياز، ومسألة أن تقنع نفسك بأنك تكتب التقارير خدمة للوطن ليست مجهدة ولا تحتاج إلى أن يحرق المخ الكثير من السعرات الحرارية، وربما لذلك ظل ـ ولا زال ـ أغلب أعضاء هذا التنظيم يتصدرون الساحة السياسية في مصر، دون أن يشعروا بالعار أو حتى الحرج، فيقرروا اعتزال الحياة السياسية التي شاركوا في تأميمها وإفسادها.

للعلم، لم تكن التقارير التي يكتبها هؤلاء تقارير فكرية أو استشارية تُكتب من باب مساعدة صانع القرار على اتخاذ قراره، كما ادعى الكثير من هؤلاء فيما بعد تبريرا لما شاركوا فيه، فقد كشفت الوثائق عن تقارير شخصية كان يتلقاها وزير الداخلية شعراوي جمعة ليتخذ في أغلبها إجراءاته الأمنية اللازمة على الفور بتنسيق كامل مع جمال عبد الناصر الذي كان يهتم بهذه التقارير جدًّا. نعم كان هناك من يكتب تقارير سياسية واقتصادية عامة يأمل بها أن تفيد الوطن، لكنه بالتأكيد رأى خلال اشتراكه في التنظيم كيف يتم استخدام تقارير كثيرة أخرى للتنكيل بكل من له رأي معارض أو مختلف، ومع ذلك فقد وافق على الاستمرار في ذلك التنظيم الإجرامي الذي كان سببا في رمي الكثيرين في السجون وقطع أرزاقهم وتشريدهم وتطفيشهم من البلاد.

ولكي لا نلجأ إلى الاستشهاد بما صار معلومًا للجميع من قمع دموي للإخوان والشيوعيين والوفديين في تلك الفترة، دعونا نرَ كيف كان خطر ذلك التنظيم أشمل وأوسع حتى على من لم يثبت انتماؤهم السياسي لأي تنظيم من التنظيمات التي وصمت بتهمة العداء للثورة والقائد والوطن، ولنختر مثلا شهادة واحد من أنبل وأبرز علماء مصر، أستاذ الجيولوجيا الدكتور رشدي سعيد، الذي أتمنى إن لم تكن تعرفه أن تبحث في مكتبات دار الهلال عن إصداراته الرائعة وعلى رأسها كتابه الموسوعي عن نهر النيل ومذكراته الممتعة «رحلة عمر» التي يحكي فيها عن شعوره بخيبة الأمل عندما أدرك أن عبد الناصر وقيادات يولية لم يكونوا راغبين في الحوار مع أساتذة الجامعات طبقا للمهمة التي كلفه عبد الناصر بها وأنهم «لا يرغبون في الأخذ والعطاء مع المثقفين كما تصورت، بل كانت غايتهم هي بناء تنظيم طليعي سري من بعض التابعين لهم من الأساتذة، يمكن به إحكام القبضة على الجامعة... أما الحوار وبناء مصانع الأفكار فلم يكن واردا عندهم، وقد كانوا يحضرون اجتماعاتنا بين الحين والآخر من باب نقل ما يدور فيها من أفكار. وقد سببت ملاحقة هذه العناصر لي أكبر الإزعاج وألجأتني ولأول مرة في حياتي إلى استخدام حبات الفاليوم المهدئة، فقد أصبحت منذ ذلك التاريخ تحت المراقبة المستمرة، وموضوعا للتقارير الكثيرة التي أوكلت كتابتها لمن جندوهم من موظفي مكتبي أو من بين أعضاء مجلس الشعب الذين كانوا يُلحقون لهذا الغرض بالوفود البرلمانية التي كنت دائم الانتظام فيها».

ويصف الدكتور رشدي سعيد هذه التقارير التي أتيح له عن طريق بعض الساخطين على الأوضاع والمتعاطفين معه أن يطلع عليها بأنها: «... تقارير لم تكن تكتب لكي تُقرأ بأي عين فاحصة، بل إنها كانت تكتب بغرض إبلاغ المسئول عن رأي وانطباعات الأجهزة في المشكو في حقه، فكل التقارير وبلا استثناء مكتوبة بأسلوب متدنٍّ، ضعيفة المبنى، ليس للاستنتاجات فيها أي علاقات بالمقدمات التي بدأت بها، كما أنها كانت مؤسسة على إشاعات غير موثقة». ويتمنى الدكتور رشدي في كتابه ـ وقد كان دائمًا حَسَن النية ـ على المسئولين وقت صدور كتابه عام ٢٠٠٠ أن

يتيحوا للمشتغلين بكتابة تاريخ مصر الاطلاع على هذه التقارير لبناء صورة مصر في تلك الفترة وفهم ما جرى لمصر بسببها.
لحُسن الحظ، تحقق جزء كبير من أمنية الدكتور رشدي سعيد عندما قام أستاذ التاريخ الدكتور حمادة حسني في عام ٢٠٠٨ بنشر دراسة خطيرة مصحوبة بالوثائق التي حصل عليها من عدد من شهود المرحلة بعنوان «عبد الناصر والتنظيم الطليعي السري ١٩٦٣ ـ ١٩٧١» وهو كتاب تواطأت أغلب وسائل الإعلام على تجاهله، برغم أهمية ما فيه، ربما لأن رموز ذلك التنظيم من كتبة التقارير كانوا وقت نشر الكتاب ملء السمع والبصر. أذكر أنني عندما أشرت إليه عام ٢٠١٠، في إحدى حلقات برنامجي «عصير الكتب» على قناة دريم، مطالبا جميع من تورط في هذا التنظيم بالاعتذار العلني عن مشاركتهم فيه ورواية شهادتهم عليه، تلقيت لوما من بعض الكُتاب الكبار لأنني أساعد على الإشارة إلى كتاب ينكأ جراحا لن يستفيد الوطن من فتحها، وأنني أتغافل عن أن كتابة التقارير من أجل الوطن كانت مرتبطة بخطورة المرحلة، وقد عشت وعاشوا حتى رأيت هؤلاء الأساتذة يباركون بالتهليل والتأييد وبالصمت أيضًا عودة ملامح ذلك العصر القبيح ثانية بسبب «خطورة المرحلة». ومن يدري، فربما كانوا الآن عرّابين لتنظيم طليعي سري تتولى فيه أجيال مختلفة كتابة التقارير من أجل حماية الوطن من الأخطار، والإرشاد عن أعداء الداخل المتآمرين مع الخارج، دون أن يكون لأخينا المبلغ عن جيرانه حظ الانضمام إليهم حتى الآن.
ربما يكون أفضل ما نفعله لفهم طبيعة الخراب الذي أحدثه في مصر تشكيل ذلك التنظيم، هو أن نتأمل عناوين بعض التقارير السرية التي حصل عليها الدكتور حمادة حسني وأوردها في دراسته، لنرى كيف نقوم بشكل مؤسف بإعادة تاريخنا بكل خطاياه دون أن نتعلم منه شيئًا، متوقعين أن نصل إلى نتائج مختلفة لمجرد أننا غيرنا اسم الزعيم الملهم هذه المرة. تعالوا نقرأ العناوين معًا وسأترك لكم التعليق عليها:
ـ ٢٥ يولية ١٩٦٥: مذكرة بخصوص كتابة شعار الإخوان المسلمين على بعض خطوط الأتوبيس ـ خط ٤٠ ورقمه ١٩٦٣ نقل عام.
ـ ١٠ يولية ١٩٦٥: مذكرة عن بعض العائلات القبطية تقوم مساء كل ليلة بفتح جميع حنفيات المياه بمنازلهم.
ـ ٣١ مارس ١٩٦٥: تقرير من العميد جمال هدايت بشأن شركة مصر الجديدة للإسكان والتعمير وتولي بعض المسيحيين مراكز قيادية هامة.
ـ ٣٠ مايو ١٩٦٥: مذكرة حول تزايد نشاط الإخوان المسلمين وإعادة تأسيسهم للأجهزة السرية.
ـ ٢٢ مارس ١٩٦٥: مذكرة بشأن قيام الأمير دعيج السلمان الصباح بتهريب نقد مصري ـ مقدمها محمد حسنين هيكل.
ـ ٢١ سبتمبر ١٩٦٥: مذكرة عن الطلبة العرب المشكوك في انتمائهم للإخوان.
ـ ٨ أكتوبر ١٩٦٥: مذكرة حول جنازة مصطفى النحاس ـ مقدمة من إبراهيم الشهاوي.
ـ ١٨ أكتوبر ١٩٦٥: تقرير حول ميول واتجاهات أساتذة جامعة القاهرة ـ مقدمه عثمان عزام.
ـ ١٣ يولية ١٩٦٥: مذكرة من محمد حسنين هيكل بشأن الشيوعي إدوارد يونان.
ـ ٨ مايو ١٩٦٥: مذكرة مقدمة من محمود أمين العالم حول بعض الندوات السياسية بين طلبة الجامعة والطلاب العرب.

ـ ١٥ سبتمبر ١٩٦٥: مذكرة حول الاشتباه في عضوية بعض الطلاب للتنظيم السري للإخوان المسلمين.
ـ ١٧ إبريل ١٩٦٦: مذكرة بخصوص ما حدث من سائق ومحصل الأتوبيس رقم ٥٤ حول عدم تنكيس الأعلام لوفاة الرئيس عبد السلام عارف ـ مقدمة من محمود الصفطاوي.
ـ ٧ مايو ١٩٦٦: تقرير من الدكتور جلال أمين «مجموعة خالد محيي الدين» بشأن سفره إلى لندن.
ـ ١٢ مايو ١٩٦٦: تقرير الدكتور حسين كامل بهاء الدين عن نشاط مُعادٍ بدكرنس الدقهلية.
ـ ١٤ مايو ١٩٦٦: مذكرة معلومات عن شخص يُدعى حلمي غير مؤمن بالثورة وسبق تطهيره.
ـ ١٤ مايو ١٩٦٦: مذكرة حول تعليمات كَنَسية للمسيحيين بعدم تنظيم الأسرة ـ مقدمة من أحمد كامل.
ـ ٦ سبتمبر ١٩٦٦: مذكرة عن أسرة يهودية.
ـ ١٥ أغسطس ١٩٦٦: تقرير يقترح سحب الجنسية من مواطن مصري في ألمانيا الغربية.
ـ ٧ سبتمبر ١٩٦٦: تقرير عن نشاط إخواني في حلوان ـ مقدم من عبد الغفار شكر.
ـ ١١ يونية ١٩٦٥: تقرير حول الخلاف بين أحمد حمروش وأحمد بهاء الدين وانعكاس هذا على العمل في دار روز اليوسف.
ـ ١٠ أكتوبر ١٩٦٦: تقرير من أحمد حمروش بشأن مقابلته مع فؤاد نصار.
ـ ١٣ فبراير ١٩٦٦: مذكرة بخصوص الشك في وجود اثنين من الطلبة بكلية الهندسة في جامعة الإسكندرية من الإخوان المسلمين ـ مقدمة من سمير حمزة.
ـ ١٤ مارس ١٩٦٦: تقرير عن نشاط بعض الشيوعيين الموجودين في شركة النصر لصناعة الخشب الحُبيبي بالمنصورة.
ـ ١٦ مارس ١٩٦٦: مذكرة مقدمة من جمال هدايت بشأن ما حدث في حادث انحراف بعض الفتيات من طالبات معهد التربية الرياضية للبنات.
ـ ١٩ مارس ١٩٦٦: تقرير عن نشاط مُعادٍ يقوم به مدرس القاهرة للثانوية الميكانيكية.
ـ ٢٥ يونية ١٩٦٦ تقرير حول إشاعات يرددها محمود وفيق شلبي المراجع بشركة بسكو مصر.
ـ ١ إبريل ١٩٦٧: تقرير عن مجلس الكنائس العالمي والانحرافات بجريدة «وطني».
ـ ٢٢ مايو ١٩٦٧: مذكرة بحديث بين الدكتور رفعت المحجوب والدكتورة فوقية حسين.
ـ ٢٦ يونية ١٩٦٦: مذكرة بخصوص انحراف علي كامل محمد راجي، معادٍ للثورة والاشتراكية ـ مقدمة من فاروق راجي شقيق المذكور.

(٢)

سيقول السفهاء من أنصار الدولة الباطشة: وما هي المشكلة في أن يكتب المواطن فاروق راجي تقريرا في شقيقه علي، إذا كان ذلك بهدف الحفاظ على الدولة والثورة ومكتسبات الاشتراكية التي اتهمه بمعاداتها؟ وهل ستتأخر أنت في الإبلاغ عن أقرب الناس إليك إذا رأيته يتخابر مع أعداء الوطن؟ وما هي المشكلة في أن يكتب كل مواطن صالح سواءً كان مثقفا أو بسيطا تقارير سرية يرفعها إلى أعلى رأس في الدولة إذا كان ذلك بهدف الصالح العام؟
لا يدرك هؤلاء أن إيمانهم بهذا المنطق الذي اتخذه من قبلهم سبيلا لراحة الضمائر هو أكبر طريق نحو هدم الدولة ـ بفرض وجودها أصلا في حالتنا ـ فالدولة الحديثة لا تحتاج إلى أن يتحول كل مواطن إلى مخبر من أجل الحفاظ عليها، بل تمتلك من أجل حماية مواطنيها أجهزة أمنية مدربة

وفعالة وكُفأة، وفي نفس الوقت لا تترك هذه الأجهزة تسرح وتمرح على هواها، بل تكفل وجود آليات رقابية تقيّم أداءها وتطوره وتحاسبها على انحرافها وتقصيرها إن حدثا، أما الدول المتخلفة وإن اختبأت خلف قشرة الدولة الحديثة، فهي بزعم الحفاظ على الأمن تحول الأجهزة الأمنية إلى دولة داخل الدولة، ثم يتحول كل جهاز من هذه الأجهزة حسب قربه من قائد الدولة إلى دولة أكثر قوة أو بطشا، وتحت شعارات حماية الوطن من الأعداء والحفاظ على استقلاله ووحدته.
بالطبع تعمل كل هذه الأجهزة دون ضابط ولا رابط، فتخلق بين عموم المواطنين يقينا أن موقعك داخل الدولة يحدده رضا أجهزة الأمن عنك وعلاقتك الوثيقة بأي من مسئوليها أو منسوبيها. وهنا تتراجع أهمية الكفاءة والمعرفة والاجتهاد، لصالح العلاقات والوسايط والمحسوبيات، ولذلك لا يجد المواطن غضاضة في أن ينسى دوره الرئيس في الموقع الذي يعمل فيه، ليلعب دور المخبر على من حوله أيا كانوا، دون أن يشعر بأدنى ذنب، لأنه يحمي الوطن، معتبرا أن ما يقدمه له الوطن من مكاسب وامتيازات لقاء هذا الدور، ليس سوى رد جميل له لكي يدفعه لتجويد عمله أكثر. ولأن هذا المواطن في البدء والمنتهى بشر له أخطاؤه وتحيزاته. ولأنه لا يوجد من يراقبه ولا يحاسبه، لا هو ولا المسئولون عنه في الأجهزة الأمنية، فإن مهمته الوطنية المفترضة تتحول غالبا إلى وسيلة لتصفية الحسابات وخلق التربيطات، لكن ذلك لا يلفت انتباه أحد من المسئولين عنه، لأن ما يهمهم أكثر هو أن يثبت ولاءه بالانتظام في تسليم التقارير، وكلما كانت هذه التقارير عن أقرب الناس إليه من أهل وزملاء وجيران وأصدقاء، أثبت ولاءه أكثر فتوجّب إرضاؤه أكثر.
تعالَ نتأمل المزيد من عناوين تقارير أعضاء التنظيم الطليعي السري التي كانت تصل إلى مكتب جمال عبد الناصر شخصيا، وضع نفسك مكان عبد الناصر، وتخيل كيف يمكن أن يتصرف رئيس تصله تقارير من كبار مثقفي البلاد ومن مغموريها أيضًا، عن كل شيء يجري في البلاد مهمًّا كان أو تافها، وعن كل شخص له نشاط من أي نوع سواءً كان مشهورا أو مغمورا، مواليا له أو معارضا، أو محايدا مجهول الموقف. خذ عندك على سبيل المثال هذه التقارير التي تتركز في الفترة ما بين عامَي ١٩٦٥ وما قبل هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧:
مذكرة حول نشاط أحمد سعيد مدير صوت العرب (كونه من أهم أصوات نظام عبد الناصر لم يمنعه من التجسس عليه) ـ مذكرة عن موضوع إشكال عبد الحليم حافظ مع أم كلثوم بخصوص حفلة ٢٣ يولية ١٩٦٥ ـ مذكرة بشأن نشاط الإخوان بالدقهلية ـ مذكرة بشأن نشاط الإخوان بأسيوط ـ مذكرة بشأن نشاط الشيوعيين بالدقهلية ـ مذكرة حول سلوك مدكور أبو العز محافظ أسوان من حسين أبو الحسن جاد وسعد الدين محمد مدني عضوَي التنظيم ـ مذكرة عن نشاط الإخوان في بعض قرى بني سويف ـ مذكرة عن نشاط المدرسين المصريين من الإخوان الموجودين في قطر ـ مذكرة من محمود العالم عن الهتاف العدائي لمرضى مستشفى الصدر بالجيزة ـ مذكرة معلومات عن جماعة «الخروج في سبيل الله» تنتمي إلى جماعة الإخوان، مقدمة من محمود سامي العفيفي ـ مذكرة عن برنامج مواجهة الإخوان في الجامعة ـ مذكرة مقدمة من إبراهيم الشهاوي حول تصرفات مصطفى البرادعي نقيب المحامين إزاء موضوع الإخوان المسلمين (بالمناسبة هو والد الدكتور محمد البرادعي، فتأمل سخرية القدر) ـ تقرير عن أسماء بعض الإخوان المسلمين من نابلس وتأشيرة السيد الرئيس لسامي شرف: «كل من يثبت أنه من الإخوان يُرحّل» ـ مذكرة حول قصة نجيب محفوظ «ثرثرة فوق النيل» ـ مذكرة عن أحد الأفراد يقوم بجمع تبرعات لأسر المعتقلين.

في نفس الفترة ستجد تقارير أخرى عن: محاولة مريبة لتنظيم في الإسكندرية ـ تقرير حول مسرحية «الفتى مهران» ـ مذكرة من أدهم جمال هدايت بشأن إيفاد طلبة مغتربين إلى أمريكا للدراسة في المدارس الأمريكية ـ تقرير علي الراعي حول مسرحية «الشبعانين» ـ تقرير مقدم من صلاح زكي وميشيل كامل وراجي عنايت وسعد كامل وصلاح حافظ (مجموعة أحمد فؤاد) بشأن تعيين جلال الحمامصي مشرفا عامًّا على التحرير بـ«أخبار اليوم» ـ رسالة واردة من مواطن يزعم فيها أن الانتهازيين والمنحرفين يُسيرون دفة الأمور في الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي (لم يتم اتخاذ أي إجراء بخصوصها، والله أعلم ماذا حدث للمواطن نفسه) ـ معلومات عن العناصر الشيوعية الموجودة بمصانع الغزل والنسيج ـ تقرير من المخابرات العامة بشأن قيام علام محمود علام بالتخلص من أرضه الزراعية ـ تقرير مقدم من الدكتور توفيق حسين عن محادثة تلفونية بينه وبين الدكتور محمد أبو العز (تخيل معي أستاذا جامعيا ينهي مكالمة ليقوم بكتابة تقرير عنها) ـ تقرير مقدم من جمال بدوي عن اتصالات حول تشكيل شيوعي ـ تقرير عن تصرفات المهندس أحمد محرم ـ مذكرة حول ما يتردد عن عبد الحميد غازي مقدمة من محمد عبد الغفار ـ مذكرة عن مسرحية «بير السلم» ـ مذكرة بما يدور بين الرأي العام عن شراء زكريا محيي الدين نجفًا بألف وسبعمائة جنيه ـ معلومات من أفراد يعملون بمصنع صباغة الخيوط بالوايلي (موقع خطير للغاية كما تعلم!) ـ تقرير حول تعليمات كَنَسية للمسيحيين بعدم تنظيم الأسرة، مقدمه أحمد كامل ـ تقرير من جمال بدوي عن تصرفات رأسمالية مريبة ـ تقرير من جمال بدوي عن الإقطاع بقرية القشيش مركز شبين القناطر.

في موضع آخر ستجد تقريرًا يحمل عنوان «تقرير عن نكتة وتعليقات تمس النظام». لاحظ هنا أن عبد الناصر لم يكن يتعامل بأريحية مع النكت التي تقال عنه والتي كان يجمعها له جواسيس تنظيمه السري، فهو الرئيس المصري الوحيد الذي خرج علنًا في خطاب ليهاجم النكت التي يطلقها المصريون على نظامه، فضلا عن انتقاده حتى للكاريكاتيرات الاجتماعية التي كان يرسمها الفنان العظيم حجازي في مجلة «صباح الخير». لاحظ أن عنوان التقرير يعتبر أن هناك «نكتة وتعليقات» يمكن أن تمس النظام، وربما لو تأملت هذا المعنى لأدركت لماذا توجد تقارير تتحدث عن أشخاص عاديين لا يبدو لنا الآن أنه كان لهم دور سياسي خطير تذكره كتب التاريخ مثلا، لأن الفكرة هنا لم تكن وجود خطورة للشخص من عدمه، بل ضرورة مراقبته سواءً كان مواليا أو معارضا لتكتمل السيطرة على البلاد، لذلك تجد في عناوين التقارير ما يأتي:

تقرير بخصوص الصحفي محمد جلال كشك ـ تقرير من كمال الحناوي عن ممتلكات كمال رشاق ـ تقرير من الطالب حازم حسين عن منظمة الشباب بأسيوط ـ مذكرة من عبد الغفار شكر عن محاولات التهريب للأراضي الزراعية ـ تقرير إلى شمس بدران بشأن العاملين بالقوات المسلحة من عائلة التلاوي والفقي ـ تقرير إلى حسن طلعت بشأن صلة السيدة مفيدة يوسف الفقي بعائلة الفقي من عدمه ـ تقرير عن سلوك محمد كمال الدين دسوقي، ملاحظ مبانٍ بإدارة الأشغال، وانحراف اتجاهاته السياسية إخوان مسلمين ـ مذكرة معلومات حول ما يجري في مدرسة السنية الثانوية عن نشاط سياسي مريب إخوان مسلمين ـ تقرير من صلاح حافظ حول تقرير للدكتور عبد القادر حاتم ـ تقرير إلى شعراوي جمعة بشأن كشوف أسماء معادية من موظفي الدولة والقطاع العام مطلوب فصلهم واعتقالهم ـ تقرير عن الدكتورة فوقية حسن محمود ـ تقرير مقدم ضد الدكتور محمود عبده بمؤسسة الدواجن بأسيوط ـ مذكرة من جمال هدايت بشأن انحرافات فكري فرج الإخصائي الاجتماعي بمدرسة إسماعيل القباني الثانوية ـ تقرير عن التنظيم السري الجديد

للإخوان المسلمين بمركز منوف ـ تقرير عن نشاط للتنظيم الشيوعي بمركز بيلا كفر الشيخ ـ تقرير بشأن نشاط شيوعي بكلية الحقوق بالإسكندرية ـ تقرير عن تصرفات حمزة الشبراويشي صاحب شركة الشبراويشي ـ تقرير عن مجلس الكنائس العالمي والانحرافات بجريدة «وطني» ـ تقرير بشأن أعضاء التنظيم الطليعي الذين تم إيفادهم للحج سنة ١٩٦٧.

ضع نفسك مكان قائد البلاد وأنت ترى المئات من هذه التقارير تتدفق عليك كل يوم من رجال اخترتهم بنفسك ومنحتهم كافة الصلاحيات لكي يكونوا هم عيونك وآذانك التي ترسم حركة أذرعك الباطشة وقبضتك الساحقة، ألن تشعر عندها بالرضا عن النفس لأنك تقود دولة قوية عفيّة لا يتسرب إليها الوهن أبدًا؟ هل يمكن أن يخطر على بالك في ظل لحظة انتشاء كهذه أن تلك الشبكة التي قمت بتشكيلها للسيطرة على الدولة ليست سوى شبكة عنكبوتية تصطاد الضعفاء وعاثري الحظ، لكنها ستنهار على الفور إن هوت عليها يد ثقيلة؟ وهو ما حدث للأسف الشديد عندما اجتاحت إسرائيل سماء مصر وأرضها، لتسقط كل الأكاذيب التي عاش عليها المصريون طيلة عقدين من الزمان، فيكتشفوا أن البلد لم تكن مؤمّنة من الأعداء الذين امتلأت سجونها بهم حتى الثمالة، لكن هل أدرك جمال عبد الناصر بعد تلك الهزيمة المريرة أخطاء دولته الأمنية المدعومة بتنظيمه الطليعي السري؟ هل قام بتغيير طريقته في التعامل مع الواقع المهترئ الذي أنتجه؟ للأسف لم يحدث ذلك أبدًا، ودعونا لكي نحكم على ذلك نواصل قراءة عناوين بعض الوثائق التي رصدها الدكتور حمادة حسني في كتابه «عبد الناصر والتنظيم الطليعي السري» مركزين على الفترة التي أعقبت الهزيمة مباشرة:

ـ ١٣ يونية ١٩٦٧: تقرير إلى سامي شرف حول ما يتردد في الأوساط الصحفية (لاحظ أن من كتبوا التقرير ليسوا جهازا أمنيا، بل صحفيون يتجسسون على بعضهم).

ـ مذكرة معلومات بتاريخ ١٨ يونية ١٩٦٧ عن اعتقال بعض الشيوعيين بالجهاز المركزي للمحاسبات (كأن الشيوعيين كانوا سبب وقوع النكسة وليس عبد الناصر وقادته الذين سلم لهم حبل البلاد على الغارب).

ـ ٢٩ يونية ١٩٦٧: تقارير حاتم صادق ـ زوج ابنة عبد الناصر ـ عن الدكتور حسين كامل بهاء الدين.

ـ ١١ يولية ١٩٦٧: تقرير عن مصطفى كامل مراد عضو مجلس الأمة.

ـ ٢٤ يولية ١٩٦٧: تقرير من الدكتورة فوقية حسين لسامي شرف حول زيارات سيدات القاهرة.

ـ ٢٦ يولية ١٩٦٧: معلومات عن ضابط الجيش من محمود أمين العالم.

ـ ١٣ سبتمبر ١٩٦٧: مذكرة بمعلومات من محمود العالم عن «أخبار اليوم».

ـ ١٢ فبراير ١٩٦٨: تقرير من نبيل نجم بخصوص محمد عامر زهار.

ـ ٦ مارس ١٩٦٨: تقرير عن ترشيحات شرق القاهرة وسجل عن بعضهم بأن لهم نشاطًا شيوعيًّا وإخوانيًّا ومعزولين.

ـ ٢٣ مارس ١٩٦٨: مذكرة حول تعيين محمود أمين العالم رئيسا لمجلس إدارة «أخبار اليوم».

ـ ٢٦ مارس ١٩٦٨: تقرير عن النشاط الطلابي في كلية العلوم بجامعة القاهرة.

ـ ٢٩ مارس ١٩٦٨: تقرير عن الدكتور ممدوح الموصلي.

ـ ١٦ مايو ١٩٦٨: محضر اجتماعات مجموعة عبد الله إمام.

ـ ١٩ مايو ١٩٦٨: تقرير معلومات عن كسر سرية التنظيم بشركة مصر للمستحضرات الطبية.

ـ ١٦ يناير ١٩٦٩: تقرير من الصحفي سامي داود عن البرنامج التلفزيوني «الكاميرا إدراك».

ـ ٢٨ يناير ١٩٦٩: تقرير عن اتصال السيد أنور السادات بمحمود أمين العالم وإبلاغه استلام إحسان عبد القدوس للعمل في «أخبار اليوم».
ـ ١١ مايو ١٩٦٩: تقرير مقدم من محمود أمين العالم فيه معلومات متفرقة.
ـ ١٥ سبتمبر ١٩٦٩: مذكرة بمعلومات عن إعفاء محمود العالم من «أخبار اليوم».

(٣)

طيب، هل يمكن أن تقبل دولة تنشد العدل وتسعى للتقدم أن ينضم قضاتها إلى تنظيم سري يقوده وزير الداخلية الذي يفترض أن السلطة القضائية هي التي تحكم على تجاوزاته هو وغيره من المسئولين التنفيذيين، وتقتص لمظلوميهم منهم؟
قبل أن تجيبني بـ«لا» دعني أخبرك أن مصر جربت ذلك ونفعت، لا أعني أن مصر نفسها نفعت، كما لعلك تعلم وتعيش وترى، لكن الذي نفع وانتفعت به السلطة الحاكمة لها هو تجربة «القاضي المخبر» الذي يجلس على المنصة صباحا، ويجلس في خلية التنظيم الطليعي ليلا، ليسلم التقارير التي يكتبها في زملائه من القضاة، دون أن يشعر بأدنى حرج، لأنه يعتبر نفسه يقوم بخدمة وطنية جليلة، وكيف يشعر القاضي بحرج لأنه يعمل في تنظيم سري يقوده وزير الداخلية، وهو يرى رئيس الدولة نفسه يعتبر ذلك أمرا يصب في مصلحة الوطن، ويرى زملاءه الذين يرفضون هذا العبث باستقلال القضاء وهم يتعرضون للتنكيل والاضطهاد.
يروي لنا الدكتور حمادة حسني خلال تحقيقه لعلاقة التنظيم الطليعي بالقضاء، تفاصيل قيام نظام عبد الناصر بإدخال القضاة في لجان التنظيم الطليعي. بدأ ذلك أولا بشكل فردي كما حدث في حالة القاضي عبد الحميد الجندي الذي التحق بالتنظيم منذ ١٥ سبتمبر ١٩٦٥ في مجموعة شرق القاهرة برئاسة سامي شرف وأحمد شهيب، ومحمد أبو نصير عضو الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي الذي يصفه الدكتور حمادة حسني بأنه كان عين النظام على عبد الرازق السنهوري الذي كان ـ إن لم تكن تعلم ـ المستشار القانوني الأبرز لجمال عبد الناصر ورفاقه عقب قيام ثورة يولية، وكان وراء إخراج الكثير من القرارات الاستبدادية في قالب قانوني يسرُّ الناظرين، لكن علاقته بالثورة انتهت بتسليط الجماهير لكي تضربه بالأحذية وتهين مقامه الرفيع في قلب مجلس الدولة فيما عرف باسم مذبحة مجلس الدولة عام ١٩٥٥، والتي كانت فاتحة المذابح القضائية في مصر المنكوبة.
عندما أصبح محمد أبو نصير عضوا بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي، قام علي صبري وشعراوي جمعة بتكليفه بإنشاء لجنة بالتنظيم الطليعي تضم القضاة فقط، فبدأ بالاتصال ببعض القضاة البارزين مثل المستشارَين ممتاز نصار، وعادل يونس رئيس محكمة النقض ومحمد الصادق مهدي، فوافق الأخير بينما فاجأه رفض نصار ويونس، اللذيْن لم يكتفيا بالرفض بشكل شخصي بل ذهبا لمقابلة وزير العدل عصام حسونة لإبلاغه استنكارهما لما حدث وغضبهما لكرامة القضاء، فشاطرهما الوزير الاستنكار والغضب، وقام بنقل غضبه وغضب زملائه إلى عبد الناصر في مقابلة معه، لكن عبد الناصر كما يروي الدكتور حمادة حسني «فاجأه بقوله إن شعراوي جمعة قد شكل تنظيما سريا من ضباط الشرطة المؤمنين بالثورة، وكذلك فعل شمس بدران في القوات المسلحة، فلماذا لا تفعل في القضاء؟».
لن تدرك خطورة ما قاله عبد الناصر لوزيره المعترض وأنه لم يكن مجرد كلام ودي، بقدر ما كان سياسة منهجية تهدف لتطويع القضاء لخدمة الدولة، إلا إذا تأملت سلسلة من المقالات وصل عددها إلى تسع مقالات كتبها علي صبري الأمين العام للاتحاد الاشتراكي، ونشرتها جريدة

«الجمهورية» في الفترة من ١٨ مارس إلى ٢٦ مارس ١٩٦٧، قال فيها صراحة إن رجال العدالة لن يتمكنوا من القيام بدورهم الأساسي إذا وقفوا منعزلين عن العمل السياسي متباعدين عن نضال قوى الشعب العاملة، منتقدا في مقالاته مبدأ الفصل بين السلطات، ومطالبا بضرورة إشراك القضاة في التنظيمات الشعبية، ومنددا ببعض الأحكام القضائية معتبرًا أنها دليل على انفصال رجال القضاء سياسيا عن المجتمع، ومستغربا من أحكام تصدر بالبراءة لأن تفتيش المتهم كان باطلا، معتبرا أنه لو كان هناك التحام بين القضاة وجماهير الشعب لاختلفت الأحكام ـ هكذا بالنص، وقائلا إن ابتعاد القضاة عن نضال الشعب أضر بالعدالة، وإن من رجال القضاء مَن طالبه بأن يكون لهم شرف المشاركة في العمل السياسي، وإنه سيفكر في أسلوب المشاركة.
ولأن أمين عام الاتحاد الاشتراكي لا يمكن أن يكتب كلاما خطيرا كهذا دون أن يكون معبرا عن توجهات جمال عبد الناصر شخصيا، فقد كان لا بد أن يرحل عصام حسونة وزير العدل الرافض لهذا العبث الخطير بالسلطة القضائية، حتى وإن كان قد عبر عن رفضه في صيغة تحفُّظ مهذب، ليتم استبعاده فعلا في ٢٠ مارس ١٩٦٨ بعد سلسلة تقارير ضده من أعضاء التنظيم الطليعي، ليظهر إصرار عبد الناصر على المضي في سياسته تجاه القضاء والتي أعلنها علي صبري قبل وقوع الهزيمة، وهو ما يثبت أن درس هزيمة ٥ يونية المرير لم يلفت انتباه عبد الناصر إلى أهمية استقلال القضاء وفصله عن أي تأثير من السلطة التنفيذية، وأن ذلك ليس رفاهية، بل شرط من شروط النصر والتقدم. ولعلك لن تستغرب إذا عرفت أن مَن حل محل عصام حسونة لم يكن سوى محمد أبو نصير الذي استغل منصبه في التنظيم الطليعي لتنشيط دور التنظيم داخل القضاء، ليصبح للتنظيم داخل القضاء قيادة عُليا ضمت محمد أبو نصير والمستشارَيْن محمد الصادق مهدي وعلي شنب وعمر شريف وعبد الحميد الجندي، ومن النيابة علي نور الدين، ومن قضايا الحكومة إبراهيم هويدي وعبد الحميد يونس، وانضم لهم بعد فترة المستشار علي كامل مستشار الاتحاد الاشتراكي، وآخرون.
من بين الوثائق الخطيرة التي يقدمها الدكتور حمادة حسني في ملاحق كتابه، توقفتُ بأسىً بالغ عند تقرير شديد الدلالة قام بكتابته بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٩٦٨ القاضي عبد الحميد الجندي، الذي كان وقتها رئيس محكمة السويس، رفعه لعبد الناصر شخصيا عارضا فيه تصوره لمظاهرات الطلبة في المنصورة والإسكندرية، وسأتركك لتأمل بعض فقراته التي ستذكرك بما نقرؤه ونسمعه هذه الأيام في وصف مظاهرات طلبة الجامعة لترى كيف تقدمنا إلى الخلف. يقول القاضي الجندي في تقريره: «إن الطلبة كانوا أداة لتنفيذ مخطط مرسوم وجاء قانون التعليم فرصة سانحة للتحرك المحموم. يؤكد ذلك أن معهد المنصورة الديني، وهو لا صلة له بقانون التعليم، كان أول من مارس أسلوب الشغب والتخريب. إن هذه الحوادث تؤكد أن كثيرًا من قطاعات شعبنا تفتقر إلى الوعي السياسي. كثيرون يفهمون الحرية أنها الفوضى والخروج على القانون، الأمر الذي يحتم أن يكون الوعي السياسي هو القاعدة الأساسية لممارسة الديمقراطية حتى لا تكون الحرية سبيلا للانقضاض على الثورة، وأنه لا يتصور أن يحدث أي عمل من شأنه التأثير على سلامة الجبهة الداخلية وأن يمر بغير عقاب وإجراءات رادعة». ثم تأخذ الحماسة الطليعية القاضي الجندي ليقوم بالإبلاغ عن محمد حسنين هيكل ـ مرة واحدة ـ متهما مقالاته، التي كان يكتبها بالاتفاق مع عبد الناصر لتهدئة الجبهة الداخلية، أنها «مقالات نقدية تزيد من حرارة الجماهير وتُضعف قدرة الجماهير على الصمود وتجعلها سهلة الانقياد لمحاولات التضليل». ويقوم في نفس التقرير بالإبلاغ عن زميله سعد عقبة وكيل النيابة قائلا إنه: «جاء إلى نادي القضاة في السويس مرددا بعض عبارات

هيكل»، ومعتبرا أن ما حدث في الماضي مسئولية القيادة السياسية». وإنه قال إنه سيخوض انتخابات نادي القضاة مستقلا عن أي اتجاه سياسي، لكنه أعلن له أمام جميع الزملاء أنه «لا بد من أن نخوض المعركة تحت شعارنا الذي نؤمن به؛ وهو شعار الناصرية».
ولو اقتصر نشاط هذه المجموعة من القضاة على كتابة التقارير التحريضية لهان الأمر، لكن الأدهى والأمرّ أن «أبو نصير» بدأ يدعو في اجتماعاته مع القضاة لعدة مطالب سياسية ترغب فيها الدولة، أخطرها فصل النيابة العامة عن القضاء وضمها إلى رئاسة الجمهورية، وضم القضاء والقضاة لتنظيم الاتحاد الاشتراكي لتكون عضوية القاضي في الاتحاد واستمرار تلك العضوية شرطا أساسيا لازما لاستمراره في منصبه، فإذا رأت لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكي إسقاط العضوية عنه اعتبر مفصولا من القضاء. وتشكيل المحاكم من قاضٍ وعضوين من عامة الشعب من أعضاء الاتحاد الاشتراكي، وتكون الأحكام في القضايا بالأغلبية. وبدأ أبو نصير يروج هذه القرارات بين القضاة واعدا إياهم في حالة عدم معارضتهم هذا المشروع بمزايا مادية مثل صرف بدل طبيعة عمل وبدل مكتبة واشتراك مجاني في النوادي والقطارات وصرف سيارات حكومية بسائق. وكما يروي حمادة حسني فإن ما قاله استفز القضاة في أحد اجتماعاته بهم بنادي القضاة، ليتصدى له المستشار محمد إبراهيم أبو علم قائلا: «سيدي الوزير جئت إلينا تخاطب أحط الغرائز فينا، جئت ترشونا بمنافع مادية رخيصة وزائلة، نحن قضاة لا نُفرط في مبادئنا لحظة واحدة ونرفض الرشوة، ولو كانت الحكومة مصدرها، ونرفض التمتع بأي استثناء نتميز به عن باقي أفراد الشعب، ونطالب بإلغاء الامتيازات الممنوحة لفئات أخرى تطبيقا لمبدأ المساواة»، لتضج القاعة بالتصفيق، وتبدأ فصول مواجهة حادة بين دولة عبد الناصر والقضاة أصبحت معروفة فيما بعد باسم «مذبحة القضاء».
كان عبد الناصر مستفَزا بشدة في تلك الفترة من قيام بعض القضاة بإصدار أحكام بالبراءة في قضايا سبق أن تحدث عنها في خطبه موجها الإدانة لمن اتهموا فيها أمام الشعب. ويضرب الدكتور حمادة حسني مثالا على هذه القضايا بعدة قضايا، الأولى قضية الفساد في مشروع مديرية التحرير التي تم تقديم متهم فيها ككبش فداء هو الدكتور أحمد السمني لكي لا تلتصق التهمة بالضباط الذين يديرون المشروع، وقال عبد الناصر في خطاب له لاعبًا دور القاضي والجلاد بالنص: «وجبنا أستاذ في كلية الزراعة ليدير المشروع، ولكنه اختلس أمواله ويحاكم الآن أمام القضاء»، ليفاجأ هو وغيره بعد عدة أيام بمحكمة يرأسها المستشار رياض لوقا وعضوية المستشار عبد الخالق فريد ـ ابن الزعيم محمد فريد بالمناسبة ـ والمستشار جمال المرصفاوي، تحكم ببراءة الدكتور السمني، ليعتبر عبد الناصر ذلك الحكم خروجا عن الخط السياسي للدولة.
كان هناك أيضًا قضية السفير أمين سوكة الذي اتُّهم بالتجسس وحكم ببراءته في مارس ١٩٦٩ أمام دائرة يرأسها المستشار سعيد كامل. أما القضية الأكثر إثارة لغضب عبد الناصر فقد كانت قضية المستشار محمود عبد اللطيف الذي تم اتهامه بمحاولة قلب نظام الحكم، وثبت للمحكمة التي رأسها المستشار حلمي قنديل كذب شاهد الإثبات لعجز المتهم عن حمل الآلة الطابعة للمنشورات التي زعم الشاهد أنه كان يحملها، فحكمت المحكمة ببراءته، ليكتب عبد الناصر ورقة، تم ضبطها فيما بعد في عهد السادات في قضية مذبحة القضاء، مكتوبا عليها بخط يد عبد الناصر «قضاة أمين سوكة وقضاة محمود عبد اللطيف بره». وهو ما حدث بالفعل عندما تم عزل جميع هؤلاء القضاة في مذبحة القضاء.

ولم يكتفِ عبد الناصر بذلك، بل استخدم سلطته كحاكم عسكري وقام بالتأشير بإلغاء الحكم ببراءة المستشار محمود عبد اللطيف وأمر بإعادة المحاكمة مرة أخرى، لتعاد أمام دائرة أخرى برئاسة المستشار عبد العزيز أبو خطوة، وعندما طلب المحامون وعلى رأسهم المحامي الشهير عبد العزيز الشوربجي نقيب المحامين تأجيل القضية، فوجئوا برئيس المحكمة يحكم بالبراءة فورًا، قبل أن يغادر رئيس المحكمة فورا ليستقل تاكسي ذاهبا إلى وزير العدل مقدما استقالة مكتوبة نصها: «بيدي لا بأيديكم، فلن أمكنكم من إرهاب القضاة من جديد بعزلي»، وهو ما جعل عبد الناصر بعدها يطلب ملف القضية ويقوم بالتأشير على الحكم بخط يده كاتبًا «يبقى محمود عبد اللطيف في السجن حتى الموت»، وهو ما حدث بالفعل، فقد بقي محمود عبد اللطيف مسجونا حتى موت عبد الناصر، ليتم بعدها الإفراج عنه تنفيذا لحكم القضاء بالبراءة، وهو ما حدث أيضًا للسفير أمين سوكة الذي قضى سنتين في السجن برغم حصوله على البراءة.
لذلك لم يكن غريبا في ظل عبث كهذا، أن يقوم علي صبري بتجاوز الأعراف القضائية، ويقوم بتعيين ثمانية من أعضاء التنظيم الطليعي في النيابة العامة، وتصدر لهم قرارات جمهورية بذلك، ويتم إدراج وظائف لهم في الموازنة، دون التقيد بترتيب التخرج، بل ووصلت المهزلة حدها الأقصى عندما اتضح أن أحدهم لم يكن من خريجي كلية الحقوق أصلا، والغريب أن من برر هذا القرار العجيب وقتها كان أنور السادات عندما أثير الموضوع في مجلس الأمة، حيث اعتبر أن «هؤلاء هم الذين يتصدون بكل قوة لقوى الثورة المضادة وفلول الرجعية والإقطاع والأحزاب السابقة والإخوان»، قبل أن تدور الأيام والليالي، ويفتح السادات في ظل رئاسته ملف مذبحة القضاء ويقوم بإنصاف كل القضاة الذين أطاح بهم عبد الناصر لقيامهم بتحدي رغبته في سيطرة الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي على القضاء، وتلك قصة أخرى، لا بد من روايتها للتأمل في بدايات سعي الدولة للسيطرة على القضاء. وأظن ذلك سيساعدك في فهم كيف أصبحنا «زي ما انت شايف».

(٤)

لكن كيف يمكن كحاكم، أن تحقق السيطرة الكاملة على القضاء الذي يزعجك استقلاله عن السلطة التنفيذية التي تهيمن عليها، وتضايقك قدرة بعض قضاته على التحرك بعيدًا عن التعليمات والأوامر، ويستفزك عدم اكتراث بعض رجاله بما تمنحه لهم من ترغيب وما تمارسه عليهم من ترهيب؟
سؤال صعب لكن إجابته في مصر بسيطة جدًّا: أصدِر قانونا يجعل لك الحق في التحكم في مفاصل حركة القضاء، فيصبح من حقك تعيين القضاة الذين ترضى عنهم في مواقع مهمة، وإزاحة القضاة الذين يقلقونك إلى مواقع غير مؤثرة، والتحكم في أحكام الذين يفاجئونك بأحكامهم من خلال التحكم بشكل قانوني غير ملحوظ في مَن سينظرونها في مراحل التقاضي التالية. ولا تنسَ بعد ذلك كله أن تطلق على ذلك القانون اسم «قانون إصلاح القضاء»، وأن تصدره في ظل قصف إعلامي شرس يحذر الشعب من الهجمة الشرسة على الوطن والمؤامرة الخارجية ومصر المستهدفة من خونة الطابور الخامس.
هذا بالضبط ما فعله جمال عبد الناصر بعد أن تلقى نظامه ضربة قوية بنتائج انتخابات نادي القضاة التي أجريت في ٢١ مارس ١٩٦٩، والتي حشد وزير «عدله» محمد أبو نصير كل إمكانيات الدولة لإنجاح قائمة من قضاة التنظيم الطليعي، والتي نافستها قائمة من أنصار استقلال القضاء ـ لم يكن ذلك الشعار قد تم ابتذاله بعد ـ يقودها المستشار ممتاز نصار، لتجيء نتيجة

الانتخابات مفاجئة للجميع، حيث سقطت قائمة السلطة سقوطا ذريعا، ولم ينجح من أعضاء المجلس الخمسة عشر اسمٌ واحد ينتمي إلى مرشحي قائمة التنظيم الطليعي، ليقرر عبد الناصر بعد هذه الخسارة الفادحة أن يذهب في تصعيده مع القضاة إلى أبعد مدى، طبقا لما يكشفه الدكتور حمادة حسني، حيث بدأت على قدم وساق إجراءات إعادة تشكيل الهيئات القضائية التي عُرفت فيما بعد باسم «مذبحة القضاء»، والتي تم الإعداد لها خلال عشر اجتماعات سرية عقدتها لجنة من قضاة التنظيم الطليعي عقب إعلان نتائج الانتخابات وحتى ٩ يولية ١٩٦٩، حيث كانت تجتمع بمكتب سامي شرف يوميا بإشراف من أنور السادات رئيس مجلس الأمة وقتها، وبرئاسة علي نور الدين النائب العام، وعضوية كل من المستشار عمر شريف وعلي كامل، لتتم بعد انتهاء كل الترتيبات إقالة الوزير محمد أبو نصير، بعد أن أدى دوره كاملا، لكي تخرج القرارات غير مرتبطة بشخصه، الذي كان قد أصبح خصما لقضاة مصر وناديهم المنتخب، وليصبح واضحا للجميع أنها صادرة من عبد الناصر مباشرة، حتى إن سيد مرعي الذي كان من أبرز رجال عبد الناصر يروي أنه عندما طلب منه محمد حسنين هيكل رأيه فيما سيتخذه عبد الناصر من إجراءات ضد القضاة، طلب منه تحذير عبد الناصر من أن ينساق إلى تلك الإجراءات المعتمدة على بيانات خاطئة تلقاها من محمد أبو نصير وشعراوي جمعة. وبرغم أن هيكل أبلغ عبد الناصر وجهة نظر مرعي كاملة، إلا أن عبد الناصر أصر على تنفيذ إجراءاته، التي لا زالت مصر تدفع ثمنها حتى الآن، كما سنرى.

في ٣١ أغسطس ١٩٦٩ صدرت القرارات الجمهورية بالقوانين ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤ لسنة ١٩٦٩ حاملة اسم قوانين إصلاح القضاء، حيث تم بناءً عليها إعادة تشكيل الهيئات القضائية بعد استبعاد ١٨٩ من رجال القضاء من الخدمة من بينهم جميع أعضاء مجلس إدارة نادي القضاة المنتخب بقرارات حملت توقيع وزير العدل الجديد مصطفى كامل إسماعيل قبل أن يحلف اليمين أصلا، كما قضت القرارات بإنشاء محكمة عليا تهدف إلى «تمكين القضاة من المشاركة لحمل أمانة حماية الثورة» ـ ليس مهما أن يكون هناك معنى حقيقي لهذا الكلام، المهم أن تكون المحكمة جاهزة للحكم في القضايا التي تصدر فيها الأوامر قبل النظر فيها ـ كما أنشأت القرارات مجلسا أعلى للقضاء يشرف على الهيئات القضائية وينسق ما بينها، وأباحت الحكومة لنفسها سلطة إصدار قرارات بإعادة تعيين أعضاء الهيئات القضائية في وظائفهم أو في وظائف أخرى للحكومة والقطاع العام.

كما تم بالإضافة إلى كل ذلك تعيين مجلس إدارة لنادي القضاة بدأ على الفور ـ طبقا لسِلو بلدنا الدائم ـ بتعليمات من بعض رموز السلطة في البحث عن أي مخالفات مالية وإدارية يمكن محاسبة المجلس المنتخب عليها، وهو بحث لم يسفر عن شيء بالطبع. بل ووصل الحصار للقضاة المنتخبين إلى حد محاولة منعهم من ممارسة المحاماة داخل البلاد، ومنعهم من السفر خارج البلاد بعد أن حصلوا على عقود عمل هناك، حتى إن أحد أبرز هؤلاء القضاة وهو المستشار يحيى الرفاعي ـ الذي حمل لقب شيخ القضاة فيما بعد ـ تم إنزاله من الطائرة قبل قيامها وأُلغي سفره نكاية وظلما، ليتم منعه من العمل كمحامٍ في مصر، فيذهب إلى مكتب النائب العام معلنا أنه سيضطر للعمل كسائق تاكسي لسيارته الخاصة. واضطر هؤلاء القضاة إلى أن يخوضوا حربا قانونية شرسة من أجل الحصول على حقهم في العمل كمحامين، قبل أن تدور الأيام ليتم إنصافهم ويصدر في عهد أنور السادات ـ وبالضالين ـ أحكام قضائية تقرر عودتهم للخدمة واحتساب أقدمياتهم، فضلا عن تحول أغلبهم إلى رموز وطنية مشرفة في العمل النيابي والقانوني، برغم قيام الإعلام الحكومي بمحاربتهم وتشويههم وطمس سيرتهم في العهود المتعاقبة وحتى الآن.

بعد أن تخلص عبد الناصر من المناوئين له في القضاء، جاء الدور على رجاله في التنظيم الطليعي في أول اجتماع عقده الاتحاد الاشتراكي في ١١ إبريل ١٩٧٠، والذي حمل اسم الاجتماع الأول للجنة العامة للمواطنين من أجل المعركة، ليقف أحدهم وهو المستشار محمد السيد الرفاعي عضو التنظيم الطليعي معلنا لعبد الناصر أنه يتحدث نيابة عن رجال القضاء والنيابة، مبلغا الرئيس رغبتهم الشديدة والملحة في الانضمام للاتحاد الاشتراكي «لأنه ليس عملا سياسيا ولكنه عمل قومي». وطبقًا لمحضر الاجتماع الذي ينشره الدكتور حمادة حسني، يبدو عبد الناصر وكأنه مندهش مما قاله رجله الوطني، فيعلق ـ ضمن كلام كثير حاول فيه تبريره لقراراته الغشيمة ـ قائلا: «ما هو ده اللي أنا بِدي أقوله، إن ده عمل قومي مش عمل سياسي... وأنا في الحقيقة أرى أن القضاة يجب أن يشتركوا في العمل القومي؛ لأنه طالما أنا ما باقولش الاتحاد الاشتراكي حزب، لأنه لا يمثل طبقة أو فئة أو مصلحة، وهو تحالف قوى الشعب كلها، وهذا الموضوع كان موضوعًا لمعركة وهمية، كانت موجودة في نادي القضاة واستمرت من أول سنة ١٩٦٨ لغاية منتصف ١٩٦٩، وأنا كنت متتبع ما يحدث وكل كلمة بيقولها كل واحد، وكنت شايف العملية دي، يعني المؤلم فيها إنها جت في هذه الأوقات اللي إحنا بنمر فيها. والحقيقة اللي حصل بعد كده وهو رأس المعركة، إنه هل ينضم القضاء للاتحاد الاشتراكي؟ والحقيقة هي كانت معركة فارغة، ويعني كانت عملية مفتعلة لأهداف غير رأس الموضوع، ولكن بنحل هذا الموضوع».

وإذا كنت متابعا للخطاب السياسي والإعلامي للنظام الحالي، فلعلك لن تستغرب حديث عبد الناصر بالأمس القريب ـ الذي تعيده مصر اليوم دون حتى لمسة ابتكار ـ عن توقيت المعارضة الذي لا يراعي ظروف البلاد، وعن العمليات المفتعلة والأهداف الخفية، ليقوم بمواصلة تشويه وطنية معارضيه حتى بعد أن بطش بهم ماديا، فيبدو للشعب الذي يثق في حكمة قائده أن دفاع أولئك القضاة عن استقلال القضاء لم يكن إلا مساعدة للعدو الصهيوني في معركته ضد مصر، برغم أن بيانات مجلس نادي القضاة المنتخب كانت تحمل كلاما شديد الوضوح عن كون سلاح القضاء المستقل أمرا مهما في معركة مصر ضد العدو الصهيوني لتحرير أرض مصر، ومع ذلك يغفل عبد الناصر ـ متعمدًا ـ الإشارة للمواقف الوطنية لهؤلاء القضاة، ليتحدث فقط عن ألمه من توقيت إثارتهم للمعركة، التي يصفها بأنها فارغة ووهمية، دون أن يقوم بتفسير لماذا خاضها إذن حتى أبعد مدى إذا كانت فعلا فارغة ووهمية؟ فهو يعرف أن أحدًا لن يجرؤ على أن يسأله سؤالا كذلك، فكيف يعلو صوت بالتساؤل والتشكيك فوق صوت المعركة التي ليس من حق أحد أن يحددها سوى القائد البطل الملهم، حتى لو كان مهمًّا من أجل المعركة أن يسأله أحد بكل شجاعة ما الذي استفادت منه البلاد من قيامه ـ كما اعترف ـ بمتابعة كل كلمة تقال في نادي القضاة في ظل أوقات عصيبة يفترض أن لا ينشغل فيها إلا بمعركة تحرير الأرض التي كانت بالفعل قوات الجيش تقدم وقتها بطولات باسلة تحت قيادته؟ وكم كان سيكون رائعا لو واصل التكفير عن خطاياه بتفكيك التنظيم الطليعي الذي ساهم في إفساد البلاد، وبإدراك أهمية استقلال القضاء؟ لكنه على عكس ذلك تفرغ في فترة شديدة الصعوبة لإصدار قرارات هدمت فكرة استقلال القضاء من أساسها بشكل لم يعد بعدها القضاء المصري مستقلا أبدًا.

في ختام دراسته لتجربة التنظيم الطليعي مع القضاء يشير الدكتور حمادة حسني إلى الآثار بعيدة المدى التي ألحقتها تلك التجربة باستقلال القضاء قائلا إن «الساسة الذين حكموا مصر بعد عبد الناصر لم يكونوا أحرص على استقلال القضاء ولا على حيدته، فقد عاد القضاة المفصولون بعد تباطؤ وتلكؤ، عاد البعض منهم دون الآخرين بقانون صدر، ثم مورست ضغوط لتحرك الرأي

العام ورُفعت الدعاوى، وحكمت محكمة النقض للمستبعدين، فصدر قانون آخر بإعادة الجميع، كما صدر قانون السلطة القضائية برقم ٤٦ لسنة ١٩٧٢، وقانون مجلس الدولة برقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢، وأبقيا على هيمنة وزارة العدل على الهيئات القضائية من خلال المجلس الأعلى للهيئات القضائية المقضي ضمنا بانعدام قرار إنشائه، وأبقيا على دور وزارة العدل في أوجه إشراف فعالة ومؤثرة على القضاة والمحاكم، بالمخالفة الصارخة لمبدأ استقلال القضاء والقضاة المنصوص عليه في كافة الدساتير المصرية والمقارنة مما كان له أثره في ضياع ضمانات هذا الاستقلال».

أما ما قام به أنور السادات من إعادة القضاة لمناصبهم وإلغاء قوانين منع التقاضي والإفراج عن أموال المعتقلين السياسيين وردّ أموال من خضعوا للحراسة، فيعتبره الدكتور حمادة حسني نوعًا من اتباع نصيحة الخليفة أبي جعفر المنصور حين قال لابنه ما معناه: «لقد كنتُ استصفيتُ أموالا للناس، وجعلت في خانتي ثبتا بما استصفيت، فإذا توليتَ الخلافة فأعِدْ للناس حبوسهم، حتى يبدو أنهم في عهد جديد». وهو ما قام به السادات ومن خلفه مبارك، ليبدو للناس أنهم في عهد جديد، في حين أن أي قراءة متأملة للقوانين التي أصدرها كل منهم تبين أن التغيير الذي حدث هو استبدال نموذج المواجهة الصريحة الذي اتبعه عبد الناصر، والذي يجعل الأفراد يتجمعون ويكونون أكثر تماسكا، ليتم اتباع منهج جديد يصفه الدكتور حمادة حسني بأنه منهج الإفساد والغواية «الذي يفرق الجماعات ويجعل المعارك فردية ويجعل ميدانها لا خارج النفس ولكن داخل الجوانح والجوارح، ويحيل المعارك العامة إلى معارك ذاتية نفسية... فيستمر ضمان أحادية السلطة في عهدَي السادات ومبارك برغم الشكل التعددي الذي ظهرت به الحياة الحزبية، ويتم ضمان بقاء فردية القرار رغم المظهر التعددي الذي يتخذه، ويتم ضمان أن تصدر الإرادة الجماعية لأي مجلس أو هيئة معبرة عن المشيئة الفردية للحاكم.فإذا كان نظام عبد الناصر لا يقر شرعية وجود أحزاب متعددة، فقد جاء النظام الذي تلاه ليعترف بالتعددية الحزبية نظاما قانونيا مشروعا، ولكن بعد إفراغ الأحزاب من فاعليتها السياسية لتصبح مجرد لافتات على مقار دون فاعلية، بعضها ملحق بالدولة وبعضها يضيق عليه الخناق ويحرم من الوجود الفعلي، ليظل النظام في حقيقته نظام حزب واحد من الناحية الفعلية... وليبقى النظام مهتما دائمًا بكيفية الإبقاء على الهياكل والمباني، مع الاستيعاب للوظائف والمعاني، وكيفية الإبقاء على الأشكال مع تفريغ المحتوى، وكان لهذه الأساليب ولما استخدم فيها من أدوات، مساسٌ بالسلوك الفردي والجماعي، مما أصاب التكوين المؤسسي للدولة بأنواع من الوهن وفقدان المناعة، والاعتياد على مجافاة القول للفعل وتآكل المعاني، وتسمية الأمور بغير أسمائها، وإطلاق الأسماء على غير مسمياتها».

لم يكن الدكتور حمادة حسني يعلم وهو يكتب كلامه المرير هذا، أن نظام حكم العسكر المعدل الذي أطاحت ثورة شعبية عارمة في الخامس والعشرين من يناير برأسه الممثل في شخص حسني مبارك، سيقاوم بشراسة مستميتة لإنشاء نظام عسكري بقناع جديد، يحرص فيه على تجديد أحلام جمال عبد الناصر في السيطرة التامة على البلاد والعباد، ويستفيد في نفس الوقت من أخطاء نظامَي السادات ومبارك التي جعلت رجال النظامين ينشغلون بطموحات الفساد عن أهمية السيطرة، وهو ما يراهن النظام الحاكم الآن على النجاح فيه.

(٥)

حين يكون الحاكم معتمدا على قوة البطش وحدها مع تعطيل كامل لقوة العقل، لا يصبح همه أن يكون لكل مواطن مخبر، بل أن يصبح كل مواطن مخبرا، وباختياره.

في أكتوبر ٢٠١٤ كتب عبد الرحمن زيدان منسق جبهة «ثوار» بمنطقة شرق القاهرة على صفحته بالفيس بوك شهادة تداولها الكثيرون، روى فيها تفاصيل واقعة شهدها خلال ركوبه الميكروباص عائدا إلى منزله، حيث فوجئ بامرأة من ركاب الميكروباص تهاجم السيسي والحكومة والداخلية بشراسة وسط استغراب الجميع، أحد الركاب تحمس لما قالته السيدة التي كان يبدو أنها قد تجاوزت الأربعين من عمرها، وتجاوب معها ليبدأ هو الآخر في مهاجمة السيسي والداخلية والحكومة آخذًا راحته حبتين، وقبل أن يتدخل عبد الرحمن في الحديث فوجئ بالسيدة تطلب من السائق أن يتوقف إلى جوار كنيسة مر عليها الميكروباص، وما إن توقف الميكروباص حتى أخرجت رأسها من الشباك لتنادي على حرس الكنيسة صارخة: «الحقوني فيه إخواني إرهابي في الميكروباص»، ليجري الحرس عليها ويبدءوا في ضرب الشاب وإنزاله من الميكروباص لتصحبهم السيدة لكي تدلي بشهادتها على فعلته الشنعاء، ناظرة إلى كل من في الميكروباص بتحدٍّ وتقول لهم بفخر شديد: «يلَّا خليها تنضف»، ويتحرك الميكروباص وسط ذهول الجميع وأولهم عبد الرحمن، الذي أنهى ما كتبه بنصيحة زملائه المشغولين حتى أذقانهم في الدفاع عن زملائهم الطلاب المعتقلين وإعاشتهم والتعريف بقضيتهم، بأن يوفروا مجهودهم لما هو أهم، ولا يتكلموا في السياسة في المواصلات، لكي لا تكون هذه طريقة أمنية جديدة تم اختراعها لاصطياد كل من تسول له نفسه الاعتراض على ما يجري في البلاد.

للأسف لم تتحول هذه «السيدة ـ النموذج» إلى مخبر يستدرج ركاب الميكروباص لتسليمهم للشرطة، لأن هناك جهة أمنية ما قامت بتجنيدها، بل أظنها فعلت ذلك من دافع إحساسها بالمسئولية الوطنية التي تحتم عليها المشاركة في تنظيف البلد من كل الخونة الذين يعرقلون تقدمها ويزعزعون استقرارها. لا تنسَ هنا أن المسألة بدأت قبل حوالي عام ونصف بخطوط هاتفية ساخنة أعلنت عنها أجهزة الدولة داعية المواطنين الشرفاء لأن يبلِّغوا عن جيرانهم ومعارفهم المنتمين إلى جماعة الإخوان ومناصريهم. وبعد مذبحة رابعة اتسعت دائرة تحريض النظام الغشيم لمواطنيه الشرفاء لتشمل من أصبح الإعلام يطلق عليهم «الطابور الخامس»، مدرجا تحت هذا المسمى كل الذين يعترضون على إدارة البلاد بغباوة ودموية أيا كان خلافهم مع جماعة الإخوان، ولكي تفهم ما الذي يجعل سيدة عادية تقوم بتصرف غريب كهذا، حاول أن تحسب عدد البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي ظهر فيها خبراء استراتيجيون وكُتاب أمنيون ومذيعون أشاوس لينصحوا هذه السيدة وملايين المواطنين من أمثالها بألا يترددوا ولو لثانية في الإبلاغ عن كل من يسعى لإسقاط الدولة المصرية، لأنهم سيصبحون عندها شركاء في الجريمة، لنبدأ منذ تلك اللحظة نقرأ عن وقائع مؤسفة يقوم فيها الأهالي والأقارب والجيران والزملاء بالإبلاغ عن بعضهم البعض، بدءًا من تلك الواقعة التي أبلغت فيها أم عن ابنها لأنه ينتمي إلى حركة «٦ إبريل» مصرة على حبسه، وانتهاءً بإفتاء بعض مشايخ السلطان بوجوب أن يبلغ الابن عن أبيه إذا وجده يتآمر ضد الدولة المصرية، وهي عبارة مطاطة يمكن أن يدخل تحتها أي شيء بدءا من تصنيع قنبلة ووصولا إلى ذكر أمهات المسئولين بسوء.

اسأل نفسك وأنت تتأمل كل ذلك سؤالا مهما: يا ترى هل سيشعر أي مواطن مصري بحرج إذا قام بالإبلاغ عن أقرب الناس إليه لأنه جاسوس إسرائيلي؟ بالطبع لا، سيشعر بالفخر الشديد لأنه أدى واجبه في حماية وطنه، طيب، لماذا إذن لا يشعر بنفس الفخر إذا قام بالإبلاغ عن قريب أو غريب لأنه يهاجم عبد الفتاح السيسي في المواصلات العامة أو في المقاهي أو في القعدات الخاصة؟ ألم تقنعه أجهزة الإعلام بكل من يظهر فيها من مذيعين وخبراء وكُتاب ومثقفين ـ وبين هؤلاء نسبة

كبيرة من معارضي مبارك الشرسين ورموز «الساورة» ـ بأن هناك مؤامرة دولية كبرى تهدف لإسقاط الدولة المصرية ولتفريق الجيش والشرطة والشعب عن بعض ـ على حد تعبير السيسي في خطاب «إوعوا» الشهير الذي ألقاه عقب مذبحة مروعة وقعت في سيناء ـ فلماذا إذن ينتظر المواطن حتى يمسك بقريبه أو بجاره أو برفيقه متلبسا بعلبة الحبر السري أو جهاز الإرسال الذي يثبت تورطه في التخابر المباشر؟ ألم يقنعوه أن هناك شيئًا اسمه حروب الجيل الرابع يشترك فيها كل من يقوم بالنقد والسخرية والاعتراض وأنها لا تقل خطورة عن حروب الدبابات والطائرات؟ فلماذا لا يتحول إلى جندي يدافع عن بلاده بما أمكنه. ولماذا لا يتحول كل ميكروباص وكل قهوة وكل بيت إلى جبهة معركة يجب أن يسقط فيها الخونة الذين يتآمرون على مصر ولو بالشتيمة، حتى لو كان قد ثبت علميا أن «الشتيمة ما بتلزقش»؟

ولعلك الآن بعد استعراضنا لوثائق التنظيم الطليعي التي قدمها الدكتور حمادة حسني في كتابه «عبد الناصر والتنظيم الطليعي السري»، تعلم أن هذا التوجه اللعين، ليس وليد أيامنا السوداء هذه، فقد بدأ مبكرًا جدًّا حين قرر جمال عبد الناصر أن سيطرته على حكم البلاد لن تتحقق إلا بمصادرة المجال السياسي، فألغى التعددية الحزبية لينشئ كيانا سياسيا مشوها اسمه الاتحاد الاشتراكي، يحتكر وحده أي عمل سياسي في مصر، وقام بتأميم الصحف لكي لا يُسمع في البلاد كلها صوت غير صوته، وقام بالتنكيل المباشر بكل من يجرؤ على الاعتراض والتظلم والنقد، ولم يكتفِ بكل ما لديه من أجهزة أمنية ومخابراتية عاتية، بل أضاف إليها التنظيم الطليعي السري الذي ضم إليه صفوة الكُتاب والمثقفين والفنانين والسياسيين الذين تحولوا باختيارهم من قادة رأي إلى كَتَبَة تقارير. وبالطبع لم يكن أن يتحقق لعبد الناصر كل ذلك، إلا بعد إقناع المواطن المصري ـ عبر حملات إعلامية وإرشادية مكثفة ـ بأن الديمقراطية والحياة النيابية والتعددية الحزبية وتداول السلطة وحرية الصحافة كلها أشياء لعينة ستؤدي إلى تضييع وقت البلاد وتأخيرها عن ركب التقدم، وستساعد الاستعمار وأذنابه لكي يسيطروا عليها.

وفي ظل أجواء مسمومة كهذه، لم يكن غريبا أن يلجأ أعضاء التنظيم الطليعي لكتابة تقارير في أقاربهم وأصدقائهم وزملائهم، دون أن يشعروا بأدنى ذنب، بل على العكس كانوا يشعرون بالفخر لأنهم يلعبون دورهم في حماية البلاد من الأعداء والخونة. تعالَ مثلا نتأمل في الشهادة التي أدلى بها سامي شرف أحد قادة التنظيم الطليعي بعد أن تم القبض عليه في أحداث ١٥ مايو ١٩٧١، والتي قام أنور السادات فيها بالإطاحة برجال جمال عبد الناصر الذين كانوا يعوقون سيطرته على حكم البلاد، وهو ما أسماه الإعلام «الشريف» وقتها «ثورة التصحيح»، وهو اسم تحول بعد سنين قليلة إلى نكتة، خصوصًا بعد أن أصبح كوبري ١٥ مايو الذي حمل اسم تلك الثورة أشهر منها وأكثر رسوخا في الذاكرة المصرية.

في محضر التحقيق الذي نشره الدكتور حمادة حسني، ينهار سامي شرف مبلغا عن قائد التنظيم الطليعي علي صبري قائلا إنه كان يسب الرئيس السادات بعبارات غير لائقة، بينما ينفي عن نفسه تهمة معارضة السادات الذي يعتبره امتدادا طبيعيا لخط جمال عبد الناصر الذي اختاره، ولكي ينفي عن نفسه تهمة وجود علاقة وثيقة مع شعراوي جمعة وزير الداخلية وأحد أبرز قادة التنظيم الطليعي يقول في التحقيق بكل حماس: «أنا شخصيا وفي عملي لم أكن ألتزم إلا بأوامر الرئيس وبمبادئ الأخلاق، حتى لو تعارض هذا الموضوع معي أنا شخصيا، وعلى سبيل المثال في هذا الموضوع ورغم وجودي في هذا المكان من العمل فقد أبلغت أنا بنفسي عن شقيقين لي، أحدهما كان ضابطًا في الشرطة وكان ينتسب لجماعة الإخوان المسلمين، فقلت عنه إنه إخواني خطير،

ونُقل إلى المحافظات، والثاني ضابط بالقوات المسلحة وأبلغت الرئيس شخصيا عنه، وإنه بيعمل اتصالات مع ضباط اعتبرها ضارة لأمن وسلامة البلاد، وقبض عليه فعلا، وظل مقبوضا عليه فترة إلى أن أمر الرئيس جمال عبد الناصر بالإفراج عنه بدون علمي، وذلك بتكليفه الأخ محمد أحمد بالإفراج عنه بالاتفاق مع شمس بدران في هذا الوقت وإلحاقه بعمل، وعندما علمت بذلك اعترضت، فقال لي السيد محمد أحمد ليس لك أن تعترض لأن دي أوامر السيد الرئيس».
هل تتوقع أنك لو واجهت سامي شرف الآن بهذا الكلام ستلمس منه ندما على موقفه الغريب الذي جعله يزايد على عبد الناصر شخصيا، فيعترض على قيامه بإلحاق شقيقه بعمل بعد أن أفرج عنه لكي يجد مصدرا للرزق؟ لاحظ أن عبد الناصر لم يكن سيفعل ذلك إلا لو اكتشف أن أخا سامي شرف لم يكن خطيرا على النظام، وإلا لكان قد ناله عقاب حقيقي كالذي نال غيره من قتل أو حبس أو تشريد في الرزق، وهو ما لم ينجُ منه حتى رفاق عبد الناصر الذين ضحوا بأرواحهم من أجل الإطاحة بالملك، على العكس أراهنك أنك لو واجهت سامي شرف بكل هذا لوجدته يواصل فخره بما فعله، بشكل لن يقل أبدًا عن فخر السيدة راكبة الميكروباص التي سلمت جارها، ولاتّهمك الاثنان كلٌّ بطريقته بأنك أقل وطنية من أن تدرك لذة السمو عن كل الروابط الدنيوية والإنسانية، والتي تجعلك تتحول إلى جندي يحارب أعداء الوطن، حتى لو كانوا أقرب الناس إليه في الأسرة أو العمل أو الميكروباص.
بالتأكيد كان شقيق سامي شرف أسعد حظا من كثيرين لم يكتب لهم حظ الحصول على رضا عبد الناصر لينالوا أخف درجات العقاب، ومع ذلك فقد وجد مظاليم آخرون بين قيادات التنظيم الطليعي مَن يتطوع للإبلاغ عما تعرضوا له من ظلم ويطلب إنصافهم ولكن بشكل يضع أهداف التنظيم الطليعي فوق كل اعتبار حتى لو كان رد الظلم. تعالَ لنتأمل هنا ذلك التقرير الذي رفعه إبراهيم الطحاوي عضو التنظيم الطليعي إلى جمال عبد الناصر مباشرة متحدثا فيه بنص العبارات عن «رجل فدائي، إخلاصه لا حدود له، زهِد الدنيا وأقبل على العلم، ويكاد يحترق من شدة إخلاصه لبلده وحبه لسيادتكم»، هذا الرجل لم يكن سوى الدكتور يوسف والي الأستاذ بزراعة عين شمس، والذي أصبح فيما بعد وزير زراعة مبارك المزمن،ورائد التطبيع الزراعي مع إسرائيل، والمسئول بشهادة الخبراء المحترمين عن ملف التخريب المنهجي للزراعة المصرية الذي لم يفتح حتى الآن بجدية تليق بخطورته. وبعد أن يصفه الطحاوي بكل تلك الصفات المجيدة بدأ يستعرض عددا من التقارير التي كتبها يوسف والي للتنظيم الطليعي عن تفاصيل رحلة إلى أمريكا قام بها لمدة أسبوعين بدعوة من جامعة أمريكية، والتي كان من بينها تقرير عن مصريين يعيشون في أمريكا سبق اعتقالهم بتهمة الانتماء إلى جماعة الإخوان، وبعد أن تم الإفراج عنهم سافروا إلى أمريكا هربا من الملاحقات الأمنية، لكنهم حين التقوا يوسف والي أبدوا استعدادهم لموافاة مصر بكل ما وصلوا إليه من علم، والحضور لتقديم كل ما يمكنهم من خبرة، لكنهم يخافون من الاعتقال.
وبدلا من أن يعترض التقرير على ما تعرض له هؤلاء المواطنون من ظلم حرمهم من أن يعودوا إلى وطنهم، وحرم وطنهم من أن يستفيد منهم، نجد أن كل ما يهم الطحاوي في تقريره الذي نشر نصه الدكتور حمادة حسني هو أن يسأل عبد الناصر: «لماذا نفقد هؤلاء؟»، وبدلا من أن يقترح ما يكفل عودتهم إلى مصر سالمين آمنين، يقترح بقاءهم في الخارج كما هم، وتشكيل مكتب سري جدًّا في رئاسة الجمهورية «للاتصال بهم والحصول على معلوماتهم وتجاربهم وتكليفهم بأبحاث معينة تهم مصر في معامل أمريكا دون أن نتكلف مشقة وتكاليف البحث، وأن تكون مهمة هؤلاء الأشخاص الحصول على ما يمكن من أسرار علمية صناعية أو زراعية أو كيماوية، وأن يلقَّن

هؤلاء المسافرون أسلوبا للعمل الذي يحقق النجاح ثم يعودون ليترجموا ولينقلوا كل ما حصلوا عليه لخدمة بلادهم، على أن يتم التركيز على بلدان أمريكا وروسيا وألمانيا الغربية واليابان والصين وفرنسا»، مقترحا تشكيل لجنة من وزير البحث العلمي الدكتور أحمد مصطفى والدكتور يوسف والي لدراسة الموضوع سريا وشخصيا. ومع أن تقرير الطحاوي لم يُشر إلى ما سيتم اتخاذه من إجراءات لاشتغال مسئولي البلاد التي سيتم إيفاد المبعوثين إليها لكي تسلمهم تلك البلاد أعز ما تملك من أسرار علمية لوجه الله، ولم يلفت انتباه الطحاوي أصلا أن من يخرج من المبعوثين من مصر كان لا يعود ثانية إليها، لأنه يجد في تلك البلاد المتقدمة حريته وكرامته واستقلاليته وما إلى ذلك من شروط الوجود الإنساني التي كان نظام عبد الناصر يعتبرها كماليات يمكن الاستغناء عنها من أجل رضا القائد المعلم الذي تتجسد إرادة الشعب في إرادته، إلا أن عبد الناصر ـ كما لعلك تعلم من قراءة واقعنا العلمي المرير ـ لم يكن مهتما بتشكيل ذلك الجهاز المخابراتي العلمي المكون من مبعوثي مصر إلى الخارج، بقدر ما كان مهتما بمن يتخابرون داخل البلاد لتوطيد دعائم حكمه وترسيخ أسطورة القائد الذي سيرمي إسرائيل في البحر والذي سيوحد الأمة العربية من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر.

دعنا نتجاوز كل هذه التفاصيل المحزنة والموجعة، لنعود إلى جذور التفكير السلطوي التي لم نقتلعها حتى الآن من تربتنا السياسية والفكرية، ومع ذلك نستغرب لماذا لم نتقدم، كما تقدمت الشعوب التي بدأت متأخرة عنا في خوض طريق التقدم. وتعالَ لنتوقف عند لحظة مهمة من لحظات بدايات التنظيم الطليعي الذي لا زال فكره مهيمنا على مصر حتى الآن، بل ولا زال الكثير من أشخاصه مستمرين في إفسادهم للحياة السياسية حتى الآن، ولنقرأ فقرة خطيرة من نصوص محضر الاجتماع الثاني من اجتماعات التحضير للتنظيم الطليعي، وهو الاجتماع الذي انعقد في يوم ١٠ مارس ١٩٥٧، والذي نشر الدكتور حمادة نصه وصورة زنكوغرافية له في ملاحق كتابه، لنرى القائد الذي كان لا يكف عن التغني بالشعب المعلم وهو يقول في السر كلاما خطيرا يوضح فلسفته التي سار عليها في حكم البلاد حتى النهاية: «المعروف أن المجتمع المصري فاسد، عنده ميل للفساد. وعند وضع الدستور وضع في الاعتبار الوضع القائم في البرتغال. لم يكن المطلوب هو تنظيم الحزب أو كيف نصل إلى تنظيمه، ولكن المطلوب هو كيفية تجنيد البلد، تجنيد الشعب، والاتصال بالهيئات الشعبية حتى يمكن أن نسير بالبلد إلى الأمام. قد لوحظ أنه إذا لم نبنِ الأفراد بناء قويا، فإن كل بناء لا يعتمد على الأفراد يعتبر ضائعا، فالمطلوب هو أن نبني الأفراد ونبني الاتصالات، وكيف نربط الشعب بقيادة شعبية، وكيف نوصل الشعب إلى فلسفة هذه القيادة، ويجب أن يعتبر كل فرد منهم أنه مجند للدعوة».

لقد كان يمكن لجمال عبد الناصر أن يدفع مصر خطوات على طريق التقدم لكي تستفيد مما تحقق في عهده من منجزات اقتصادية واجتماعية لا يمكن إنكارها، لو كان قد أدرك فعلا المعنى الحقيقي لعبارة أن «كل بناء لا يعتمد على الأفراد يعتبر ضائعا»، لكنه للأسف الشديد تعامل مع الفرد بوصفه رقما في «المجاميع»، رقما مجهولا ليس من حقه أن يختار أو يرفض أو يعترض أو يعتقد، تعامل مع المواطن بوصفه طوبة ليس من حقها أن تعترض على المكان الذي وضعتها فيه القيادة في حائط الوطن، وهو ما قامت بفعله من قبله كل الأنظمة التي سحقت حرية الفرد من أجل أهداف سامية وعليا وعظمى، فبنت «بناءً شعبيا» بدا من الخارج شامخا وضخما ومهولا، ولم تنكشف حقيقة هذا البناء إلا بعد أن جاءت التحديات الحقيقية التي كشفت هشاشته وخواءه وعجلت بانهياره، ليدفع ثمنَ ذلك الانهيار الجميع، بما فيهم أولئك الذين تخلوا عن حرياتهم وهم يظنون أنهم

يحمون أوطانهم من الأعداء والخونة، سواءً كانوا أصدقاء أو أقارب أو جيرانًا أو زملاء ميكروباص.

(٦)

كان «أينشتاين»، طيّب الله ثراه، قد قال في تعريف الجنون إنه «فِعل نفس الشيء مرتين بنفس الأسلوب وبنفس الخطوات مع انتظار نتائج مختلفة». وأظن أنك لو كنت قد سألته عن تعريف الوساخة لقال لك إنها: «قمع وتخوين كل من يحذر الناس من خطورة تكرار الأفعال التي قادتهم من قبل إلى الهزائم الحضارية بنفس الأسلوب ونفس الخطوات، منتظرين أن يأتيهم النصر من وراء ذلك، تمامًا كما انتظر الأغبياء السَّمنة من إيد النملة». مشّيها إيد النملة.

لماذا منعت الرقابة العسكرية مذكرات
أحد أبطال حرب الاستنزاف؟

«كيف يمكن أن يتم على مدى سنوات منع نشر مذكرات واحد من الجنود الأبطال، الذين شاركوا في ملحمة حرب الاستنزاف التي دارت على شط قناة السويس، بحيث تصبح عرضة للنسيان، بدلا من أن تصبح كتابا مرشحا للقراءة في كل المدارس والجامعات، ويتم تحويلها إلى فيلم سينمائي ملحمي يخلد معنى رفض الهزيمة؟».

(١)

لن تجد إجابة هذا السؤال محيرة، وأنت تقرأ كتاب «مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس» الذي كتبه الجندي أحمد حجي، خلال توليه الشئون الطبية في الكتيبة التي خدم بها على جبهة القناة بدءا من إبريل ١٩٦٩، في واحدة من أخطر فترات حرب الاستنزاف ضراوة وعنفا، والذي منعت الرقابة العسكرية صدوره في عام ١٩٧٢، لتنشره دار الفكر التي كان يمتلكها المثقف اليساري الكبير طاهر عبد الحكيم. لكن نشر الكتاب بعد سنوات طويلة من حرب أكتوبر، لم يجعله يلقى الرواج الذي يستحقه، ليحاصره التجاهل والنسيان، فلا يأتي ذكره إلا حين تثور تلك الأسئلة المكررة البائخة التي تثيرها بعض التحقيقات الصحفية، حول أسباب غياب الأفلام الحربية التي تروي بطولات الجنود المصريين قبل حرب أكتوبر وخلالها، فيذكر اسم الكتاب بعض من قرءوه، كدليل على وجود كتابات قامت بتوثيق تلك البطولات، تحتاج فقط إلى الشروع في تحويلها إلى أعمال فنية، حين تتوفر الإرادة السياسية، ويقرر المسئولون العسكريون التوقف عن عرقلة المشاريع الجادة التي تسعى لإنتاج أعمال فنية عن بطولات الجندي المصري، دون أن يتم ذلك من خلال الرقابة العسكرية، بشكل يقوم بتحويل تلك الأعمال البطولية إلى مساخر مأساوية.

أخيرًا، وجد ذلك الكتاب العظيم فرصته للوصول إلى القارئ مجددا، حين أعادت «دار الكرمة» نشره في سلسلة مختاراتها، المكرسة لنشر عدد من الأعمال الرائعة والمظلومة في تاريخنا الثقافي، لتدرك حين تقرأ المذكرات، أن منعها من النشر، لم يحدث لأنها كشفت معلومات عسكرية يمكن أن يستفيد منها العدو الإسرائيلي، كما قيل لتبرير منع نشرها عام ١٩٧٢، بل لأنها قامت بتقديم المقاتل المصري كإنسان طبيعي يخطئ ويضعف وييأس ويخطئ ويشتهي، ويخاف أيضًا، وهي نظرة إنسانية مُركّبة، لا تتوافق مع عقلية القادة العسكريين الذين لا يسمحون بأي أعمال فنية أو أدبية، إلا إذا كانت تُظهر المقاتلين كأبطال كاملين، لا يرتكبون أي أخطاء بعد تنفيذهم لتعليمات القيادات العظيمة، ولا ينطقون إلا بالحكمة والوعود بالنصر وسحق العدو، ولا يغنون إلا للوطن وسمائه وترابه، ولا يضحكون إلا ضحكا مجروحا غارقا في الشجن، دون أن يدركوا أن ذلك التصوير البطولي السطحي، كان بالتحديد سر تحول أغلب الأعمال الحربية التي سمحوا بإنتاجها، إلى أضحوكة تسخر منها الأجيال الجديدة، التي لم تجد فيها أناسا طبيعيين يخافون ويتألمون ويحلمون وينكسرون، لتشعر بتماهيك معهم، وتفرح حين ينتصرون، وتبكي حين ينكسرون، وتتأثر بهم حين يقدمون حياتهم فداءً لوطنهم.

(٢)

لم يكن المقاتل «أحمد حجي» شخصية عادية، كما سيبدو لك مع كل سطر تقرؤه في المذكرات، بدءا من مقدمتها التي كتبها بتاريخ ٥ إبريل ١٩٦٩، قائلا إن فكرة كتابتها ألحت عليه منذ وصل إلى جبهة القتال، قبل أن يكاشف القارئ بأن ما يكتبه ليس إلا النزر اليسير مما يعيشه، ومضيفا:

«إذا لم توافني منيتي أو يدركني الموت، فسوف أقص على شعبنا مأساة مقاومته للعدو، وبطولات جنوده وبسالتهم، أما إذا كانت نهايتي ستكون على أرض القناة، فسأموت مستريحا، لأن أفكاري وجدَت طريقها ولم تعجز عن الحركة».
بالطبع سيزعجك تعبير «مأساة مقاومته للعدو»، إذا كنت مفتونا بالتعبيرات الطنانة، وربما تصورت شخصية الكاتب على غير حقيقتها، لأنك ستستغرب وصفه المقاومة بالمأساة، وربما انزعجت من قيامه بسرد أهوال الحرب التي تجعل بعض المقاتلين يخافون ويرفضون الانصياع للتعليمات من قادتهم، لكن ذلك سيتغير حين تعرف أن الكاتب بعد تجنيده عام ١٩٦٨، تم تعيينه في موقع آمن بالقاهرة، لكنه طلب الذهاب إلى الجبهة ليخدم في أشد مناطقها خطورة، وهو تصرف متسق مع شخصية شاب، بدأ نشاطه الاجتماعي في أواخر الخمسينيات، حين قام بافتتاح مدرسة لمحو أمية الفلاحين والعمال والنساء في قريته بمحافظة الدقهلية، وقد كان محو الأمية همًّا يشغله، كما يبدو من مقالاته التي نشرها في مجلة «الطليعة»، وكُتبه التي تحمل عناوين دالة مثل: «محو الأمية عمل لا بد منه ـ الفلاحون والعمل السياسي ـ الكلمات والبارود».
لكن ذلك الشاب الشجاع الذي يضع نفسه باختياره في موقع الخطر، أو على حد تعبيره: «أضع حياتي في مخاطرة أحسها بلحمي ودمي»، هو نفسه الذي يرفض ما يصفه بـ«لعبة الخداع المستمرة للشعب حول تفاهة قوى العدو»، ويحتقر الكذب الذي تنشره الصحف وتذيعه الراديوهات عن الخسائر الجسيمة التي تكبدها العدو، لأنه يرى أن من حق الشعب «الذي يدفع بلا حساب من أجل معركة ضخمة، أن يحس بحجم المخاطرة»، ولذلك يصف بشكل دقيق الخوف الذي يشعر به المقاتل حين تنهمر عليه قذائف العدو، قبل أن يصف كيف ينجح المقاتل في تحويل الحزن الذي يعتريه بسبب خسائر هذا القصف، إلى حقد على العدو ورغبة في تدميره، وهو أيضًا الذي لا يكف عن تذكير نفسه بأن مكان المعركة ليس جبهة القتال فقط، بل مكانها الوطن كله بما يعانيه من قهر وتخلف وفقر.وهو ما نراه في مواضع عدة من المذكرات، أكثرها خطورة وألمًا، ذلك الذي يروي فيه واقعة شاهدها خلال عودته في إحدى الإجازات، حين فوجئ بقطرات دم تسقط على يده التي كان متكئا بها على نافذة القطار، وحين استطلع مصدرها وجد خيطا من الدماء ينساب من فوق سقف عربة القطار، التي أطل من فوقها أطراف حذاء عسكري، ليتضح بعد إيقاف القطار، أن هناك جنديا ارتطم رأسه بسقف أحد الكباري التي مرّ تحتها القطار، فتهشم رأسه وفارق الحياة، وحين تم تسليم جثمانه إلى الشرطة العسكرية وتم جرد محتويات ملابسه، وجدوا معه منديلا وعلبة سجائر بها ثلاث سجائر وسبعة عشر قرشًا فقط لا تكفي لدفع ثمن تذكرة القطار، وبرقية تقول: «احضر حالا والدك توفي». ليكتب أحمد حجي تعليقا على ذلك المشهد الحزين: «عدت إلى مقعدي أسمع حديث الناس عما حدث، ولا أجد معنى لأي كلمة تقال، ولم أعد أرى برغم عينيَّ المفتوحتين، لا الأشجار ولا البيوت التي كانت تطل عليها نافذة القطار، فقد كان حجم الحزن أكبر من أي شيء، وتركز في خاطري سؤال: أترى هذا الوطن القاسي على أبنائه المخلصين؟ أيمكن لهذا الوطن أن ينهض؟ إن الأمر كله مرهون بقليل من الرحمة يمكن أن تنقذ عالمًا بأكمله».

(٣)

على مدار مذكراته ينبهنا أحمد حجي أن كل تلك المعاناة من هول الحرب «تجعل المقاتل على الجبهة يتحول إلى إنسان جديد، بعد أن تعيد لحظة الخطر خَلْقه»، ولذلك يحكي عما رآه بعينيه من بطولات مدهشة لأناس عاديين، جعلتهم الجبهة يشعرون بأنهم يحملون مصر كلها في قلوبهم، ويرونها في عز الظلام بشكل أوضح من الذين يجلسون على مقاهيها في عز النور، ويدرك أنه لا

يملك حلا لمشاكل الوطن الداخلية إلا بالمزيد من القتال، فنقرأ له وهو يروي لنا عن: قائد مدفع بترت صواريخ الطائرات المعادية ذراعيه، فثبّت قدميه على المدفع وأسقط طائرة. جنود يعبرون القناة في جنح الظلام وينفذون عمليات فدائية خاطفة ويعودون سريعا قبل أن يتبينوا مدى نجاح ما قاموا به، لكنهم يدركونه حين يشتد عليهم قصف الطائرات المجنون خلال عودتهم، فيشعرون بالسعادة الغامرة في عز تعرضهم للقصف المميت. جندي يحمي ظهر زملائه بعد أن انكشف خط عودتهم بعد عبورهم القناة وتنفيذهم عملية خلف خطوط العدو، يرفض كل الأوامر بالانسحاب ويستشهد ويغرق في قاع القناة، وتطفو جثته على سطحها بعد أسبوعين وهو لا يزال قابضا على بندقيته بقوة، ليسحب الجثة زملاؤه ويكتشفوا إصابته برصاصتين في رأسه. جندي يرفض ترك مدفعه تحت القصف ويستمر في إطلاق القذائف، ليخرج رفاقه من الملجأ بعد انتهاء القصف فيجدوه قد فارق الحياة، بعد أن شجّت شظية رأسه، وهو يحتضن مدفعه «ليهب دمه رفاقه شجاعة ونورًا»، وينطلقون لقصف مواقع العدو بشراسة حتى يأتيهم النبأ من القيادة بأنها تدمرت تمامًا. جندي يذهب كل صباح ليغرس جريدتين خضراوين على قبر صنعه لكلبه الذي مات إثر إصابته بشظية من شظايا العدو. جندي يطلب من حجي كتابة رسالة إلى أهل قريته يعدهم فيها بأنه سيلبي طلبهم بإحضار رأس «موشي ديان». قائد مدفع يرفض أن يكون أولوية للإسعاف بعد أن بُترت ذراعه اليمنى وأصيبت كتفه اليسرى بشظية أحدثت فيه جرحا عميقا، طالبا من حجي أن يبدأ بتضميد جراح من لا زالوا قادرين على القتال، مضيفا بهدوء شديد: «ماذا سيفعلون بي أكثر من ذلك، وما فائدة الحياة بدون ذراعين».

(٤)

ومثلما حاول أحمد حجي أن ينقل لقارئه تفاصيل الأهوال التي يعيشها المقاتل المصري على جبهة القناة، ووقائع بطولات الجنود المدهشة، سنجد أنه يحرص أيضًا على ذكر تفاصيل إنسانية، كانت بالتأكيد سببا في تقوية قرار منع الرقابة العسكرية للمذكرات، مثل روايته لمعاناة جندي زميل من الضعف الجنسي الذي منعه من ممارسة الجنس مع زوجته في الإجازة، وكيف أدرك حجي أن سبب ذلك هو تعرض زميله لضغوط نفسية بسبب الأهوال التي يراها على الجبهة، ليتأكد له صحة تشخيصه حين شارك الجندي رفاقه أخيرًا في عملية عسكرية، حدث بعدها انتصار قوي على العدو، فتحسنت نفسية ذلك الجندي، ليصارح حجي بعد عودته من الإجازة التالية، بأنه قام بحل المشكلة التي كانت تعوق علاقته الحميمة بزوجته.

في موضع آخر يروي أحمد حجي كيف تعرض للإصابة غير المميتة، ليرسل بعدها من المستشفى الميداني رسالة إلى صديق له بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠ يطلب فيها البحث عن متعلقاته التي كانت تضم وابور جاز وكُتبًا، فتأتيه رسالة من صديق مقاتل يخبره أنه تم استخدام حاجياته ومعداته وسيتم تعويضه عنها بعد خروجه من المستشفى، وبعد شهر يرسل رسالة عتاب لرفاقه بعد أن بلغه أن «بطاطينه» قد فُقدت، وأن وابور الجاز الخاص به قد تمت سرقته، خاتما الرسالة بقوله غاضبا لزملائه الذين كان يعالجهم: «أهذه مكافأتي؟».

وفي مواضع متفرقة من المذكرات، ووسط قصص البطولة والتضحية، يروي حجي وصف أحد الجنود لتصرف زميل له أصر على البقاء تحت القصف بأنه «وطنية خائبة»، وقيام بعض الجنود بقطف ثمار البطيخ التي يزرعها الفلاحون في الحقول المجاورة قبل أن تنضج، ويروي تأفف الضباط من اصطحاب الجنود معهم في المركبات العسكرية، وينقل حوارا يدور بين ضابط برتبة

نقيب وآخر برتبة رائد، حول عدم إحضار ثلاجة مع المهمات العسكرية، فيقول الرائد: «أنا لا أستطيع أن أعمل والبيرة بعيدة عني».
يحكي حجي أيضًا وقائع خلاف شديد دار بين الجنود وبين شيخ قادم من القاهرة، حين طلب الشيخ من الجنود التجمع للصلاة فيرفضون لأنهم بتجمعهم يقدمون خدمة للعدو لكي تحصدهم مدافعه، وحين يقول لهم الشيخ إن ذلك لو حدث سيكون لأن الله غير راضٍ عنهم، يحتد عليه جندي استشهد شقيقه في منطقة أخرى قائلا له: «هل رأيت تحصيناتنا؟ هل رأيت الجندي الذي تطالبه بالرجوع إلى الله وكأن حالته البائسة كفر قد تسبب فيه لنفسه؟»، وحين يشكو الشيخ في يوم تالٍ من رفض الجنود التجمع للصلاة، يدوي القصف الشرس على الموقع، فيدرك الشيخ أن ما كان يفكر فيه كان خطأً، وأن حديث الجنود عن تسهيل التجمع لاستهدافهم عسكريا كان أصدق وأصوب، فيخلع جبته وعمامته ويبدأ في حمل صناديق الذخيرة لتسليمها إلى جندي التعمير وهو يهتف: «الله يقويكم، الله يقويكم يا أولادي».

(٥)

حين أنهى أحمد حجي كتابة مذكراته يوم السبت ١٩ ديسمبر ١٩٧٠، لم يكن يعرف أن الرئيس الجديد للبلاد أنور السادات، سيصدر بعدها بعامين قرارا بطرد الخبراء السوفييت من مصر، وهو ما سيصعب من مهمة نشر مذكراته التي يرد بها حوار مع أحد الخبراء السوفييت، الذي يقول له: «إن مصر لن تنتصر في حربها، إلا مع بعض النظام وبعض المسئولية»، وهو ما ينطبق أيضًا على الجزء الذي كتب فيه حجي بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩٦٩ عن تعلق الجنود بالزعيم الثوري الراحل «إرنستو شي جيفارا» وحبهم له، وقيام بعضهم بتعليق صور في ملاجئهم تحت الأرض لـ «هوشي منه» و«جيفارا» وياسر عرفات.بالإضافة إلى تعليق لافتات تحمل كلمات جيفارا التي تقول: «ليس هناك جنود سيئون إلا وفوقهم قادة أسوأ ـ الاشتراكي هو آخر من يأكل وآخر من ينام وأول من يموت»، وحديثه عن المناقشات التي كانت تدور في ظلام الليل حول نضال جيفارا وبطولاته، وأنه لو كان حيا لأتى للاشتراك في الحرب ضد الصهاينة وحلفائهم الأمريكان، وعن مذكرات جيفارا التي كان يحملها حجي ويقوم بتوزيعها على زملائه حسب أقدمية الطلب، وعن المقاتل الملتحي مفتول العضلات البارع في القنص والذي أطلق عليه زملاؤه «جيفارا المصري»، وكلها تفاصيل لم تعد متماشية مع التوجهات السياسية الجديدة لأنور السادات، فضلا عن حديث حجي عن الملل الذي يعتري المقاتلين خلال توقف الاشتباكات، الذي كان من شأنه لو تم نشر المذكرات، أن يغذي حالة الغليان الموجود في الشارع المصري، خصوصًا بين الطلبة الذين لم يكفوا عن التظاهر خلال عام ١٩٧٢، الذي تمت تسميته بـ«عام الضباب»، سخرية من تسمية السادات له بـ«عام الحسم».
يظل أكثر جزء في المذكرات إدهاشا وإيلاما، هو ذلك الذي يروي فيه أحمد حجي قصة مقاتليْن صديقيْن أحدهما مسلم والآخر مسيحي، وثّقت ظروف النشأة المتشابهة من صداقتهما، فقد كان أحدهما يحمل دبلوم تجارة والآخر دبلوم معلمين، وكان كلاهما يعول أسرته بعد موت والده، ومع ذلك فقد كانا الأكثر مرحا وكأنهما لم يعرفا الألم قط، وحين طلب منهما قائد الموقع ذات يوم أن يختفيا في الخندق قبل وصول الطائرات، أصرا على إطلاق قذيفة أولا قبل الاختباء، فقتلهما قصف الطائرة الذي كان أسرع من قذيفتهما، وبعد استشهادهما قال أحد أفراد الكتيبة كأنه يعزي زملاءه: «كانا بطلين، على الأقل لم يفرا مثلما فر جندي التعمير في الكتيبة المجاورة»، في إشارة منه إلى جندي تعمير مدفع هرب قبل ثلاثة أسابيع، وأصبح مثلا على الجبن والضعف، وجلب لزملاء

كتيبته السخرية. وبعد فترة من تلك الواقعة، لاحظ حجي قيام أحد الكلاب بالنبش في كوم طين ضخم صنعه قصف القنابل، فأمر جنديا بحفر المكان، ليصطدم الجاروف بخوذة جندي كانت جثته قد بدأت في التحلل، ويكتشف الجميع أنه جندي التعمير الذي كان عرضة للشتائم، كانت في يده قبضة من طين وبجوار اليد الأخرى قذيفة فارغة، وحين رآه الجميع بكوا بحرقة، وهتف بداخل أحمد حجي هاتف يقول: «يبدو أننا أكبر مما نظن».

ينهي أحمد حجي مذكراته بمشهد مهيب يودع فيه المقاتلون المدافعَ القديمة التي ستخرج من الخدمة، بعد وصول أسلحة جديدة متقدمة، فيُقبلونها وهم يبكون قبل أن تختفي في ظلمة الليل خلف العربات العسكرية، قائلا: «ألـم تحـمِ كرامتنا؟ ألم تستجب لنجوانا؟ ألم تعطنا خير ما لديها؟ يجب أن يكون الإنسان وفيًّا حتى للصخر، ليكون جديرا بالحياة». وقبل أن نغادر الموقع، وقفنا لحظات من الحزن العميق والصمت على أرواح شهدائنا التي فاضت في هذا المكان، وتذكرنا جرحانا الراقدين الآن تحت السلاح، وقلنا دون أن ننطق «إننا دائمًا سنكون رجالا كما كانوا هم تمامًا».

(٦)

هل نسيت أن أقول لك إن الجندي أحمد حجي، كاتب هذه المذكرات البديعة، نال الشهادة على جبهة قناة السويس، في نفس العام الذي منعت الرقابة العسكرية نشر مذكراته التي ستبقى كل تفاصيلها حاضرة في الوجدان، وعلى رأسها ذلك التشخيص الحزين الدقيق لمأساة مصر المزمنة: «أترى هذا الوطن القاسي على أبنائه المخلصين؟ أيمكن لهذا الوطن أن ينهض؟ إن الأمر كله مرهون بقليل من الرحمة يمكن أن تنقذ عالما بأكمله»؟

الله.. الوطن.. بالأمر

هي قصة منسية من قصص حرب أكتوبر، لكنها قصة عن بطولة من نوع آخر، بطولة الذكاء والحصافة والنظر إلى ما هو أبعد من تحت القدمين.

دعنا نتخيل أنك قائد ميداني في موقع من مواقع القتال في حرب أكتوبر، تلقيت لتوِّك الأمر بمهمة قتالية تتطلب عبور القناة والاشتباك مع العدو، وحين قمت بتكليف جنودك بتنفيذ المهمة، فوجئت بأحدهم يعلن رفضه تنفيذ الأمر لأنه ليس مقتنعا به، ما الذي كنت ستفعله في موقف كهذا؟ بالتأكيد سيتجه تفكيرك إلى ضرورة إعدام هذا الجندي لكي يكون عبرة لغيره، ولكي لا يتسبب في نشر روح العصيان بين زملائه، ولن يلومك أحد لو فكرت في هذا ونفذته، لكن الفريق سعد الدين الشاذلي، بطل حرب أكتوبر، لم يفعل ذلك عندما واجه هذا الموقف الغريب في أكثر أوقات الحرب خطورة.

في مذكراته عن حرب أكتوبر يروي الفريق «سعد الدين الشاذلي» تحت عنوان «رقيب يرفض القتال» تفاصيل هذه الواقعة قائلا: «في الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ٦ من أكتوبر أبلغني أحد قادة الجيوش هاتفيا بأن لديه ضابط صف برتبة رقيب يرفض القتال عندما أخطر بمهمته في القتال، في صباح ذلك اليوم قال لقائده: «إن القتل والعنف ليسا من طبيعتي كما أنهما يتعارضان مع معتقداتي، وأنا لا أستطيع أن أقوم بتنفيذ هذه المهمة»، وقد حاول أصدقاؤه وقادته أن يثنوه عن هذه الفكرة ولكنه أصر على رأيه. كان قائد الجيش في ذروة الغضب وهو يبلغني بهذا الخبر، وأضاف قائلا بأنه سوف يأمر بتشكيل مجلس عسكري عالٍ لمحاكمة الرقيب المذكور، لكنني أخذت الموقف بمنتهى البساطة وقلت له: «لا علينا، إنه مجرد فرد واحد من ٤٠٠ ألف رجل - مائة ألف منهم عبروا القناة بالفعل طبقًا لمهامهم القتالية - إني أعلم أن نسبة الذين يرفضون القتال في الجيوش الأخرى أعلى من ذلك بكثير، لا تشغل نفسك بهذا الموضوع، أرسله تحت الحراسة إلى السجن الحربي وسوف نبحث موضوعه فيما بعد». كنت أعرف أن محاكمة هذا الشخص بمجلس عسكري عالٍ وصدور الحكم والتصديق عليه لم تكن لتستغرق نصف ساعة؛ إن المتهم يرفض القتال ويعترف بذلك، والإعدام هو الجزاء المنتظر لذلك، ومن الممكن أن ينفذ فيه حكم الإعدام أمام أفراد وحدته.

لقد جال هذا الشريط بسرعة في خيالي فاستبعدته، ولم أكن أريد أن أبدأ عمليتنا الهجومية بإعدام أحد رجالنا، قد يقال فيما بعد بأن المصريين لم يعبروا القناة إلا بعد أن رأوا رأس زميلهم معلقا في الهواء، وبذلك يستطيع أعداؤنا أن يشوهوا سمعة الجندي المصري، لا لن نعطيهم الفرصة لذلك؛ سوف نقدمه للمحاكمة فيما بعد، سوف نحاول دراسة نفسيته لكي نعرف كيف تتولد هذه الأفكار وكيف يمكن التغلب عليها. ثم شغلتني أحداث المعركة ولا أعرف حتى الآن مصير هذا الرقيب البائس، ولكني أعتقد أن حالته جديرة بالدراسة العلمية والنفسية».

تقرأ هذه الواقعة فتحمد الله لأن الجيش المصري كان على رأسه يومها قيادة عسكرية تمتلك الوعي والخيال، قيادة اجتهدت فأصابت وأخطأت، لكنها كانت تدرك قيمة الإرادة الإنسانية كشرط لتحقيق النصر على العدو، لأن النصر لا تحققه الأوامر العسكرية وحدها مهما كان صدق الذين أصدروها، بل يتحقق بإرادة المقاتل واختياره تغيير واقعه المرير، لأنه لو كان مهزوما من داخله لما انتصر أبدًا، حتى لو توفرت له أقوى الأسلحة، وحتى لو قاده أعظم القادة، لكنك أيضًا ستسأل نفسك: إذا كان هذا هو الحال في معارك السلاح العصيبة التي تتطلب الانضباط الكامل والحسم

القاطع، فكيف يتصور الجنرالات الذين تصدوا لحكم البلاد بدعوى إنقاذها أنهم يمكن أن ينتصروا في معارك السياسة المعقدة دون اختلاف ولا حوار ولا نقاش ولا حصافة؟ وكيف يظنون أن النصر الذي تحتاجه مصر الآن يمكن أن تحققه نفوس لا تمتلك حق الاختلاف، وعقول تشوشت بفعل الكذب الممنهج، وأرواح لا يقودها إلا الخوف من المجهول، وإرادة يمتلكها فرد لا يوجد من يحاسبه أو يرده عن غيّه؟ وإذا كان السلاح قد وضع نفسه في خدمة السياسة في زمن الحرب، فكيف يمكن لبلد أن تحيا وهي تمارس كل يوم قتل السياسة بغشومية السلاح؟

الذاكرة أهم من الذكرى

(١)

«دون اكتراث بغرابة الأمر، اختار قادة الدكتاتورية العسكرية في الأوروجواي، أن يطلقوا على السجن الرئيسي للبلاد اسم «حرية»، وفي ذلك السجن المسمّى «حرية»، حظروا على المساجين أن يرسموا أو يتلقوا رسوما لفراشات أو نجوم أو أزواج أو طيور، أحد السجناء وهو معلم مدرسة اسمه «ديداثكو بيري»، كان قد تم اعتقاله لأن «لديه أفكارا أيديولوجية خطيرة»، تلقى ذات يومٍ أحد زيارة من ابنته «ميلاي» البالغة من العمر خمس سنوات، التي أحضرت معها لوحة رسمتها مؤخرًا، لكن رسمها تعرض للمنع لأنه كان يحتوي على عصافير، وقامت رقابة السجن بتمزيق لوحتها على مدخل السجن. في الأحد التالي، أحضرت «ميلاي» رسمًا لا يحتوي إلا على أشجار، وبما أن الأشجار لم تكن محظورة، سمح الحرس بدخول الرسم إلى السجن هذه المرة، وعندما رآه الأب سأل ابنته: هذه الفاكهة الملونة الموجودة على الشجر ما هي؟ برتقال أم ليمون أم تفاح، ما هي؟ وابنته حاولت أن تسكته، وبعد أن تلفتت حولها قالت له: ألا ترى يا بابا أنها عيون؟ إنها عيون الطيور التي أحضرتها لك، مختبئة بين الأشجار».

كانت هذه واحدة من آلاف الوقائع التي قام كاتب الأوروجواي الكبير «إدواردو جاليانو» بتوثيقها في كتبه، التي اختار أن يستخدم فيها جميعا شكل الحكايات القصيرة، لكي يحفظ ذاكرة أمريكا اللاتينية، ويوثق التاريخ الشعبي لكفاحها المرير ضد الاحتلال ثم الاستبداد، ويوثق أيضًا عدم توقفها عن إنتاج البهجة والدهشة والمعرفة، وقد كان من حسن حظ القارئ العربي أن تصل إليه بعض كتب «جاليانو»، بجهد رائع للمترجم الكبير صالح علماني، ثم المترجم الكبير أسامة إسبر، كان من بينها «أفواه الزمن ـ كتاب المعانقات ـ كلمات متجولة ـ مرايا أو ما يشبه تاريخا للعالم ـ أبناء الأيام أو تقويم للتاريخ البشري ـ كرة القدم بين الشمس والظل»، بالإضافة إلى أهم هذه الكتب وهو ثلاثية «ذاكرة النار» التي تتكون من ثلاثة أجزاء: «سفر التكوين ـ الوجوه والأقنعة ـ قرن الريح»، وهو عمل ضخم وملهم، يتفوق في أهميته وجماله على عملٍ أشهر كَتَبه «جاليانو»، وصدر سنة ١٩٧٣، هو كتاب «الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية». ترجمه عام ٩٨ القديران أحمد حسان وبشير السباعي ـ وقد تضاعفت شهرته حين قام «هوجو شافيز» عام ٢٠٠٨ بإهدائه إلى باراك أوباما خلال قمة لرؤساء الأمريكتين، لتذكيره بما وثقه «جاليانو» في الكتاب من جرائم الإدارات الأمريكية المتعاقبة في حق شعوب أمريكا اللاتينية، بدعمها للحكومات العسكرية المتواطئة معها على نهب ثروات القارة، وبتآمرها على إسقاط الحكومات المناوئة للمصالح الأمريكية.

وبرغم أهمية ما بكتاب «الشرايين المفتوحة» من معلومات قيمة، وكونه سباقا في كتابة «التاريخ الشعبي» التي قدم فيها بعد ذلك المؤرخ الأمريكي «هوارد زن» كتابا شديد الأهمية، إلا أن «جاليانو» لم يكن يخفي عدم رضاه عن أسلوب الكتاب، وكان يتمنى كثيرًا لو أتيحت له إعادة كتابته من جديد، وهو ما ستتفهمه حين تقرأ ثلاثية «ذاكرة النار» وما تلاها من كتب. ظل «جاليانو» يطور فيها قدرته على الجمع بين التوثيق والإمتاع، في نفس الوقت الذي قام فيه بتوسيع زاوية رؤيته لتشمل العالم كله، فتصبح كتبه حارسة لذاكرة المقهورين في العالم أجمع، وليكون لمقهوري عالمنا العربي فيها نصيب لم يتوفر لهم، في الكثير من كتب التاريخ الرسمية المحشوة بأكاذيب يتواصل فرضها على الأجيال المتعاقبة.

(٢)

عرفت «إدواردو جاليانو» عام ١٩٩٨ أو نحو ذلك، عبر كتاب ساحر له، اسمه «كرة القدم بين الشمس والظل»، جذبني لقراءته وجود اسم المترجم العظيم «صالح علماني» عليه، والذي أنصحك ألا تترك كتابا عليه اسمه إلا واشتريته دون أن تسأل حتى عن موضوع الكتاب أو مؤلفه، وصدقني لن تندم، وقتها لم أكن أعرف أن «جاليانو» مثقف عظيم كتب في الرياضة من باب المزاج، التهمت الكتاب وأنا مسحور بكتابة «جاليانو» وقدرته على تكثيف الحياة كلها من خلال كتابته عن كرة القدم، لم أتمكن من تحديد ما قرأته، هل هو رواية فذة أم موسوعة رياضية أم كتاب فلسفي أم دراسة سياسية؟ لأنه ببساطة كان كل ذلك، ككل كتبه التي لحُسن الحظ وجدت أن إخواننا السوريين نشروا أغلبها من ترجمة المترجمَيْن القديرَيْن صالح علماني، وأسامة إسبر. واكتشفت أنه يكتب بطريقة خاصة تشبه كتب التراث العربي الشهيرة مثل «الأغاني» و«الأمالي» و«المستطرف في كل فن مستظرف»، وهي الطريقة التي انقطعت عن كتابتنا العربية حتى أعاد الوصل بها عميد الأدب العربي طه حسين في كتابه الجميل المظلوم «جنة الشوك»، ولم يفته تسجيل فخره بذلك في مقدمة الكتاب. أشك أن يكون «جاليانو» قد قرأ كتاب طه حسين الذي لم يترجم، لكنني متأكد أنه قرأ بعض كتب التراث المترجمة لأنه يقتبس أحيانًا من بعضها، وهو من أشد كُتاب العالم تعاطفا مع القضية الفلسطينية ووقوفا ضد الهيمنة الأمريكية، وكتابه الذي اشتهر بفضل قيام «شافيز» بإهدائه إلى أوباما، يحكي قصة عربدة العم سام في أمريكا اللاتينية. وقد أعجبني في «شافيز» حرصه يومها على أن يهدي «أوباما» الكتاب في نسخته الإسبانية مع أنه ترجم إلى الإنجليزية، وبالطبع احتل الكتاب فورا المركز الثاني في قوائم أعلى المبيعات في العالم الذي يقرأ، بينما لم تفكر صحيفة مصرية في عرض الكتاب برغم أنه مترجم إلى العربية من زمان بأيدي مترجمَين مصريَّين قديرَين هما أحمد حسان وبشير السباعي.

(٣)

كانت «حصص التاريخ الكئيبة» هي التي ألهمت «جاليانو»، فكرة صنع تاريخ مضاد يقاوم ذلك «الماضي الميت الأجوف الأخرس الذي علمونا عنه بطريقة جعلتنا نستكين للحاضر بضمائر جافة، لنقبل التاريخ الذي صُنع سابقا. لقد توقف التاريخ المسكين عن التنفس، تمت خيانته في النصوص الأكاديمية، كُذِب عليه في المدارس، أُغرق بالتواريخ، سجنوه في المتاحف ودفنوه تحت أكاليل الزهر ووراء تماثيل برونزية ورخام تذكاري». وحين حررت فضيلة الشك «جاليانو» في شبابه من سطوة ذلك التاريخ المكذوب، فاكتشف أن التاريخ الرسمي لأمريكا اللاتينية «يقتصر على استعراض عسكري لطغاة يرتدون بدلات عسكرية لم تستخدم من قبل»، قرر أن «يساهم في إنقاذ الذاكرة المخطوفة لأرضه المُحتقرة والمحبوبة، وأن يتحدث معها ويتقاسم معها أسرارها»، ولولا أنه فعل، لظلت أمريكا اللاتينية بالنسبة لنا مرتبطة فحسب بالواقعية السحرية التي أبدعها أدباؤها، قبل أن نكتشف من خلال كتبه، أن واقعها الفعلي، كان أشد عبثًا ودموية ومرارة، تمامًا مثل واقعنا العربي، الذي لا زال ينتظر من أبنائه استلهام تجربة «جاليانو»، فيستبسلوا في تحرير ذاكرته المخطوفة من سطوة التاريخ الرسمي المكذوب.

(٤)

هل يوجد بيننا الآن «آبيل دي ألينكار» لا نعرفه؟

لم أنسَ اسم الرجل منذ أن قرأت لـ«جاليانو»، وهو يروي كيف كان ذلك الموظف البرازيلي البسيط يختبئ كل ليلة على مدى ثلاث سنوات داخل مقر عمله بجهاز الأمن العسكري بالعاصمة

برازيليا، ليستنسخ أوراقا من ملفات سرية من أرشيف الجهاز، «تسمي عمليات التعذيب تحقيقا، والاغتيالات مواجهات مسلحة»، لينجح في نسخ مليون صفحة، أصبحت تشكل بعد سنين أخطر سجل توثيق للدكتاتورية التي لم يكن الكثيرون يعلمون أن قوتها وسطوتها تخفي خلفها بداية الانهيار.

خلال روايته لتلك البطولة الفردية المدهشة، يروي «جاليانو» أن «آبيل» خلال بحثه بين الوثائق اكتشف وجود رسالة مكتوبة قبل ١٥ عامًا، مختومة بقُبلة من شفتَي امرأة، وكان بقاؤها في الأدراج يعني أنها لم تصل إلى من كان ينبغي أن تصله، ليكتشف بعد ذلك مئات الرسائل التي لم تصل لأصحابها الذين أصبح مصيرهم مجهولا، ومع ذلك فقد قرر «آبيل» ألا يغتال تلك الرسائل بتمزيقها أو إعادتها إلى سجن الملفات، فكان يقوم في نهاية كل ليلة بإلصاق طوابع جديدة على الرسائل ويلقي بها في صندوق البريد، لعلها تصل إلى أصحاب النصيب، ومع أن «جاليانو» لا يروي لنا ما حدث للرسائل، ربما لأن أحدا لا يعرف ذلك المصير، لكننا على الأقل نعرف مصير ما قام «آبيل»، الذي لم يذهب جهده البطولي هباءً، بدليل ما حدث مؤخرا من خطوات حاسمة لتقديم المتورطين في انتهاكات حقوق الإنسان إلى العدالة، حتى وإن كانوا قد بلغوا من العمر عتيًّا، أو حتى فارقوا الحياة.

ذكرتني قصة «آبيل» المدهشة، بمقال مهم كتبه الأمريكي «إيريك فير» أحد المحققين الذين شاركوا في عمليات الاستجواب في سجن أبو غريب، نشره عقب إصدار الكونجرس الأمريكي تقريره الأخير عن تورط الأجهزة الأمنية الأمريكية في التعذيب بزعم الحفاظ على الأمن القومي. ومع أن «فير» ترك الخدمة وأصبح مدرسا للكتابة الإبداعية بجامعة ليهاي، إلا أنه يحرص دائمًا على توثيق تجربته في المشاركة في انتهاك حقوق الإنسان، حيث يقول في مقاله الذي ترجمه الكاتب أحمد شافعي: إن تجربة سجن أبو غريب لا زالت تسيطر عليه «كل دقيقة في كل يوم من أيام حياتي.. لم أزل أسمع الأصوات، ولم أزل أرى الرجال الذين كنا نسميهم المعتقَلين»، لكنه أدرك أنها في نفس الوقت لا تعني شيئًا لطلابه، الذين ينتمون إلى جيل لا يعتبر نشر صور أبو غريب لحظة حاسمة في حياته، فهو ينتمي إلى زمن آخر لا يخصهم.

لم يتسامح «إريك فير» مع فكرة أن انتهاكات سجن أبو غريب التي شارك فيها يمكن أن يطويها النسيان، برغم أنه قام في السابق بكتابة مقالات في الجرائد، وإجراء حوارات تلفزيونية تعرض تفاصيل انتهاك المعتقَلين العراقيين، وأدلى بشهادته أمام منظمة العفو الدولية ومحققي وزارة العدل والمفوضية العسكرية للتحقيقات، لكنه لم يكتفِ بذلك، ولم يستسلم لإغراء أن يترك الأمر كله وراء ظهره، لعله يصبح شخصا يمكن أن يفتخر به ابنه، لذلك قرر أن يتطهر من أوزاره، بتشجيع طلبته على تعقب صور أبو غريب، وأطلعهم على ما كتبه من شهادات حول ما قام به، متحملا تشكيك البعض فيما يقوله، والذي قلَّت حدته بعد صدور تقرير الكونجرس عن التعذيب، برغم أنه يؤكد أن لغة التقرير خففت وقع الكثير من الممارسات الوحشية. ومع أن «فير» يعرف أن أغلب الأمريكيين لن يقرءوا التقرير ولا ما يكتبه، لكنه يرى أن وجود توثيق لتلك الجرائم سيبقى سببا، لتذكير أجيال متعاقبة من الأمريكيين ولو بالصدفة وبفضل مبادرات فردية، بأن بلدهم لم يكن دائمًا شيئًا يمكن الافتخار به.

حاشا لله أن أيأس من روح الله، فأجزم أن بلادنا عقمت عن إنجاب أمثال ذلك الموظف البرازيلي وذلك المحقق الأمريكي، وحاشاي وحاشاك أن نكون أغبياء فنعتمد على المعجزات وحدها في توثيق ما جرى أمام أعيننا من قتل وقمع وانتهاك لحقوق الإنسان، لأن بمقدور كل منا أن يبدأ

بنفسه، فيقوم بتوثيق ما تحتويه ذاكرته من حكايات الضحايا ووجوه وأسماء القتلة والجلادين، وكل ما تحتويه ذاكرة موبايله أو كمبيوتره من صور وفيديوهات وشهادات، ليقوم بتبادلها مع من يثق به، ليكون كل ذلك نواة لذاكرة جماعية، ستحتاجها مصر حين تدرك أن مستقبلها لن يصنعه إلا تطهير ماضيها من الظلم، وعندها ستكون تلك الذاكرة طريقنا الأمثل لرد حقوق الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم من أجل بلد «أنضف».

طبعًا للظلم نهاية..
المشكلة أننا قد لا نشهدها

والمهم أنك بعد قراءة هادئة لما استطعت إليه سبيلا من وقائع التاريخ، قراءة متجردة من العواطف والشعارات و«الكلام الكبير»، ستدرك فعلا أن «الظلم لا يدوم وأن لكل ظالم نهاية»، لكن ربما كان لُبّ المشكلة في هذه الحياة الدنيا، أننا أيضًا كبشر لا ندوم، ولذلك لا نشهد نهاية الظلم إلا إذا كنا محظوظين، وهو ما يجعل التحدي المطروح على كل من يقاوم الظلم أو حتى يرفضه دون مقاومة، أمرا لا علاقة له بتفاؤله أو بتشاؤمه، ولا ببحثه عن النهاية السعيدة أو يأسه من مجيئها، وإنما مرتبطا بقدرته على مقاومة الظلم أو رفضه، دون أن يربط ذلك برؤيته لنهاية الظالمين على حياة عينه، ومشاهدته للعدل وهو يتحقق في الكون، إن سلمنا جدلا أن هناك إمكانية لتحقق عدل كامل قبل أن تتوقف الأفلاك عن الدوران.

لم يكن الشاعر المصري الشعبي «ابن عروس» مبالغا أو متحمسًا أو متمنيًا للمستحيل، حين قال قولته التي صارت عزاءً للمظلومين عبر السنين: «لا بد من يوم معلوم، تترد فيه المظالم، أبيض على كل مظلوم، إسود على كل ظالم»، لأننا سندرك من مطالعة الكثير من وقائع التاريخ أن هناك نهاية تعيسة تحل بكل ظالم، بشكل أو بآخر، إما في حياته وإما بعد مماته بسنين أو قرون، لتمنع تخليده بالشكل المشرق الذي تمناه، لكن تلك النهايات على اختلاف أشكالها، لا يشهدها سوى المحظوظين من المظلومين، وهم قليل على أي حال، لكن العدالة في كل الأحوال، سواءً جاءت في موعدها المرتقب، أو بعد فوات الأوان، لم تهبط على الأرض كمنحة مجانية من السماء، بل تحققت حين سعى إليها من قاوموا الظلم ورفضوه وأنكروه، أو حتى حافظوا على الذاكرة التي ترفضه، ولا تتسامح مع تبريره، وبدون ذلك لم يكن ممكنا أن تتحقق نهاية ما للظلم، وبذلك أيضًا أصبح لحياة الذين قاوموا الظلم معنى، حتى ولو لم يشاهدوا بأعينهم، كيف احتفت الأجيال التي تلتهم بمقاومتهم للظلم، وجعلت منهم نماذج للاحتفاء والتقدير، وقد كان ذلك أفضل لهم من أن يعيشوا عمرا طويلا في حياة لا معنى لها، خصوصًا وهم يعيشون في أوطان لا تضمن البهجة والسعادة والرخاء، لمن يسكت عن الظلم ويبرره ويؤيده، فهي تجعل أنصبة الشقاء والتعاسة محفوظة ومضمونة للكافة.

وإن شئت أمثلة على ذلك، فستجد في السطور التالية غيضًا من فيض، لا يسعى إلى أن يمدك بالأمل، بل إلى تذكيرك بعبثية انتظار الأمل، إن كنت تدافع حقًّا وصدقا، عن قيم ومبادئ تتمنى لها أن تغير حياة بلادك إلى الأفضل، كما تغيرت الحياة قليلا أو كثيرًا، في بلاد كثيرة يئس أهلها من تحقق العدالة أبدًا.

دعنا نبدأ من تركيا مثلا، ولعلك إن سألت فيها أي مواطن على قدر من الاطلاع والثقافة، عن أشهر وأهم شاعر في تاريخ تركيا الحديث، لأجابك على الفور إنه الشاعر الكبير «ناظم حكمت»، الذي كان واحدا من أشهر الذين أفنوا حياتهم في مقاومة الظلم، دون أن يدركوا نهايته، وحين وافته المنية عام ١٩٦٣ كان يبدو أنه قد خسر المعركة تمامًا، فقد مات غريبا عن بلاده محروما من جنسيتها، التي لم تتم إعادتها إليه إلا بحكم قضائي بعد نصف قرن من موته في المنفى، الذي عاش فيه سنوات لم يتجاوزها في العدد، إلا السنوات التي عاشها سجينا في معتقلات إسطنبول وأنقرة وبورصة، ولم يخرجه من سجنه إلا الضغوط الدولية المتوالية، التي جعلت عسكر تركيا يقررون نفيه إلى خارجها للتخلص من الصداع الذي سببه لهم حبسه المستمر، مع حرصهم على منع

أشعاره ومصادرتها وتجريم كل من ينشرها أو يحملها، ولم يبدأ بيعها بشكل طبيعي في المكتبات التركية إلا في عام ١٩٩٠.
لكنَّ نفي ناظم وحبسه ومصادرة كتبه، لم يمنع أشعاره من الوصول إلى الناس، فقد كان عشاقه يقومون بنسخ أعماله في دفاتر صغيرة، كان الآلاف يتناقلونها خفية بأعداد مهولة، واليوم أصبحت تلك الدفاتر المهرّبة وثائق تاريخية، تحتفظ بها أربعة مراكز ومتاحف تحتفظ بأعمال ناظم حكمت وتخلد سيرته، أحدها في إسطنبول التي مات محروما منها، وثانيها في موسكو حيث عاش لسنوات، فصار منزله متحفا يجاور مقبرته التي دفن فيها حسب طلبه، وثالثها في العاصمة الهولندية أمستردام حيث يحتفظ المعهد التاريخي الاجتماعي بالعديد من الوثائق التي تخصه، وعلى رأسها ملفاته في المخابرات السوفيتية التي لم تكن تثق فيه أبدًا، بالطبع لأنه شاعر، ورابعها في مركز بالعاصمة الفرنسية باريس، أودعت فيه صديقة ناظم ومترجمة أعماله «غوزين دينو» كل وثائقه الشخصية، في حين لا ترد أسماء القادة العسكريين والأمنيين الذين اعتقلوه ونفوه وجعلوا حياته جحيما، إلا واقترنت بالخزي والعار، وهو أمر إن لم يجعل حياة ناظم حكمت أسعد ولا أقل عذابا، فقد بات بالتأكيد يعني الكثير للأجيال المتعاقبة التي تحفظ أشعاره، وتستلهم سيرة نضاله حتى الآن، ليس في تركيا وحدها، بل عبر العالم كله.
من تركيا إلى ألمانيا، التي ظهر فيها فيلم جديد يحكي قصة مقاومين للظلم تأخرت نهايتهم السعيدة طويلا، يقدمه المخرج الألماني «أوليفر هرشبيغل»، الذي سبق له أن قدم فيلم «داون فول» الشهير عن الأيام الأخيرة للزعيم النازي «أدولف هتلر». في فيلمه الجديد يحكي «هرشبيغل» سيرة مجموعة من معارضي النازية كان يقودهم «جورج ألسر»، حاولوا عام ١٩٣٩ اغتيال «هتلر» بعبوة ناسفة، لكن «هتلر» ترك المكان قبل ١٣ دقيقة من الانفجار، ليتم القبض على «ألسر» الذي كان يبلغ من العمر وقتها ٤٢ عامًا، ويتم قتله في معسكر اعتقال داكاو، وبرغم هزيمة «هتلر» ونهاية الحرب، بقي «ألسر» في الظل لفترة طويلة، حتى اعترفت الدولة الألمانية ببطولته في عام ٢٠٠٣، حين وضعت صورته على طابع بريدي، بصحبة عبارة تقول: «أردت أن أمنع حدوث الحرب». ولم يكن «جورج ألسر» المعارض الوحيد الذي أعيد له الاعتبار رسميا بعد رحيله، فقد أقيم في عام ٢٠٠٩ نصب تذكاري للجنود الألمان المنشقين على «هتلر» وقياداته، والذين تم وصفهم بالخيانة وقتها، ودفعوا حياتهم ثمنا لذلك الانشقاق، ليتضح أنهم كانوا أكثر وطنية من الذين صفقوا للسياسات النازية المجنونة التي دمرت ألمانيا وجلبت لها الخزي والعار. ولعلك تتأمل كيف أن الاحتفاء العالمي بصورة المواطن الألماني الذي رفض أن يؤدي تحية النازية وسط قطعان المهللين لـ«هتلر» والمفوضين له، أصبح مدعاة للاحتفاء الدائم بسيرة المواطنين الألمان الذين دفعوا حياتهم ثمنا لرفضهم سياسات «هتلر»، وكان من بينهم طالبة اسمها «صوفي شول»، التي تم قطع رأسها بسبب توزيعها منشورات ضد الحرب وضد «هتلر»، وكانت كلماتها الأخيرة قبل المقصلة: «يا للحزن، يوم بهذا الجمال، وبهذه الشمس، ويكون عليَّ أن أغادر».
في مشروعه لإحياء الذاكرة البشرية ضد الظلم والقمع، قام كاتب الأوروجواي العظيم «إدواردو جاليانو» في العديد من كتبه، برواية سِيَر العديد من مقاومي ومقاومات الظلم عبر التاريخ، الذين لم يُكتب لهم أن يعيشوا ليروا كيف صاروا نماذج بشرية ملهمة لا يجرؤ عاقل على التقليل من عطائها وتضحياتها. خذ عندك مثلا الأيقونة الثورية «روزا لوكسمبورغ» التي تم اغتيالها في برلين عام ١٩١٩، حيث تم تهشيم عظامها بأعقاب البنادق، وألقي بها في مصرف مياه، لتسقط فردة حذاء من إحدى قدميها، لكن ما بقي منها كما يقول «جاليانو»، لم يكن فردة حذائها فقط. وهو

ما حدث قبلها بحوالي خمسمائة عام، وبالتحديد في ٣٠ مايو ١٤٣١، حين قررت الملكية الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية إحراق «جان دارك» التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها، في محرقة نصبت في السوق القديمة بمدينة روان، يومها ألبسوها قبعة كبيرة جدًّا كتبوا عليها «هرطوقية مجرمة مرتدة وثنية»، وبعد إحراقها ألقي رمادها في نهر السين من أعلى أحد الجسور، على أمل أن تتبدد ذكراها إلى الأبد. لكن سيرة «جان دارك» عاشت أضعاف السنوات التي عاشتها صاحبتها على الأرض.
في عام ٢٠٠٩، تقدمت الحكومة البرازيلية باعتذار إلى المواطن «باولو فريير» الذي يلقبه «جاليانو» بـ«نبي التعليم التعاوني». لكن «باولو» لم يكن حيًّا لكي يقبل الاعتذار، الذي حاولت به الحكومة المنتخبة أن تعتذر عن جرائم الدكتاتورية العسكرية التي سجنته لسنوات عديدة، وبعد ضغوط دولية قامت بطرده من البلاد ومنعه من العودة، كل ذلك لأنه قرر أن يرتكب جريمة شنعاء، هي محو أمية الآلاف من عمال السكر في مدينة «بيرنامبوكو» «لكي يكونوا قادرين على قراءة العالم والمساعدة على تغييره»، بادئا تلك الدروس تحت شجرة مجاورة للمصنع، قبل أن يتعاظم تأثيرها ويصبح مزعجا للعسكر ودليلا على فشلهم، ليقرروا طرده من البلاد التي يوجد بها الآن ٣٤٠ مدرسة برازيلية تحمل اسمه.
وفي بيرو، لم ينجح العسكر في محو السيرة العطرة التي حظي بها «هوغو بلانكو»؛ أبرز ناشط لمناصرة حقوق السكان الأصليين، والذي كانت جريمته هي تنظيم نقابات للفلاحين، ليدفع ثمن ذلك الاختيار غاليًا، عبر الإضراب والتعذيب والسجن والمضايقة من «المواطنين الشرفاء الموالين للعسكر»، وأخيرًا النفي. وحين قام خلال إحدى فترات سجنه بتنظيم ١٤ إضرابا عن الطعام، وساءت حالته الصحية، ولم يعد قادرا على تحمل المزيد، أرسلت إليه الحكومة المتأثرة لحاله هدية لم تكن سوى تابوت خشبي. ولا أظن أن الجنرال الذي أرسل له التابوت، كان يتصور، وهو غارق في ضحكه وقتها، أن تصرُّفه ذلك سيصبح مثارًا للعنات لا تنتهي، ومدعاة لفخر لا ينتهي بـ«هوغو بلانكو» إلى الأبد.
في الأرجنتين، قرر قادة الدكتاتورية العسكرية التخلص من أطفال الأمهات اليساريات بشكل رأوه جذريًّا وحاسمًا، فتم تطبيق «الخطة كوندور» التي أرسلت فيها الأمهات الحوامل من الأرجنتين إلى أوروجواي، حيث كان يتم قتل الأمهات بعد الولادة، وإهداء المواليد إلى المحاسيب، ليتم توزيع أكثر من ٥٠٠ طفل كغنيمة حرب، بعد قتل أمهاتهم الذين لم يعلم أحد هل تم دفنهن، أم أنهن انضممن إلى آلاف المفقودين الذين تم إغراقهم في مياه البحر. وفي ١٤ يونية ١٩٨٢ خسر جنرالات الأرجنتين الحرب مع بريطانيا، برغم حملات الكذب الإعلامي الرهيبة، ووقتها لم يكن أحد يصدق، حتى معارضو الجنرالات، أنه سيأتي اليوم الذي سيرون فيه قادة البلاد خلف أقفاص المحاكمة، بتهمة إخفاء آلاف المواطنين. كان من بينهم الطالبة «سيلفيا برودي» التي اتهمها البوليس بأنها «محتجة مشاكسة». «سيسيليا» أقرب صديقاتها تقدمت لتدلي بشهادتها في المحكمة عام ٢٠٠٨، متحدثة عن التعذيب الذي تعرضت له في ثكنة عسكرية، معترفة أنها هي مَن أعطت العسكر اسم «سيلفيا»، بعد أن لم تعد قادرة على تحمل مزيد من التعذيب طيلة الليل والنهار. وعند خروج «سيسيليا» من المحكمة اقترب منها صحفي وسألها: «وما الذي فعلتِه لكي تبقِي على قيد الحياة بعد ذلك؟»، فردت عليه: «ومن قال لك إنني على قيد الحياة؟».
لم يطو النسيان اسم «سيلفيا برودي»، بل بُعِث إلى الحياة من جديد، ومعه أسماء آلاف الشباب والشابات الذين اختفت آثارهم تمامًا، والذين يروي لنا «جاليانو» قصة أحدهم، وهو «أوسكار

لينيرا» الذي كان سجينا في ثكنة عسكرية مع صديقه «بييرو دي مونتي» الذي كان له حظ البقاء حيًّا، ليروي أن كلمات «أوسكار» الأخيرة قبل اقتياده إلى الغرق في البحر كانت: «لديَّ ما أقوله، أتعلمون شيئًا؟ أنا لم أمارس الحب قط، وهم سيقتلونني الآن، دون أن أكون قد عرفت هذا الشيء». لتؤدي تلك المحاكمات إلى إصدار سلسلة من الأحكام على ضباط سابقين تورطوا في قضايا قتل وتعذيب، دون أن يتوقف القضاء عند كون بعض المتهمين في تلك القضايا يبلغ من العمر ٨٤ عامًا و٨١ عامًا، كما حدث على سبيل المثال في قضية قتل باحثة ألمانية كانت متعاطفة مع المعارضين، حيث تم سجن الضابطَين اللذَيْن قتلاها هي وعددًا من المعارضين، في نفس السجن الذي شاركا فيه بتعذيب ٢٥٠٠ معارض بين عامَي ١٩٧٦ و١٩٧٨، في حكم نزل بردًا وسلاما على كثير ممن تخيلوا أن العدالة لن تنزل على سماء الأرجنتين أبدًا.
في مطلع عام ٢٠١٥ أصدرت محكمة «بوينس آيرس» حكما بالسجن المؤبد على أربعة عسكريين قاموا في سبعينيات القرن الماضي باختطاف وتعذيب ثلاثة فنانين معارضين هم: «إكتور أوستريلد» أشهر رسام كاريكاتيري في تاريخ الأرجنتين، والكاتب الروائي «أرولد كونتي»، والسينمائي «ريموندو جليثير»، ضمن أكثر من مائتي معارض سياسي تعرضوا للخطف والاحتجاز بمركز اعتقال سري يقع خارج العاصمة. أما الجناة الذين أدانتهم المحكمة فهم مأمور مركز الاعتقال السابق وثلاثة من العسكريين سيبقى اثنان منهما تحت الحجز المنزلي لأنهما تخطيا السبعين عامًا ويمران بظروف صحية سيئة. ومع ذلك لم تعفهم العدالة من مواجهة تبعات أفعالهم الوحشية. وفي نفس الفترة نُشر في البرازيل، وبعد طول انتظار، تقرير لجنة الحقيقة التي تم تشكيلها عام ٢٠١١ للتحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان خلال الحكم العسكري للبرازيل في الأعوام من ١٩٦٤ إلى ١٩٨٥، والذي لم يكتفِ بتوصيات لذر الرماد في العيون، كما يحدث في تقارير لجان «تخصِّي» الحقائق لدينا، بل قام بتحديد ٣٧٧ مسئولا تورطوا في الانتهاكات في تلك الفترة، ودعا إلى محاكمتهم جنائيا في تحدٍّ واضح لقانون العفو العام، الذي صدر في ظل حكم العسكر عام ١٩٧٩ ليضمن حماية مستقبلية للمسئولين عن تلك الجرائم.
في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي أواسط القرن التاسع عشر، قام المواطن الأبيض «جون براون»، بتصرف جعله يعتبر خائنا لعِرقه وطبقته، حين سطا على ترسانة عسكرية في ولاية فرجينيا، كي يقدم أسلحة لعبيد المزارع، وحين قامت فرقة عسكرية بمحاصرة «براون» والقبض عليه، تم ترقية قائدها الكولونيل «روبرت لي» إلى رتبة جنرال، ليقود بعد فترة قصيرة الجيش الذي دافع عن العبودية خلال حرب الجنوب الطويلة ضد شمالي الولايات المتحدة، وحين انتهت الحرب بالهزيمة تم تسريح الجنرال «لي» من الخدمة، ليموت في فراشه مجللا بالعار، هو وكل من حاربوا في تلك الحرب التي كانت تبدو بطولية لهم بالتأكيد، أما «براون» صديق العبيد، فقد أدين لهجومه على ترسانة السلاح بتهم القتل والتآمر وخيانة الدولة، ومات مشنوقا عام ١٨٥٩، في يوم أصبح بالمصادفة يوما لمناهضة العبودية، يحتفل به الملايين بفضل «جون براون» والآلاف من أمثاله الذين لم يستسلموا لرغبات الجموع، وقرروا أن يدافعوا عن مبادئهم أيا كان الثمن.
بعدها بأعوام، وفي ١٩ نوفمبر ١٩١٥، أُعدم رميًا بالرصاص في مدينة سالت لايك سيتي، المواطن «جو هيل» الذي تم اعتباره محرضا أجنبيا، لأنه اقترف خطيئة تأليف الأغنيات التي ترافق المظاهرات العمالية في الولايات المتحدة، ولم يجد «جو هيل» ما يرد به على تهمته المميتة سوى أن يطلب في ليلته الأخيرة من رفاقه ألا يضيعوا الوقت في البكاء عليه، كاتبا هذه الكلمات

الملهمة: «رغبتي الأخيرة سهلة القول، لأني لم أخلف ثروة يمكن اقتسامها، حريتي هي كل ما تبقى، فالحجر المتدحرج لا تتوالد عليه الطحالب».
بعدها بأعوام، وفي ١٩ ديسمبر ١٩١٩، تم نفي ٢٥٠ أجنبيًّا من الولايات المتحدة، بعد اعتبارهم أشخاصا غير مرغوب فيهم، كان من أهمهم المناضلة «إيما جولدمان» التي سُجنت عدة مرات قبل نفيها، لتنظيمها إضرابات وتوزيعها وسائل منع الحمل، ولمعارضتها الخدمة العسكرية الإجبارية بكلمات قالت فيها: «الحروب جميعها هي حروب بين لصوص جبناء جدًّا لا يصلحون للقتال فيرسلون آخرين ليموتوا بدلا منهم»، وبرغم كل هذه السنوات لا زالت «إيما جولدمان» وكلماتها حاضرة في وجدان أجيال من الأمريكيين الرافضين للحروب التي تشنها حكوماتهم في مناطق متفرقة من العالم. ولا زالت «إيما» قادرة على أن تكون ملهمة لأعمال فنية وأدبية عديدة، من أشهرها مسرحية «إيما» التي كتبها المؤرخ الأمريكي الشهير «هوارد زن»، وترجمت إلى العربية قبل سنوات.
في جواتيمالا، كسرت الحكومة عام ٢٠٠٤ ولأول مرة قانون إفلات السلطة من العقاب، حين اعترفت رسميا بأن الباحثة «ميرنا ماك» قد اغتيلت بأمر من رئاسة البلاد، لأنها توغلت في الأدغال لعمل بحث مع السكان الأصليين الناجين من المجازر العسكرية، ليصدر أمر بقتلها طعنا بالسكاكين. وبعدها بسنوات في ٢٠١١ لم تفلح القوانين المصممة بعناية، في مساعدة قادة الخمير الحمر على الإفلات من المحاكمة بسبب ارتكابهم جرائم ضد الإنسانية، سقط بسببها آلاف القتلى، خلال الأعوام من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٩، كان أكبر القادة الذين تعرضوا للمحاكمة سنًّا وهو وزير خارجية النظام، قد بلغ من العمر وقت بدء المحاكمة ٨٥ عامًا، ومع أنه لم يَقتل بيديه، لكن المحكمة المدعومة من الأمم المتحدة اعتبرته متورطا سياسيا في كل ما جرى، بل وحاكمت معه زوجته البالغة من العمر ٧٩ عامًا والتي كانت تشغل منصب وزيرة الشئون الاجتماعية، كما حوكم أيضًا مُنظر التنظيم ونائب زعيمه السفاح «بول بوت»، وكان عمره ٨٤ عامًا، وكذلك وزير الداخلية السابق البالغ من العمر ٧٩ عامًا، وقد حوكم جميعهم مع أنهم لم يَقتلوا بأيديهم مباشرة، لكن مجرد وقوع تلك الجرائم تحت مسئوليتهم السياسية جعلهم خاضعين للمحاكمة الجنائية.
في كولومبيا، وخلال محاكمات قامت بفتح ملفات الحكم العسكري، اعترف ضابط برتبة كولونيل أن وحدته قتلت خلال سنوات الحرب التي شهدتها البلاد ٥٧ مدنيا ثم ألبست جثثهم أزياء عسكرية للادعاء أنهم متمردون قُتلوا في مواجهات عسكرية من أجل الحصول على مكافآت مالية أعلن عنها الجيش لمن يقتل أكبر عدد من المتمردين. الكولونيل «لويس بورجا» يقضي عقوبة السجن لمدة ٢١ سنة، وقد سبقه إلى السجن ثمان جنود يقضون الآن عقوبة بالسجن ستين عامًا، لقتلهم أربعة مزارعين ثم إلباسهم ثيابا عسكرية، بينما يواصل المدعي العام الكولومبي، وعلى مدى سنوات التحقيق في ألف وأربعمائة حالة مماثلة حصلت في الفترة من ٢٠٠٢ إلى ٢٠١٠.
أما في هولندا، فقد صدر في عام ٢٠١١ حكمٌ قضائي باتٌّ اعتبر أن الدولة الهولندية مسئولة عن قتل ثلاثة مسلمين هربوا مع المئات من مذابح سربرنيتسا التي كانت تقوم بها قوات الصربي «راتكو مالديتش» في ١١ يولية ١٩٩٥، ولجئوا إلى معسكر قوات حفظ السلام الهولندية التي أجبرتهم على الخروج من المعسكر ليتم قتلهم هم و٨ آلاف شخص في أسوأ مذبحة شهدتها أوربا منذ الحرب العالمية الثانية، ليلجأ بعض ذويهم إلى القضاء الهولندي الذي أثبت بعد تحقيقات طويلة

أن القوات الهولندية كانت مخطئة بعدم حمايتها للمدنيين، مما يلزم الدولة الهولندية بدفع تعويضات لذويهم، وهو ما يفتح الباب لسلسلة قضايا تشمل كل المتضررين مما جرى يومها.
في المجر، تمت قبل سنوات إحالة رجل عمره ٩٧ سنة إلى محكمة خاصة ببودابست لاتهامه بارتكاب جرائم حرب تسببت في مقتل ٣٦ يهوديًّا وصربيًّا عام ١٩٤٢ أثناء الحكم النازي لمدينة نوفوساد الصربية، والمدعون عليه طالبوا بمعاقبته بالسجن، والمتهم أصر أنه لا يعرف شيئًا عن تلك الاتهامات، ولم يتم الدفع بكبر سنه ولا بتدهور صحته، بل خضع لمحاكمة عادلة برأته المحكمة على إثرها.
أما في كينيا، فقد حصل ٤ عواجيز كينيين في عام ٢٠١١ على موافقة من المحكمة العليا برفع دعاوى قضائية على الحكومة البريطانية التي يتهمون ضباطا منها بتعذيبهم أثناء تمرد الماو ماو الذي وقع في الخمسينيات من القرن الماضي، وهو ما يفتح الباب لسيل من الدعاوى التي سيرفعها كينيون تعرضوا للتعذيب، بل وللاعتداءات الجنسية والإخصاء. أعجبني تعليق على هذا الحكم قاله الأسقف الجنوب إفريقي «ديزموند توتو» الذي اعتبر أن إنصاف هؤلاء الضحايا ليس انتصارا قانونيا بقدر ما هو انتصار أخلاقي وسياسي تحتاجه إفريقيا وكل شعوب العالم الثالث.
في المكسيك، كانت السنين كفيلة بتبديل الطريقة التي يتذكر بها الناس راهبا وجنرالا، الراهب هو «سيرفاندو تيريسا دي ميير» الذي صدر عليه حكم بالإدانة الأبدية في عام ١٧٩٤ أصدره مطران المكسيك «ألونسو نونيث»، لأنه ألقى موعظة نارية رفض فيها اضطهاد اليهود في محاكم التفتيش ودافع عن الاستقلال المكسيكي، فدفع الثمن تجريده من لقبه ومنعه بصورة أبدية من التدريس وتلقي الاعترافات وإلقاء المواعظ، وحُكم عليه بالنفي إلى إسبانيا، وتم سجنه سبع مرات، ليهرب من السجن سبع مرات، ولتعيش حتى الآن سيرته كمناضل حارب من أجل استقلال بلاده، وكتب أبحاثا جادة حول مشروع جمهورية حرة من القيود الاستعمارية والعسكرية الإسبانية، لتستفيد منها أمته المكسيكية حين تصبح سيدة نفسها.
أما الجنرال فهو «أرتورو دوراثو» الذي كان يقود الشرطة المكسيكية، وكان يقبض في نهاية كل شهر رواتب ألفَي شرطي ممن ماتوا أو لم يولدوا من أصله، وكان يتقاضى عمولة عن كل جرام كوكايين أو هيروين يمر عبر البلاد، وكان يبيع رُتب الضباط بمليون ونصف مليون بيزو مكسيكي لرتبة الكولونيل، وكان يهدي رتبة كابتن لمطربيه المفضلين، ويمتلك عددا من البيوت في مكسيكو والعالم، يمتلك كل منها أسلوبا مختلفا في الأثاث. وفي عام ١٩٨٢ حصل على دكتوراه فخرية، لتنشر كل الصحف صورته وهو يرتدي الرداء الجامعي، لكن المطاف لم ينتهِ به في بيوته العديدة، بل في السجن، مجللا بالعار والخزي. ومع أن المكسيك لا تزال حتى الآن تحارب من أجل تطهير شرطتها من الفساد، ومن أجل أن تعيش في جمهورية حرة من القيود التي أصبحت تفرضها طبقة أصحاب المصالح، إلا أن سيرة الراهب «سيرفاندو» والجنرال «أرتورو» لم تعد تُقرأ بنفس الطريقة التي كانت مفروضة على الكل بالحديد والنار.

* * *

تتعدد الوقائع بحيث يضيق عن حصرها المجال، لكن يبقى الاختيار في نهاية المطاف، أخلاقيا وشخصيا، يخصك أنت وحدك: هل تختار رفض مساندة الظلم حتى ولو لم تشهد نهايته؟ أم تشارك في نصرة الظلم، ولو بالتبرير، يأسًا من أنك لم تشهد نهايته؟ سيكون عليك أنت وحدك أن تختار، لأنك وحدك الذي ستدفع ثمن اختيارك، حين يكون ذلك الاختيار مدعاة للفخر أو للعار، في حياتك، أو حين تنتهي حياتك، بعد عمر طويل.